السنة الثالثة (ربيع الأول سنة ١٣٥٥ هـ — يونية سنة ١٩٣٦ م) العدد الأول

صحيفة دار العلوم

١٩٣٤ م

مجلة الأدب واللغة والتربية والاجتماع

تصدرها جماعة دار العلوم

كل ثلاثة أشهر

قررت وزارة المعارف ومجالس المديريات «صحيفة دار العلوم» في جميع مدارسها

المدير
محمد نجيب حتاتة

رئيس التحرير
محمد علي مصطفى

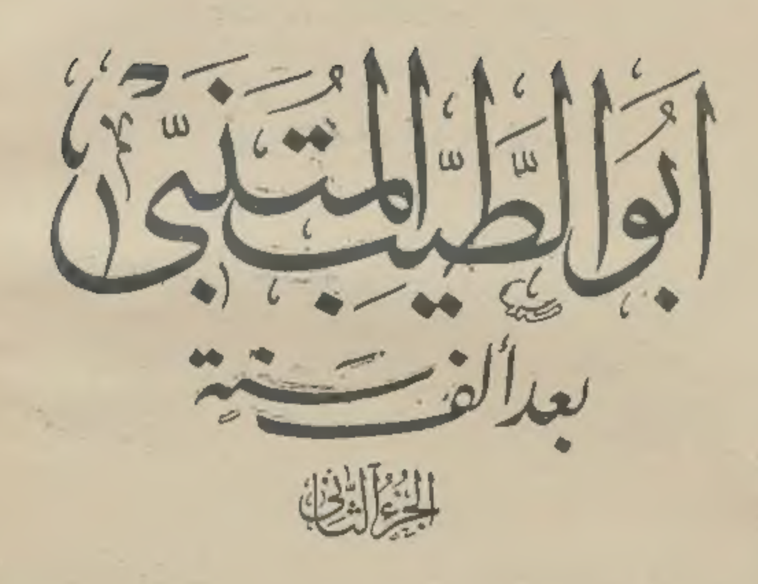
المراسلات الخاصة بالتحرير
ترسل إلى مساعد التحرير
محمد مهدي علام
المفتش بوزارة المعارف

الاشتراكات والحوالات المالية
ترسل باسم أمين الصندوق
السباعي بيومي
المدرس بدار العلوم

الاشتراك السنوي

في القطر المصري	لغير الطلبة	٢٠ قرشا
	للطلبة ومدرسي المدارس الأولية	١٢ »
خارج ا[لقطر]		٦ شلنات انجليزية
ثمن العدد		٥ قروش

المطبعة الرحمانية بمصر





إن باحثاً مدققاً لو أراد أن يعرف أين تموت
اللغة العربية وأين تحيا لوجدها تموت في كل مكان
وتحيا في دار العلوم"

الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده

مقدمة

لرئيس التحرير

دار الفلك دورته ، وقطعت الصحيفة عاما آخر من عمرها ، جرت فيه شوطا بعيداً ، إلى الغاية السامية التى قصدت إلى تحقيقها ، ونالت فى أثنائه نصيبا كبيراً من النجاح ، لايسعنا إلا أن نقابله بحمد الله وشكره .

وليس أدل على توفيق الله إيانا ، وتوالى نعمه علينا ، من إقبال أهل الفضل ، ورجال الأدب ، على الصحيفة ، ورغبة كثير من المشتغلين بالدراسات الأدبية ، فى أن تكون لديهم مجموعات كاملة منها ، ولذلك اشتد طلبهم للأجزاء التى صدرت منها فى العامين الماضيين ، حتى كان من نتيجة تلك الرغبة الملحة ، أن فكرنا فى أن نعيد طبع بعض هذه الأجزاء ، استجابة لرغبتهم ، وتحقيقا لمطلبهم ، وإن كان ذلك يكلف خزانة الصحيفة نفقات ليس من السهل عليها احتمالها فى الوقت الحاضر .

على أننا على تمام الاستعداد لهذا العمل : نقوم به مغتبطين ، لأن عقيدتنا الراسخة أن أقدس واجب ، تشرف الصحيفة بالقيام به ، هو أن تؤدى رسالتها كاملة ، وأن تبلغ الناس جميعا ، ماوعاه الأدب العربى من ذخائر الفن ، وكنوز الحكمة ، مجرداً من كل زيف ، مبرأ مما اتهمه به المحدثون من علة .

لقد رزئت الصحيفة فى عامها المنصرم بوفاة مديرها ، الأستاذ الجليل المرحوم ، أبى الفتح الفقى ، وهو رزء فادح نسأل الله فيه جميل الصبر ، وعظيم الأجر ، وحسن العوض . لقد أدار لجنتها بحزم ، وأشاد بذكرها فى كل مجتمع ،

وقدمها - فخوراً بها حدبا عليها - إلى رجالات الأدب وعظماء البلاد، وإننا لنعد موته خسارة عظيمة، ونشعر بفقده، وبما أحدثه فى جماعة دار العلوم من فراغ ليس من السهل على واحد أن يسده.

وليس يخفف عنا ما نجده من لوعة ممضة، وما نحسه من جوى الحزن، إلا أن يتولى صديقنا الأستاذ محمد نجيب حتاته إدارة التحرير؛ وهو - إذ يتقدم ليضطلع بهذا العبء - تتوجه إليه أنظار أبناء دار العلوم عامة، واليقين يملأ نفوسهم فى أن يصل بالصحيفة إلى الذروة؛ فقد عرفوا فيه استقامة المبدأ، والصلابة فى الحق، وبعد الهمة، ومضاء العزيمة، وفيض النشاط، وفضل الإخلاص، لجماعة دار العلوم، ونادى دار العلوم، وصحيفة دار العلوم.

ليس واحد من أبناء دار العلوم ينتظر منى الشكر على ما بذل من معونة، وأسدى من نصيحة؛ فإنه حين يبذل معونته ويسدى نصيحته، يؤدى فرضا عليه لنفسه ولطائفته، ولوطنه وأهله، وللغته لغة القرآن والدين؛ ولكنى مع هذا أقدر لهم ما قاموا به من مساعدة؛ وأشكرهم عليها أجل الشكر وأوفاه، والله يجزيهم عنا خير الجزاء.

محمد على مصطفى



لقد تحدث الأدباء والمؤلفون عن فلسفة المتنبي ، بماسجل لأبى الطيب ذكرا فى الفلسفة أخلد من ذكر كثير من الفلاسفة المتوفرين على الحكمة ، المنقطعين لدرسها . وما أريد أن أخالفهم فى رأيهم هذا بقدر ما أريد أن أعدله وأنظمه ، وأضع له الأدلة من كلام المتنبي - من كلامه الذى نعتقد أنه يشتمل على تفكير فلسفى ، لا من كلامه الذى ظن كثير من الكتاب أنه فلسفة وما هو بفلسفة ؛ وبذلك ننصف المتنبي من جهة ، وننصف الفلسفة من جهة أخرى .

معنى الفلسفة :

والحق أن الفلسفة كلمة شقيت بسوء الاستعمال منذ قديم ، ومن شقوتها أن أصبحت تستعمل استعمالا أدبيا فضفاضا ، خاليا من الدقة اللائقة بمقام الفلسفة . فكثيرا ما تطلق الفلسفة على الكلام غير المفهوم ، وكثيرا ماتطلق على الأفكار

---

* ألقى بعض فصول هذا البحث محاضرة فى قاعة المحاضرات بدار العلوم فى مساء الخميس ٢٧ من فبراير سنة ١٩٣٦ ، وأذيع منها ثلاثة فصول من محطة الإذاعة اللاسلكية فى يوم الاثنين ٢٠ من إبريل سنة ١٩٣٦

الخيالية ، وكثيرا ما تطلق على فنون جميلة من البلاغة ، وأحيانا تطلق على كل معجب من القول أيا كانت مرتبته فى الفكر الإنسانى .

وقد أخرج لنا مجموع هذا الخلط قضايا جريئة لا نستطيع أن نقبلها اليوم .

ولعل مما ييسر بحثنا فى بدئه أن نقول : إن للفلسفة إطلاقين : أحدهما إطلاقها بمعناها الأعم ، وهو يشمل الرأى أو الفكرة ؛ فلكل إنسان بهذا المعنى فلسفة فى الحياة ، لأن لكل إنسان رأيا فى الحياة ؛ وثانيهما إطلاقها بمعناها الأخص ، وهى إذن تتناول البحث فى حقائق الأشياء ، وتتفرع إلى البحث فى الإلاهيات ، والبحث فى الطبيعيات ، والبحث فى السلوك الإنسانى أو الأخلاق ، وما يتفرع من هذا مما يسمى بالفلسفة الاجتماعية .

منشأ الفلسفة :

ولقد نشأت الفلسفة مع الإنسان ، أو بُعَيْدَ استقراره فى مواطنه ، فقد كان لكل جماعة من الناس رأى فى آلهتهم ، ورأى فى بيئتهم وفى دنياهم التى كانوا يعيشون فيها ، ورأى فى سلوكهم وحكومتهم ... الخ .

وهذا هو الإطلاق العام للفلسفة ، أما الإطلاق الخاص فيقصرها على البحوث الدقيقة التى نشأت بعد ذلك ؛ لأن الفلسفة ترف عقلى ، لا يميل إليه الإنسان إلا بعد أن يفرغ من ضرورات الحياة وتكاليفها المادية .

بين حكم الشعراء وفلسفة الفلاسفة :

غير أن البحث الفلسفى لم يظهر فى العالم فجأة ، ولم يولد يافعا ، فقد وجدت نواته فى أقوال الحكماء ، وشعر الشعراء ، وقصص القصاصين ؛ ثم اجتاز هذه المرحلة على جسر من أنصاف الفلاسفة ، حتى وصل إلى أيدى أساتذة الفكر ، وسادة العقل البشرى ، فنظموه لنا فلسفة مستوية ذات مذاهب ومدارس .

ما يسمى فلسفة المتنبى :

وكثير مما يسمى فلسفة المتنبى من هذا الضرب ، أى أنه ليس مذاهب قائمة على البحث والاستنباط ، ولكنه حكم وقضايا تفيض بها تجاربه ، وتوحيها أحيانا

ثقافته ، فينطق بها فى مناسبة ، وأحيانا بغير مناسبة ، فيكتب لها الخلودَ أنها اكتست ثوبا شعريا جميلا ، وصادفت هوى فى أفئدة الناس .

أمثال المتنبى :

وثمة أمر آخر لا بد من التنبيه عليه ، وهو أن كثيرا ممن تكلموا فى حكمة المتنبى وجمعوها ، قد خلطوا بين فلسفة المتنبى وأمثاله الذائعة . ولسنا ننكر أن الأمثال هى طفولة الفلسفة ، كما قدمنا ، ولكننى لا أعنى هنا هذا الطراز من الأمثال ، التى ينطق فيها أبو الطيب بآرائه فى الحياة وما فيها ـ فهذا فى الحقيقة هو كل ما لأبى الطيب من فلسفة ، كما سنبينه فى الفصول التالية ؛ وإنما أقصد الأمثال التى اشتهرت عن المتنبى ، والتى كان لها أثر فى شهرة المتنبى ، ولكنها على ذلك ليست إلا شعرا جميلا رائعا ، يستمد جماله من روعة الفن ، ورشاقة التشبيه ، وحسن التعليل، وسمو الخيال، لا من دقة البحث ، والنظر فى حقيقة الأمور . وبعبارة أخرى : مثل هذه الأبيات تستوحى جمالها من ظواهر الأشياء ، لا من حقائقها .

أية فلسفة فى قول المتنبى :

وَهَبْنِى قُلْتُ : هَذَا الصُّبْحُ لَيْلٌ . أَيَعْمَى الْعَالَمُونَ عَنِ الضِّيَاءِ ؟

أو فى قوله :

وَإِنَّ الْمَاءَ يَجْرِى مِنْ جَمَادٍ وَإِنَّ النَّارَ تَخْرُجُ مِنْ زِنَادِ .

وليس إلا التشبيهَ الجميل ، واللفظ الجزل ، ما يمنح الخلودَ قول أبى الطيب :

كَرِيشَةٍ فِى مَهَبِّ الرِّيحِ سَاقِطَةٍ لاَ تَسْتَقِرُّ عَلَى حَالٍ مِنَ الْقَلَقِ .

أو قوله :

فَإِنْ تَفُقِ الْأَنَامَ وَأَنْتَ مِنْهُمْ فَإِنَّ الْمِسْكَ بَعْضُ دَمِ الْغَزَالِ

وهذه المبالغة الشعرية ، وتخيل الممدوح كالشمس ، أو فوق محل الشمس منزلة ، هى التى ضمنت البقاء لقوله :

وَفي تَعَبٍ مَنْ يَحْسُدُ الشَّمْسَ نُورَها … وَيَجْهَدُ أَنْ يَأْتِي لَهَا بِضَرِيبِ

ولقوله :

مَنْ كَانَ فَوْقَ مَحَلِّ الشَّمْسِ مَوْضِعُهُ … فَلَيْسَ يَرْفَعُهُ شَيْءٌ وَلَا يَضَعُ

ولقوله :

لَمْ تَلْقَ هَذَا الْوَجْهَ شَمْسُ نَهَارِنَا … إِلَّا بِوَجْهٍ لَيْسَ فِيهِ حَيَاءُ

وهذا البيت السعيد :

الْخَيْلُ وَاللَّيْلُ وَالْبَيْدَاءُ تَعْرِفُنِي … وَالسَّيْفُ وَالرُّمْحُ وَالْقِرْطَاسُ وَالْقَلَمُ

ما كتب له هذه الشهرة التى تحسده عليها بعض الآراء الفلسفية ، إلا هذا الفخر الطموح ، فى ذلك اللفظ العذب ، والجرس الحسن . ومثله قوله فى بديهية من البديهيات :

وَلَيْسَ يَصِحُّ فِي الْأَذْهَانِ شَيْءٌ … إِذَا احْتَاجَ النَّهَارُ إِلَى دَلِيلِ

وصادف هذا البيت هوى فى أفئدة الناس ، وإن كان معناه عاديا يجرى على ألسنة العامة ، فصادفه الحظ السعيد :

وَمَا أُخُصُّكَ فِي بُرْءٍ بِتَهْنِئَةٍ … إِذَا سَلِمْتَ فَكُلُّ النَّاسِ قَدْ سَلِمُوا

ومثله فى ذلك قوله :

وَفِي النَّفْسِ حَاجَاتٌ ، وَفِيكَ فَطَانَةٌ … سُكُوتِي بَيَانٌ عِنْدَهَا وَخِطَابُ

ومن الملاحظات الدقيقة والاستعارات الطريفة قوله :

إِنَّ فِي الْمَوْجِ لِلْغَرِيقِ لَعُذْراً … وَاضِحًا أَنْ يَفُوتَهُ تَعْدَادُهْ

ويعدون من حكم المتنبى قوله :

يا أفْخَرْ ، فَإِنَّ النَّاسَ فِيكَ ثَلَاثَةٌ : … مُسْتَعْظِمٌ ، أَوْ حَاسِدٌ ، أَوْ جَاهِلُ

وأشهد أن أىّ حُوذىّ يستطيع أن يفخر بان الناس ـ بالقياس إليه ـ لايخرجون

عن مستعظم ،أو حاسد ، أو جاهل ؛ إنما الفخر فى أن يكون جميع الناس مستعظمين ، أو فى أن يكونوا جميعاً حسدة . أو فى أن يكونوا بين مستعظم وحاسد . هذا هو التقسيم الفلسفى ، أما تقسيم المتنبي فتقسيم بديعى ، فيه حلاوة فى اللفظ ، ولكن ليس به دسم فى المعنى .

ولعل أسعد بيت قاله المتنبي - على خلوه من أى تفكير فلسفى - قوله :

وَمَا الدَّهْرُ إِلاَّ مِنْ رُوَاةِ قَصَائِدِي إِذَا قُلْتُ شِعْراً أَصْبَحَ الدَّهْرُ مُنْشِدَا .

الشعر والفلسفة :

هذا بعض ما أقحمه الناس على الفلسفة ، وهو كما ترون شعر جميل ، وأدب رائع . ولكن فى إلحاقه بالفلسفة إرهاقا للفلسفة ، كما أن فلسفة أبى الطيب لا تستوى عليه ، بل تستوى عليه شاعريته ، وعلى غيره من شعره تستوى فلسفته .

ولعل أبا الفتح عثمان بن جِنِّى كان أبصر بشعر المتنبي حين رثاه ، فعدد مظاهر نبوغه فى الشعر وفى غيره ، ولكنه حين قارب هذه النقطة كان أدق فى تعبيره من مئات ممن جاءوا بعده ، فقد سماها أمثالا لا حكمة :

غَاضَ الْقَرِيضُ وَأَذْوَتْ نَضْرَةُ الْأَدَبِ وَصَوَّحَتْ بَعْدَ رِيٍّ دَوْحَةُ الْكُتُبِ .

... ...

مَنْ لِلْهَوَاجِلِ يُحْيِي مَيْتَ أَرْسُمِهَا بِكُلِّ جَائِلَةِ التَّصْدِيرِ وَالْحَقَبِ ؟[1]

أَمْ مَنْ لِبِيضِ الظُّبَى يَوْماً وَهُنَّ دَمٌ أَمْ مَنْ لِسُمْرِ الْقَنَا وَالزَّغْفِ وَالْيَلَبِ ؟

أَمْ لِلْمَحَافِلِ إِذْ تَبْدُو لِتَعْمُرَهَا بِالنَّظْمِ ، وَالنَّثْرِ ، وَالْأَمْثَالِ ، وَالْخُطَبِ ؟

٭٭٭

(١) الهوجل : المفازة البعيدة التى ليست بها أعلام ؛ التصدير : حبل من حزام البعير إلى ماوراء الكركرة (أى رحى زور البعير) ؛ الحقب : الحزام يلى حقو البعير . يقول : إن ناقة أبى الطيب كانت سريعة السير تحرك حزامها فى سيرها .

فلسفة أبى الطيب :

وبعد فلننظر فى شعر أبى الطيب نظرة تخرج لنا منه نظرياته فى الدين ، وآراءه فى الحياة والمجتمع ، وفكرته عن الأخلاق . فهذا فى الحقيقة هو مجموع فلسفته ـ فى حدود ما عبر عنه .

ويمكننا أن نرجع ما عثرنا عليه فى ديوانه من الآراء إلى النواحى الآتية :

١ ـ فلسفته فى الدين وتشتمل على :

(ا) آرائه فى الإله والرسل ، وموقفه من الأوضاع والعَنْعَنَاتِ(١) الدينية .

(ب) آرائه فى الموت .

٢ ـ فلسفته فى الحياة وتشتمل على :

(ا) الطموح ، ومايتبعه من كبرياء وشجاعة ، ومانجم عنه من شكوى الزمان والتبرم بالناس .

(ب) العصامية النَّسبية ، وما يتبعها من العصامية العقلية ، أى رأيه فى قيمة التجارب والسن .

(ح) رأيه فى المال : كسبه وإنفاقه .

(ء) رأيه فى الأخلاقيات ، وأهم ما تناول منها فى شعره : الحلم ، والصداقة ، والطبع والتطبع .

تصوير فلسفة المتنبى :

ويمكننا أن نصور فلسفة أبى الطيب بأنها تبدأ طموحا يقتضى اعتزازا بالنفس وكبرا ، وينادى بالعصامية النسبية ، كما ينادى بالعصامية العقلية ، وتتطرف العصامية ، فتكون فى آرائه الدينية زندقة وإلحادا ، وتشتط فى آرائه فى الدنيا ،

---

(١) رأيت هذه الكلمة فى خطاب أرسله وزير خارجية بلاد العرب إلى وزير الخارجية المصرية (وقد نشر فى الصحف يوم ٩ من ابريل ١٩٣٦) فاعجبت بها بديلا من كلمة التقاليد

عتكون غطرسة وتشاؤما : ويتفس ذلك الطموح أحيانا فى الأخلاقيات ، فيرسم صورا جميلة تتصل بطبيعة النفس الأبية ، وإن لم تتصل كثيرا بحياة أبي الطيب .

مصادر فلسفة أبي الطيب :

ولكننا نريد أن نقرر فى إيجاز ، منذ البداءة ، أن دعوى الذين يرون أن أبا الطيب قد اقتبس حكمه من أرستطاليس دعوى تحتاج إلى مناقشة ؛ فكل ماساقه هؤلاء من الحكم أفكار شبيهة بعض الشبه بحكم المتنبي ، بعبارات مسجوعة غالبا ، مما يدل على أن الصناعة العربية اللفظية قد دخلتها ؛ ولم يصح عندى منها إلا القليل فى حدود ما قرأته من كتب أرستطاليس .

على أن الأفضل أن نقولها كلمة صريحة : هى أن حكم المتنبي ، كشاعريته ، ثمرة لثقافة واسعة ، وتجارب بصيرة ، وقدرة على الابتكار والتوليد . فنحن نرى أثر الثقافة الإسلامية صريحا فى شعره حين يقول مثلا :

وَجُرْمٍ جَرَّهُ سُفَهَاءُ قَوْمٍ   وَحَلَّ بِغَيْرِ جَارِمِهِ الْعَذَابُ

فهو يردد لنا فى صورة شعرية ما نطق به القرآن الكريم فى قوله تعالى : « وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً » (١) ويلم بقوله تعالى : « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالأَذَى » (٢) حين يقول :

إِذَا الْجُودُ لَمْ يُرْزَقْ خَلاَصاً مِنَ الأَذَى

فَلاَ الْحَمْدُ مَكْسُوباً ، وَلا الْمَالُ بَاقِيَا

ويردد الحديث الشريف : « خَيْرُ الْبِرِّ عَاجِلُهُ » ، حين يقول :

---

(١) الأنفال - ٢٥

(٢) البقرة - ٢٦٤

خُذُوا مَا أَتَاكُمْ بِهِ وَاعْذِرُوا   فَإِنَّ الْغَنِيمَةَ فِى الْعَاجِلِ

وقوله عليه الصلاة والسلام : « لا تَحْتَقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئاً ، وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهٍ طَلْقٍ » حين يقول :

وَإِنَّكَ لَلْمَشْكُورُ فِى كُلِّ حَالَةٍ   وَلَوْ لَمْ يَكُنْ إِلاَّ الْبَشَاشَةَ رِفْدُهُ

ويولد معنى جديدا من قوله عليه الصلاة والسلام : « إِنَّ اللهَ يُحِبُّ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلاً أَنْ يُتْقِنَهُ » ، إذ يقول :

وَلَمْ أَرَ فِى عُيُوبِ النَّاسِ شَيْئاً   كَنَقْصِ الْقَادِرِينَ عَلَى التَّمَامِ

ولاشك أنه قد وقع له مثل ذلك مع بعض الأفكار التى كانت قد ترجمت إلى العربية . وكأنى إذ أسمعه يقول :

وَمِنَ الْبَلِيَّةِ عَذْلُ مَنْ لاَ يَرْعَوِى   عَنْ جَهْلِهِ ، وَخِطَابُ مَنْ لاَ يَفْهَمُ

أسمع (سِنِيكا) يقول : «لاتجادل الرؤساء ولا المغفلين» . وإنى لأرى فى أبياته التى يصف فيها الشيخوخة فيقول :

وَلَذِيذُ الْحَيَاةِ أَنْفَسُ فِى النَّفْـــسِ وَأَشْهَى مِنْ أَنْ يُمَلَّ وَأَحْلَى

وَإِذَا الشَّيْخُ قَالَ أُفٍّ فَمَا مَلَّ م حَيَاةً ، وَلَكِنِ الضَّعْفَ مَلاَّ

آلَةُ الْعَيْشِ صِحَّةٌ وَشَبَابٌ   فَإِذَا وَلَّيَا عَنِ الْمَرْءِ وَلَّى

شبها قويا بعبارة وردت فى جمهورية أفلاطون فى محاورة بين سقراط وسيفالس ، إذ يسأل سقراطُ : « . . . وإنى لأرغب فى أن أوجه إليك هذا السؤال ـ أنت يامن بلغت الآن ما يسميه الشعراء « أسكُفَّة العمر » : هل الحياة أشق فى شيخوختها ؟ فلتحدثنا عما لديك من الآراء . . » فيجيبه سيفالس : « . . . إنى سأفضى إليك بتجاربى الخاصة يا سقراط : فاننا ـ نحن الشيوخ ـ نجتمع فى الفينة بعد الفينة ، وقديما قال المثل : « إن الطيور على أشكالها تقع » . وليس لدى رفاقى حين نجتمع إلا ما يبثونه من شكايات : لقد فقدت شهوة

الطعام : لقد صحت لا أسيغ لشراب ؛ لقد هجرتني لذات الشباب وعواطفه : لقد كان ثمة وقت سعيد ولكنه الآن ولى ، فلم تبق الحياة على عهدنا بها . . . »(١)

ونعود فنكرر القول بأن ما سقناه من هذه الأمثلة ، وما سنذكره مما نعد من أشباهها ، وما تجاوزنا عن ذكره لعدم اتصاله بموضوعنا ، ليس دليلا قاطعا على أن المتنبي قد نقل عمن شاركوه في الأفكار ممن سبقوه : فليس عزيزا على مثل أبي الطيب ذكاءً وخبرة أن يقع خاطره على مثل خواطرهم ، ولكن المرجح لدينا أن الأفكار السابقة له ـ إسلامية كانت أو مترجمة ـ قد امتزجت بتجربته الواسعة ، التي أفادها من تنقله في أنحاء العاهلية الإسلامية ، ثم أصاب عليها فكره الوقاد ، فأظهرها لنا في هذه الصورة الجميلة النادرة ، التي نقرؤها اليوم شعراً خالداً .

ولنشرع الآن في دراسة أهم النواحي التي عرض لها المتنبي في شعره مما يصح أن يسمى فلسفة .

* * *

دين المتنبي من شعره :

لندع للمؤرخين أن يدونوا ما يريدونه من الأحكام التاريخية على دين أبي الطيب . فقد قالوا : إنه ما رؤي مصليا ، وقالوا : إنه ادعى النبوة ، ومنهم من تصدى للدفاع عن عقيدته ، ولنكتف نحن باستطلاع دينه من شعره . وإننا نكاد لا نجد بين دفتي الديوان ما يدل على أنه كان للمتنبي عقيدة راسخة في دينه ، أو رأي وقور في الخالق العلي ورسله الكرام . ولدى أقل المناسبات يندفع شاعرنا اندفاع من لا حرمة للدين عنده ، في تشبيه نفسه وممدوحه بالرسل الكرام ، بل بالذات العلية ؛ وهو يلحد مبكرا ، ويصر على إلحاده شابا وكهلا . فهو يقول في صباه مشبها نفسه بالمسيح :

مَا مُقَامِي بِأَرْضِ نَخْلَةَ إِلاَّ كَمُقَامِ الْمَسِيحِ بَيْنَ الْيَهُودِ

(١) ترجمتنا للجمهورية (الطبعة المدرسية) الكتاب الاول فقرة ٣٢٩

ويمدح، وهو صبي كذلك، محمد بن أوس بن معن الأزدي فيقول:

أُرِيدَ مِثْلِ مُحَمَّدٍ فِي عَصْرِنَا ... لَا تَبْلُنَا بِطِلَابِ مَالَا يُلْحَقُ

لَمْ يَخْلُقِ الرَّحْمَنُ مِثْلَ مُحَمَّدٍ ... أَحَداً، وَظَنِّي أَنَّهُ لَا يَخْلُقُ

فهو هنا يتحكم فى إرادة الله بغير ما يليق من مؤمن أولا، وبغير ما يقره عليه التاريخ ثانيا.

وإرضاء ممدوحه مقدم على إرضاء الله. فلقد نفهم أن يفضل المتنبي لقاء حبيبته على طب جالينوس إذ يقول:

لَمَّا وَجَدْتُ دَوَاءَ دَائِي عِنْدَهَا ... هَانَتْ عَلَيَّ صِفَاتُ جَالِينُوسَا

ولقد نقبل أن يفضل محمد بن زُرَيق على الإسكندر إذ يقول:

لَوْ كَانَ ذُو الْقَرْنَيْنِ أَعْمَلَ رَأْيَهُ ... لَمَّا أَتَى الظُّلُمَاتِ، صِرْنَ شُمُوسَا

ولكننا لا نستطيع أن نقبل منه تفضيله هذا الممدوح على نبيين كريمين حين يقول:

أَوْ كَانَ صَادَفَ رَأْسَ عَازَرَ[1] سَيْفُهُ ... فِي يَوْمِ مَعْرَكَةٍ، لَأَعْيَا عِيسَى

أَوْ كَانَ لُجُّ الْبَحْرِ مِثْلَ يَمِينِهِ ... مَا انْشَقَّ حَتَّى جَازَ فِيهِ مُوسَى

ولا نستطيع - من غير شك - أن نغفر له التدلي فى زندقته إلى حد قوله:

أَوْ كَانَ لِلنِّيرَانِ ضَوْءُ جَبِينِهِ ... عُبِدَتْ، فَكَانَ الْعَالَمُونَ مَجُوسَا

... ...

يَا مَنْ نَلُوذُ مِنَ الزَّمَانِ بِظِلِّهِ ... أَبَداً، وَنَطْرُدُ بِاسْمِهِ إِبْلِيسَا

وله فى مدح كل ولى زندقة. فهو يقول لمحمد بن إسحاق التَّنوخي:

كَفَلَ الثَّنَاءُ لَهُ بِرَدِّ حَيَاتِهِ ... لَمَّا انْطَوَى، فَكَأَنَّهُ مَنْشُورُ

(١) عازر: ميت أحياه سيدنا عيسى عليه السلام.

وَكَأَنَّمَا عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ ذِكْرُهُ   وَكَأَنَّ عَازَرَ شَخْصُهُ الْمَقْبُورُ

ويقول له مرة أخرى :

مَلِكٌ تَكَوَّنَ كَيْفَ شاءَ، كَأَنَّمَا   يَجْرِي بِفَصْلِ قَضائِهِ الْمَقْدُورُ

ويكرر هذا المعنى لممدوح آخر إذ يقول :

فَما تَرْزُقُ الْأَقْدارُ مَنْ أَنْتَ حَارِمٌ   وَلَا تَحْرِمُ الْأَقْدارُ مَنْ أَنْتَ رَازِقُ

ويكفر لبدر بن عمار ثلاث مرات فى ثلاث قصائد ، فيقول مرة : إن علمه ـ علم بدر بن عمار ـ لو قُسِّم بين الناس لأغنى الله عن إرسال الرسل إليهم ، وإن لفظه لو كان فيهم لاستغنى به الله عن إنزال الفرقان والتوراة والإنجيل :

لَوْ كَانَ عِلْمُكَ بِالْإِلٰهِ مُقَسَّماً   فِي النَّاسِ مَا بَعَثَ الْإِلٰهُ رَسُولَا

لَوْ كَانَ لَفْظُكَ فِيهِمُ مَا أَنْزَلَ الْـ   ـفُرْقَانَ، وَالتَّوْرَاةَ، وَالْإِنْجِيلَا

ويراه مرة أخرى مخلوقا على غير مثال سبق ، وأن عظمته لو كانت أمانة ما اؤتمن عليها سيدنا جبريل :

يا بَدْرُ، إِنَّكَ ـ وَالْحَدِيثُ شُجُونُ ـ   مَنْ لَمْ يَكُنْ لِمِثالِهِ تَكْوِينُ

لَعَظُمْتَ حَتَّى لَوْ تَكُونُ أَمَانَةً   مَا كَانَ مُؤْتَمَنًا بِهَا جِبْرِينُ

وفى الثالثة ـ وهى ثالثة الأثافى ـ يقول : رضينا أن نسجد له ، ولكنه لم يرض منا ذلك ، فتركنا السجود ، لا خوفا من الله ، ولكن طلبا لرضا ابن عمار :

طَلَبْنَا رِضاهُ، بِتَرْكِ الَّذِي   رَضِينَا لَهُ، فَتَرَكْنَا السُّجُودَا

ولم تكن نزعته هذه وليدة إغراقه فى مدح أوليائه ، بل كانت فيما يظهر عقيدة لديه ، فهو يشبه نفسه بالمسيح حين أنفذ إليه على بن محمد بن سيار بن مكرم التميمي وكيله (وكان يتعرض للشعر ولا يحسنه) : فتلقاه أبو الطيب وأجلسه فى مجلسه، فأنشده هذا المتشاعر شعرا سخيفا . فكتب المتنبي إلى ابن سيار

تيمّنى وكيلك مادحًا لى … وأنشدنى من الشعر الغريب

فآجرك الإله على عليل … بعثت إلى المسيح به طبيب

ولستُ بمنكرٍ منك الهدايا … ولكن زدتنى فيها أديب

وأخص صفات البارى تعالى أيسر ما يرد على لسان أبي الطيب فى وصف ممدوحيه ؛ فهو يقول لسيف الدولة :

تجاوزتَ مقدار الشجاعة والنُّهى … إلى قولِ قومٍ : أنت بالغيبِ عالمُ

بل هو لا يتأثم أن يجعل تبرؤه من الاسلام قسما يقسم به على أمر مستحيل ، وهو أنه ليس لسيف الدولة نظير فيمن وجد وفيمن يوجد من البشر :

إنْ كانَ مثلُكَ كانَ أوْ هوَ كائنٌ … فبرئتُ حينئذٍ منَ الإسلامِ

وهو كما يكفر فى مدح ممدوحيه حين يصفو لهم ، يكفر كذلك فى هجوهم حين يتنكر لهم . وإن تعجب فعجب أنه يتهكم بالمصريين ، ويسمى ملك كافور عليهم عبادة منهم له ، ثم هو فى هذه القصيدة نفسها يكفر من حيث يريد أن يظهر الايمان :

نُوَيْبِيَّةٌ لم تدرِ أنَّ بُنَيَّها النُّـــوَيْبِيَّ دونَ اللهِ يُعْبَدُ فى مِصْرَا

ويستخدمُ البيضَ الكواعبَ كالدُّمى … ورُومَ العِبِدَّى والغطارفةَ الغُرَّا(1)

قضاءٌ منَ اللهِ العلىِّ أرادَهُ … ألا رُبَّمَا كانَتْ إرادتُهُ شَرَّا !

.. ..

وأكْفَرُ يا كافورُ حينَ تلوحُ لى … ففارقتُ مذْ فارقتُكَ الشِّرْكَ والكُفْرَا

وإذا كان أبو الطيب حين يفارق الشرك والكفر يقول :

قَضاءٌ منَ اللهِ العلىِّ أرادَهُ … ألا رُبَّمَا كانَتْ إرادتُهُ شَرَّا

(1) العبدى : جمع عبد ، والغطارفة : جمع غطريف : السيد .

فماذا يقول وهو مشرك كافر؟

هذا يأس أثار شكوكه. ولكن هناك يأساً آخر يرجع به إلى الإيمان عجزاً وضعفاً حين يقول:

أَبِعَيْنِ مُفْتَقِرٍ إِلَيْكَ نَظَرْتَنِي فَأَهَنْتَنِي وَقَذَفْتَنِي مِنْ حَالِقِ؟
لَسْتَ المَلُومَ، أَنا المَلُومُ، لِأَنَّنِي أَنْزَلْتُ آمالِي بِغَيْرِ الْخَالِقِ.

وسأله أبو محمد الحسن بن عبد الله بن طُغْج أن يشرب فامتنع، فقال له: بحق عليك إلا شربت! فقال الزنديق:

حُيِّيتَ مِنْ قَسَمٍ، وَأَفْدِي مُقْسِماً أَمْسَى الْأَنَامُ لَهُ مُجِلاًّ مُعظِما
وَإِذا طَلَبْتُ رِضا الأَمِيرِ بِشُرْبِهَا وَأَخَذْتُهَا، فَلَقَدْ تَرَكْتُ الْأَحْرَما

فإذا كان رضا ممدوحه فى شرب الخمرة لم يشربها فقط، بل أحلها وجعل مخالفة ممدوحه أحرم من مخالفة الله؛ وإذا كان رضا ممدوحه فى ترك السجود، لم يسجد لا لأنه لا يجوز أن يسجد لغير الله، بل لأن ممدوحه لم يقبل منه السجود: فالوازع الدينى عنده ثانوى بالقياس إلى إرضاء سادته طمعاً فى رفدهم. وهل نريد دليلا على ذلك أقوى من تصريحه بأنه إذ يودع أبا العشائر يودع دينه ودنياه:

يا راحِلاً، كُلُّ مَنْ يُوَدِّعُهُ مُوَدِّعٌ دِينَــهُ وَدُنْيَاهُ.

هذه هى نزعة أبى الطيب، لا يرى فوق نفسه، وإن اقتضى الأمر لا يرى فوق ممدوحه، عظيما، حتى ليطغى رأيه هذا على الحرمات المقدسة فى الدين. ولقد أفصح لنا مرة عن هذا الاستهتار، بصورة شاملة لا لبس فيها إذ يقول:

أَيَّ مَحَــلٍّ أَرْتَقِي أَيَّ عَظِيــمٍ أَتَّقِي؟
وَكُلُّ مَا قَدْ خَلَقَ اللّــهُ وَمَا لَمْ يَخْلُقِ
مُحْتَقَرٌ فِي هِمَّتِي كَشَعْرَةٍ فِي مَفْرِقِ

وبعد ، فليس فيما يرويه المؤرخون عن حياة أبى الطيب ما يحملنا على انتحال المعاذير له فى هذه الزندقة . أو تلمس التأويل لشعره فيما هو صريح فى الخروج على عنعنات الدين . فقد روى عنه الثقات أنه ما صلى ، ولا صام ، ولا سُمع يقرأ القرآن . ومن كانت تلك حياته ، وهذا شعره ، لا يجوز أن يقال : إن لفظه قد جاوز قصده ، ولا سيما أنه فى هذا التزندق ملح معيد ، لا عابر سبيل ، يقلّب المعنى على جميع وجوهه فى القصيدة الواحدة ، ويكرره فى غيرها ، ويبتكر غيره ، مما يتورع عنه أقل الناس تأثماً وتحرجاً .

* * *

رأى المتنبي فى الموت :

ولقد يحق لنا أن نترقب من أبى الطيب نزعة تشبه هذه الزندقة وتسايرها فى رأيه فى الموت ، ولكننا لا نجد ذلك إلا فى موضع واحد من شعره ، تشكك فيه فى بقاء الروح بعد الموت أو هلاكها مع الجسم . فهو يقول : إن الناس قد اختلفوا على كل شىء إلا على الموت ، فقد اتفقوا عليه ، ثم اختلفوا فى حقيقته ؛ فقال قوم : إنه هلاك للجسم تخاص به النفس ، وقال آخرون : إنه هلاك للجسم والنفس معاً ؛ ثم هو لا يستطيع أن يخرج من هذا بنتيجة حاسمة ، بل يقيمه الفكر بين العجز والتعب :

تَخَالَفَ النَّاسُ حَتَّى لا اتفاقَ لَهُمْ إلاَّ على شَجَبٍ ، وَالْخُلْفُ فِى الشَّجَبِ [(١)]

فقيلَ : تَخْلُصُ نَفْسُ الْمَرْءِ سَالِمَةً وَقِيلَ : تَشْرَكُ جِسْمَ الْمَرْءِ فِى الْعَطَبِ

وَمَنْ تَفَكَّرَ فِى الدُّنْيَا وَمُهْجَتِهِ أَقَامَهُ الْفِكْرُ بَيْنَ الْعَجْزِ وَالتَّعَبِ

أما فيما عدا ذلك فآراؤه فى الموت إسلامية ، بل قرآنية ، يقرر فيها أن الموت مصير كل حى ، لم ينج منه قيصرُ ولا كسرى ، ولا ذو مال ظن أن ماله يغنى عنه شيئاً ، ولا بطل مغوار ضاق الفضاء بجيشه :

---

(١) الشجب : الهلاك : الموت .

نَبْكِي عَلَى الدُّنْيَا، وَمَا مِنْ مَعْشَرٍ جَمَعَتْهُمُ الدُّنْيَا فَلَمْ يَتَفَرَّقُوا
أَيْنَ الأَكَاسِرَةُ الْجَبَابِرَةُ الأُلَى كَنَزُوا الْكُنُوزَ، فَمَا بَقِينَ وَلاَ بَقُوا؟
مِنْ كُلِّ مَنْ ضَاقَ الْفَضَاءُ بِجَيْشِهِ حَتَّى ثَوَى فَحَوَاهُ لَحْدٌ ضَيِّقُ
خُرْسٌ إِذَا نُودُوا، كَأَنْ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ الْكَلاَمَ لَهُمْ حَلاَلٌ مُطْلَقُ
فَالْمَوْتُ آتٍ، وَالنُّفُوسُ نَفَائِسٌ وَالْمُسْتَعِزُّ بِمَا لَدَيْهِ الأَحْمَقُ

ألسنا نسمع فى هذا صدى قوياً لما نطق به القرآن الكريم فى الموت؟ فهو حين يقول: إنه مامن معشر جمعتهم الدنيا فلم يتفرقوا — لم يزد على الإلمام بقوله تعالى: «أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ، وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ.»(١) أو قوله تعالى: «أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لاَ يَرْجِعُونَ.»(٢)

ويعبر المتنبي عن هذا المعنى فى مواضع أخرى، حين يقول:

وَمَا الْمَوْتُ إِلاَّ سَارِقٌ دَقَّ شَخْصُهُ يَصُولُ بِلاَ كَفٍّ وَيَسْعَى بِلاَ رِجْلِ
يَرُدُّ أَبُو الشِّبْلِ الْخَمِيسَ عَنِ ابْنِهِ وَيُسْلِمُهُ عِنْدَ الْوِلاَدَةِ لِلنَّمْلِ

وحين يقول:

وَقَدْ فَارَقَ النَّاسَ الأَحِبَّةُ قَبْلَنَا وَأَعْيَا دَوَاءُ الْمَوْتِ كُلَّ طَبِيبِ
سُبِقْنَا إِلَى الدُّنْيَا، فَلَوْ عَاشَ أَهْلُهَا مُنِعْنَا بِهَا مِنْ جَيْئَةٍ وَذُهُوبِ
تَمَلَّكَهَا الآتِي تَمَلُّكَ سَالِبٍ وَفَارَقَهَا الْمَاضِي فِرَاقَ سَلِيبِ
وَلاَ فَضْلَ فِيهَا لِلشَّجَاعَةِ وَالنَّدَى وَصَبْرِ الْفَتَى لَوْلاَ لِقَاءُ شَعُوبِ

---

(١) النساء — ٧٨

(٢) يس — ٣١

وحين يسأل عن مصير الأكاسرة الجبارة الذين كنزوا كنوز الأرض، فما بقين ولا بقوا - يردد ما نطق به القرآن الكريم فى غير موضع، من مثل قوله تعالى: «ألَمْ يَرَوْا كَمْ أهلَكْنَا مِنْ قَبلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأرْضِ مَالَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ، وَأرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا، وَجَعَلْنَا الأنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ، فأهلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ، وأنشأنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ.»(١) أو قوله عز شأنه: «وَكَمْ أهلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إلاَّ قَلِيلاً. وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ.»(٢) ويردد هذه الفكرة فى قوله:

أيْنَ الَّذِى الْهَرَمَانِ مِنْ بُنْيَانِهِ ؟ مَا قَوْمُهُ ؟ مَا يَوْمُهُ ؟ مَا الْمَصْرَعُ ؟
تَتَخَلَّفُ الآثَارُ عَنْ أصْحَابِهَا حِينًا، وَيُدْرِكُهَا الْفَنَاءُ فَتَتْبَعُ

وحين يتحدث عن فناء ذوى السلطان، الباطشين بجيوشهم يضيق عنها الفضاء، يردد فى الحقيقة قوله تعالى: «أفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أهلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَاكِنِهِمْ إنَّ فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ لأُولِى النُّهَى.»(٣) وقوله تعالى فى ذكر قارون: «أوَ لَمْ يَعْلَمْ أنَّ اللهَ قَدْ أهلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأكْثَرُ جَمْعًا.»(٤) وقوله سبحانه: «وَكَمْ أهلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِى الْبِلادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ.»(٥)

وحين يصف هؤلاء وأولئك بأن الموت أخرسهم حين نودوا، كأنهم يجهلون أن الكلام مباح لهم - يقتبس فى الحقيقة من التنزيل قوله: «وَكَمْ

(١) الأنعام - ١٠
(٢) القصص - ٥٨
(٣) طه - ١٢٨
(٤) القصص - ٧٨
(٥) ق - ٣٦

أهلكنا قبلهم من قرن هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا »(١)

وحين يقول :

فالموت آت ، والنفوس نفائس والمستغر بما لديه الأحمق

يعترف من معين الآيات الكريمة : « قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين . ولن يتمنوه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين . ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ، ومن الذين أشركوا يود أحدهم لو يعمر ألف سنة »(٢) « قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم »(٣) - « كل نفس ذائقة الموت »(٤)

والموت كما لا يرحم السلطان والجاه ، لا يرحم المال والجمال :

يدفن بعضنا بعضاً وتمشي أواخرنا على هام الأوالي

وكم عين مقبلة النواحي كحيل بالجنادل والرمال

ومغض كان لا يغضي لخطب وبال كان يفكر في الهزال

ولعل أبا الطيب قد جمع لنا كل ما تفرق من رأيه في الموت ، في قصيدته التي يرثي بها عمة عضد الدولة ، في عبارة سهلة جزلة تدل على أنه انطلق فيها على سليقته :

لا بد للإنسان من ضجعة لا تقلب المضجع عن جنبه

ينسى بها ما كان من عجبه وما أذاق الموت من كربه

---

(١) مريم - ٩٨

(٢) البقرة - ٩٤ - ٩٦

(٣) الجمعة - ٨

(٤) آل عمران - ١٨٥ ، الأنبياء - ٣٥ ، والعنكبوت - ٥٧

نَحْنُ بنُو الْمَوْتَى، فَمَا بَالُنَا نَعَافُ مَا لاَ بُدَّ مِنْ شُرْبِهِ؟

نَبْخَلُ أَيْدِينَا بِأَرْوَاحِنَا عَلَى زَمَانٍ هُنَّ مِنْ كَسْبِهِ

فَهٰذِهِ الأَرْوَاحُ مِنْ جَوِّهِ وَهَذِهِ الأَجْسَامُ مِنْ تُرْبِهِ

لَوْ فَكَّرَ العَاشِقُ فِي مُنْتَهَى حُسْنِ الَّذِي يَسْبِيهِ لَمْ يَسْبِهِ

لَمْ يُرَ قَرْنُ الشَّمْسِ فِي شَرْقِهِ فَشَكَّتِ الأَنْفُسُ فِي غَرْبِهِ

يَمُوتُ رَاعِي الضَّأْنِ فِي جَهْلِهِ مِيتَةَ جَالِينُوسَ فِي طِبِّهِ

وَرُبَّمَا زَادَ عَلَى عُمْرِهِ وَزَادَ فِي الأَمْنِ عَلَى سِرْبِهِ

وَغَايَةُ المُفْرِطِ فِي سِلْمِهِ كَغَايَةِ المُفْرِطِ فِي حَرْبِهِ

فَلاَ قَضَى حَاجَتَهُ طَالِبٌ فُؤَادُهُ يَخْفِقُ مِنْ رُعْبِهِ

وليس يفوتني قبل أن أنتهي من موضوع الموت عند المتنبي، أن أقف وقفة قصيرة لدى بيتين من عيون أبياته، يحتقر فيهما الخوف من الموت، ويندد بالأسى قبل فرقة الروح، ويذمه بعد فراقها:

إِلْفُ هَذَا الْهَوَاءِ أَوْقَعَ فِي الأَنْـ ـفُسِ أَنَّ الْحِمَامَ مُرُّ الْمَذَاقِ

وَالأَسَى قَبْلَ فُرْقَةِ الرُّوحِ عَجْزٌ وَالأَسَى لاَ يَكُونُ بَعْدَ الفِرَاقِ

وكأنني أسمع في هذين البيتين عبارة أبيقور عن الموت إذ يقول: «إن الموت يبدو لنا مخيفا، لأننا نتخيل أننا سنقابله. ولكنه في الحقيقة لا لقاء بيننا وبين الموت. فإننا حينما نكون، لا يكون موت. وحينما يكون موت لا يكون لنا وجود.»

⁂

فلسفة المتنبي في الدنيا :

ولننتقل الآن إلى فلسفة المتنبي في المجتمع وما يراه في نفسه . وفي أصدقائه . وفي الذئب التي تجمعهم ، وهي أمور مترابطة صدر فيها أبو الطيب عن رأى واحد كما سنرى .

رأيه في العصامية :

جدير بأن السقاء إذا طلب المجد ، في ملك أو ولاية أو شعر ، أن يكون اعتزازه بنفسه وعلو همته . لا بأصله وعترته . لذلك نرى أبا الطيب سباقا إلى الدعوة إلى العصامية ؛ نرى ذلك في شعره في جميع مراحله : أوحاه إليه عقله الباطن في صباه . وجاشت به نفسه في شبابه ، ونطقت به حكمته في كهولته .

عقله الباطن يملي عليه عصاميته :

سأله أحد التنوخيين أن يقول له أبياتا يفتخر بها ، فقال وكان صبيا :

قُضَاعَةُ تَعْلَمُ أَنِّى الْفَتَى الَّـــذِى ادَّخَرَتْ لِصُرُوفِ الزَّمَانِ

وَمَجْـدِى يَدُلُّ بَنِى خِنْـدِفٍ عَلَى أَنَّ كُلَّ كَرِيمٍ يَمَانِ

أَنَا ابْنُ اللِّقَاءِ ، أَنَا ابْنُ السَّخَاءِ ، أَنَا ابْنُ الضِّرَابِ ، أَنَا ابْنُ الطِّعَانِ

أَنَا ابْنُ الْفَيَافِى ، أَنَا ابْنُ الْقَوَافِى ، أَنَا ابْنُ السُّرُوجِ ، أَنَا ابْنُ الرِّعَانِ(١)

طَوِيلُ النِّجَادِ ، طَوِيلُ الْعِمَادِ طَوِيلُ الْقَنَاةِ ، طَوِيلُ السِّنَانِ

حَدِيدُ اللِّحَاظِ ، حَدِيدُ الْحِفَاظِ ، حَدِيدُ الْحُسَامِ ، حَدِيدُ الْجَنَانِ

يُسَابِقُ سَيْفِى مَنَايَا الْعِبَادِ إِلَيْهِمْ ، كَأَنَّهُمَا فِى رِهَانِ

(١) الرعان : جمع رعن (كبدر) وهو أنف الجبل .

يَرَى حَدَّهُ غامِضَاتِ القُلُوبِ إذا كُنْتُ فى هَبْوَةٍ لا أرانِى[1]

سأجْعَلُهُ حَكَمًا فى النُّفُوسِ ولَوْ نابَ عَنْهُ لِسانِى كَفانِى

فهذا العلاء يعلن منذ ميْعة صباه رأيه فى العصامية ، فهو لا يفتخر بالآباء والأجداد ، ولكنه يفتخر بالمكرمات .

ونريد أن نقف هنا وقفة قصيرة . فهذه القطعة قالها المتنبي على لسان غيره ، فهى مما أسميه « الشعر المستعار » . ولكن الشعراء كثيرا ما يتنفسون فى « شعرهم المعار » بعض رغباتهم المحتبسة . فيطلعون بآرائهم هم ، فى شعر ينطقون به على ألسنة غيرهم . [2] ودليلنا على أن المتنبي يعبر فى هذه القصيدة عن رأيه فى العصامية ، وأنه يصف نفسه لا ذلك التنوخى ، أولاً أنه سلك هذا المسلك فى جميع شعره الذى لا شك فى أنه كان ينطق فيه بوحى عقيدته ، مما سنراه فيما بعد . وثانيا أن شعوره بافتقار أصله إلى النسب العالى كان يؤلم طموحه ويجرح كبرياءه منذ صغره ، ولذلك لم يرد على لسانه وهو يفتخر لغيره (وهو فى هذا غير مقيد بعوامل الصدق فى الوصف ، فالقصيدة كلها موضوعة على لسان غيره) ما يرد عادة على ألسنة الصبيان من الفخر بالآباء والأجداد ، لدى كل مناسبة . وثالثا أن لدينا دليلا ماديا فى متن القصيدة يؤيد أن أبا الطيب كان يتكلم فى الحقيقة عن نفسه لا عن ذلك التنوخى ؛ فهو يتمجد ، فيما يتمجد به ، بأنه شاعر فصيح اللسان :

« أنا ابْنُ الفَيَافِى ، أنا ابْنُ القَوَافِى »

« سَأجْعَلُهُ حَكَمًا فى النُّفُوسِ وَلَوْ نَابَ عَنْهُ لِسَانِى كَفَانِى »

ولا يمكن أن يكون أبو الطيب قد بلغ به الخبل مبلغا يجعله يصف هذا التنوخى

---

(١) الهبوة : الغبار ؛ يقول : إن حد سيفى يهتدى إلى قلوب الأعداء حين يظلم الغبار فى الحرب ، فى الوقت الذى لا أرى فيه نفسى من مثار النقع .

(٢) راجع رأينا فى « الشعر المستعار » فى العدد الأول من السنة الأولى من « صحيفة دار العلوم » ص ١٢٥ - ١٢٧

العي بهذه الشاعرية العالية . مع أنه جاء يستجدى الشعر من غلام ناشىء . يلقيه فى فيه ليتمدح به .

ونقطة أخرى نريد أن نوضحها قبل أن نودع هذه القصيدة . وهى أن أبا الطيب الصبى لم يستطع أن يتحرر تمام التحرر من عقل الطفولة وطبيعتها فى الانتساب إلى الآباء والفخر بهم ، فقال : أنا ابن . . . . . ولكن عقله الباطن غلبه على طفولته فزوده بالآباء الذين يفتخر بهم فقال :

أنا ابْنُ اللِّقَاءِ ، أنَا ابْنُ السَّخَاءِ ، أنا ابْنُ الضِّرابِ ، أنا ابْنُ الطِّعَانِ
أَنا ابْنُ الفَيَافِى ، أنا ابْنُ القَوَافِى ، أَنا ابْنُ السُّرُوجِ ، أَنا ابْنُ الرِّعَانِ

وانتسب مرة أخرى ، وهو صبى ، إلى مثل هؤلاء الآباء فقال :

رِدِى حِيَاضَ الرَّدَى يا نفسُ وَاتْرُكِى حِيَاضَ خَوْفِ الرَّدَى للشَّاءِ وَالنَّعَمِ
إِنْ لَمْ أَذَرْكِ عَلَى الأَرْمَاحِ سَائِلَةً فَلَا دُعِيتُ ابْنَ أُمِّ المَجْدِ وَالكَرَمِ

وعُيِّر فى نسبه ، وهو صغير ، فقال منتسباً فخوراً :

أَنا عَيْنُ المُسَوَّدِ الجَحْجَاحِ هَيَّجَتْنِي كِلابُكُمْ بِالنُّبَاحِ (١)
أَيَكُونُ الهِجَانُ غَيْرَ هِجَانٍ أَمْ يَكُونُ الصُّرَاحُ غَيْرَ صُرَاحِ ؟
جَهِلُونِى ، وَإِنْ عَمَرْتُ قَلِيلاً نَسَبَتْنِى لَهُمْ رُءُوسُ الرِّمَاحِ

وتلفت مرة ، وهو صبى ، يبحث عن الإخوة والعترة الذين يفاخر بهم فقال :

أَنا تِرْبُ النَّدَى ، وَرَبُّ القَوَافِى ، وَسِمَامُ العِدَى ، وَغَيْظُ الحَسُودِ

وظل هؤلاء الأقاربُ أقاربَه لا ينتسب لغيرهم ، ولا يفخر بسواهم ، فى شبابه وكهولته ؛ بل هو يتمنى أن يُعَمَّر حتى يصدق انتسابه إليهم . يقول مخاطباً المغيث ابن على بن بشر العجلى :

---

(١) الجحجاح : السيد الكريم .

فَسِرْتُ نَحْوَكَ لا أَلْوِي عَلَى أَحَدٍ أَحُثُّ رَاحِلَتَيَّ: الْفَقْرَ وَالأَدَبَا
أَذَاقَنِي زَمَنِي بَلْوَى شَرِقْتُ بِهَا لَوْ ذَاقَهَا لَبَكَى مَا عَاشَ وَانْتَحَبَا
وَإِنْ عَمَرْتُ جَعَلْتُ الْحَرْبَ وَالِدَةً وَالسَّمْهَرِيَّ أَخًا، وَالْمَشْرَفِيَّ أَبَا

ولسنا نقف عند هذا الحد من الاستنتاج لنستدل على أن أبا الطيب كان يحيا فى أسرة من مكارم الفعال . لا فى عشيرة من الأعمام والأخوال ، بل إننا نجد ذلك صريحاً فى شعره وهو شاب ، وهو كهل :

لاَ بِقَوْمِي شَرُفْتُ، بَلْ شَرُفُوا بِي وَبِنَفْسِي فَخَرْتُ لاَ بِجُدُودِي

ولكنه يعقب دائماً على افتخاره بعصاميته . بإطراء جدوده ، ستراً لما كان يشعر به من تطامن الأصل :

وَبِهِمْ فَخْرُ كُلِّ مَنْ نَطَقَ الضَّا دَ، وَعَوْذُ الْجَانِي، وَغَوْثُ الطَّرِيدِ

ولكننا نبحث فيمن يقصد بهؤلاء الجدود . فإذا هو يفخر بانتسابه للعرب ! وهو فخر يشاركه فيه كل عربى مهما يكن وضيع الأصل . وإن هذا ليذكرنا بما كانت تكتبه صحيفة أسبوعية فكهة عن العظماء فتقول : أخونا فلان باشا . . . . أخونا من أبينا آدم ! . . . .

وهو إذا شاء انتساباً آخر انتسب إلى الضوارى . ليتخلص من ذلك إلى أنه بانى مجد نفسه :

لَقَدْ لَعِبَ الْبَيْنُ الْمُشِتُّ بِهَا وَبِي وَزَوَّدَنِي فِي السَّيْرِ مَا زَوَّدَ الضَّبَّا(1)
وَمَنْ تَكُنِ الأُسْدُ الضَّوَارِي جُدُودَهُ يَكُنْ لَيْلُهُ صُبْحًا وَمَطْعَمُهُ غَصْبَا
وَلَسْتُ أُبَالِي بَعْدَ إِدْرَاكِيَ الْعُلاَ أَكَانَ تُرَاثًا مَا تَنَاوَلْتُ أَمْ كَسْبَا
فَرُبَّ غُلاَمٍ عَلَّمَ الْمَجْدَ نَفْسَهُ كَتَعْلِيمِ سَيْفِ الدَّوْلَةِ الطَّعْنَ وَالضَّرْبَا

---

(1) يقال أحير من ضب . لأنه إذا خرج من جحره لا يهتدى اليه عند الرجوع .

وهو فى موضع آخر لايجد إلا لفظا عاماً يستتر وراءه فى إعلان عصاميته.مع زعمه عظاميته ، ويقوى رأيه فى العصامية فيبرأ من أخيه لأبيه وأمه إذا لم يجده على رأيه فى المكارم : ويحتاط لذلك فيعزو فساد رأيه إلى مخالطة اللئام :

وَآنَفُ مِنْ أَخِي لِأَبِي وَأُمِّي ... إِذَا مَالَمْ أَجِدْهُ مِنَ الْكِرَامِ
أَرَى الْأَجْدَادَ تَغْلِبُهَا كَثِيراً ... عَلَى الْأَوْلَادِ أَخْلَاقُ اللِّئَامِ
وَلَسْتُ بِقَانِعٍ مِنْ كُلِّ فَضْلٍ ... بِأَنْ أُعْزَى إِلَى جَدٍّ هُمَامِ

واستمع إليه حين يرثى جدته . فما يكاد يعزو لها شرف الأجداد ، حتى يتوجها بشرف الأحفاد :

وَلَوْ لَمْ تَكُونِي بِنْتَ أَكْرَمِ وَالِدٍ ... لَكَانَ أَبَاكِ الضَّخْمَ ، كَوْنُكِ لِي أُمَّا

ثم يسترسل فى شرف ذلك الحفيد العصامى :

لَئِنْ لَذَّ يَوْمُ الشَّامِتِينَ بِيَوْمِهَا ... لَقَدْ وَلَدَتْ مِنِّي لِآنُفِهِمْ رَغْمَا
تَغَرَّبَ لَا مُسْتَعْظِماً غَيْرَ نَفْسِهِ ... وَلَا قَابِلاً إِلَّا لِخَالِقِهِ حُكْمَا
وَلَا سَالِكاً إِلَّا فُؤَادَ عَجَاجَةٍ [1] ... وَلَا وَاجِداً إِلَّا لِمَكْرُمَةٍ طَعْمَا
يَقُولُونَ لِي: مَا أَنْتَ فِي كُلِّ بَلْدَةٍ ... وَمَا تَبْتَغِي ؟ مَا أَبْتَغِي جَلَّ أَنْ يُسْمَى

... ...

وكأنما شعر بأنه قال عن نفسه أكثر مما يحتمل سامعوه ، أو أنه أعلى من عصاميته بما يفتح لشانئيه ثغرة فى نسبه ، فعقب — كعادته — على وصف عصاميته بنسب ، ولكنه كأنسابه السابقة ، لفظ ضخم غامض لايحمل شهادة ميلاد ، من أمثال « الجدود » و « الضوارى » و « جد همام » ؛ فهو هنا ينتسب إلى « قوم » :

---

(١) العجاجة : الغبار ؛ يريد غبار الحرب .

وَإِنّى لَمِنْ قَوْمٍ كَأَنَّ نُفُوسَهُمْ بِهَا أَنَفٌ أَنْ تَسْكُنَ اللَّحْمَ وَالْعَظْمَا

وانتسب مرة إلى أبيه. ولكنه لم يمهله حتى فضل نفسه عليه. فقال: إنما يفخر باجداده من لا مفخر له بنفسه. ثم شرع يعدد فضائل نفسه فى صلف وكبرياء:

أَنَا ابْنُ مَنْ بَعْضُهُ يَفُوقُ أَبَا الْـــبَاحِثِ، وَالنَّجْلُ بَعْضُ مَنْ نَجَلَهْ

وَإِنَّمَا يَذْكُرُ الْجُدُودَ لَهُمْ مَنْ نَفَرُوهُ وَأَنْفَدُوا حِيَلَهْ[1]

فَخْراً لِعَضْبٍ أَرُوحُ مُشْتَمِلَهْ وَسَمْهَرِيٍّ أَرُوحُ مُعْتَقِلَهْ

وَلْيَفْخَرِ الْفَخْرُ إِذْ غَدَوْتُ بِهِ مُرْتَدِيًا خَيْرَهُ وَمُنْتَعِلَهْ

أَنَا الَّذِى بَيَّنَ الْإِلٰهُ بِهِ الْأَقْــدَارَ، وَالْمَرْءُ حَيْثُمَا جَعَلَهْ

جَوْهَرَةٌ تَفْرَحُ الشِّرَافُ بِهَا وَغُصَّةٌ لَا تُسِيغُهَا السَّفِلَهْ

عصامية العظماء واستغناء عن الآباء:

ولا كذلك حين يتحدث أبو الطيب عن الآباء الذين لاشك فى عظمتهم، بل هو يعددهم، ويصرح بأسمائهم وأسماء قبائلهم: لأنه لا يخشى فى ذلك تكذيباً ولا تفنيداً. يقول حين يمدح شجاع بن محمد الطائى:

إِلَى وَاحِدِ الدُّنْيَا، إِلَى ابْنِ مُحَمَّدٍ شُجَاعَ الَّذِى لِلّٰهِ ثُمَّ لَهُ الْفَضْلُ

إِلَى الثَّمَرِ الْحُلْوِ الَّذِى طَيِّئٌ لَهُ فُرُوعٌ وَقَحْطَانُ بْنُ هُودٍ لَهَا أَصْلُ

وكذلك حين يمدح أبا المنتصر شجاع بن محمد بن أوس بن معن بن الرضا الأزدى:

أَمَّا بَنُو أَوْسِ بْنِ مَعْنِ بْنِ الرِّضَا فَأَعَزُّ مَنْ تُحْدَى إِلَيْهِ الْأَيْنُقُ

---

(١) لهم: للباحثين المفاخرين. نافرته فنفرته: فاخرته فغلبته. أنفدوا حيله: أفرغوا حيله. يقول: إنما يذكر جدوده من غلبوه بالفخر وأنفدوا حيله. فيلجأ إلى آبائه يستتر وراء عظمتهم.

ولا تمنعه المكارم يعزوها إلى هؤلاء الأولياء أن يعدد لهم آباءهم وأقاربهم الأمجاد. يقول لمساور بن محمد الرومى :

يَا ابْنَ الَّذِى مَا ضَمَّ بُرْدُ كَابْنِه شرفاً، ولا كَالْجَدِّ ضَمَّ صَرِيحُ

فهو هنا يمدحه بشرف عرق تفوح عراقه من صريح الجد، وتضوع من برود الآس. وفى موضع آخر يمدحه بالشجاعة الباسلة ثم لا ينسى أن يذكر له أباه وعمه :

جَمَدَتْ نُفُوسُهُمْ، فَلَمَّا جِئْتَهَا أَجْرَيْتَهَا وَسَقَيْتَهَا الْفُولَاذَا

لَمَّا رَأَوْكَ رَأَوْا أَبَاكَ مُحَمَّدًا فِى جَوْشَنٍ، وَأَخَا أَبِيكَ مُعَاذَا[1]

فهو فى هذا، على حد قوله يمدح محمد بن عبد الله بن محمد الخطيب الخصيبى :

أَفْعَالُهُ نَسَبٌ لَوْ لَمْ يَقُلْ مَعَهَا جَدِّى الْخَصِيبُ عَرَفْنَا الْعِرْقَ بِالْغُصُنِ

الْعَارِضُ الْهَتِنُ ابْنُ الْعَارِضِ الْهَتِنِ ابْنِ الْعَارِضِ الْهَتِنِ ابْنِ الْعَارِضِ الْهَتِنِ[2]

ويقول فى مدح بدر بن عمار :

حَدَقُ الْحِسَانِ مِنَ الْغَوَانِى هِجْنَ لِى يَوْمَ الْفِرَاقِ صَبَابَةً وَغَلِيلَا

حَدَقٌ يُذِمُّ مِنَ الْقَوَاتِلِ غَيْرَهَا بَدْرُ بْنُ عَمَّارِ بْنِ اسْمَاعِيلَا[3]

ويقول فيه وفى نسبه :

إِلَى الْبَدْرِ بْنِ عَمَّارَ الَّذِى لَمْ يَكُنْ فِى غُرَّةِ الشَّهْرِ الْهِلَالَا

... ...

---

(١) الجوشن : الدرع

(٢) العارض : السحاب المعترض فى الأفق . الهتن الكثير الماء المتدفق انصبابا . وهذا اللفظ مما عيب على المتنبى لأن القياس الهاتن .

(٣) يذم . يجير . يقول : يجير بدر من كل ما يقتل إلا من حدق الحسان فإنه لا يستطيع الإجارة منها .

سِنَانٌ فى قَنَاةِ بَنِى مَعَدٍّ بَنِى أَسَدٍ إِذَا دَعَوُا النِّزَالاَ

أَعَزُّ مُغَالِبٍ كَفًّا وَسَيْفًا وَمَقْدِرَةً وَمَحْمِيَةً وَآلاَ

وَأَشْرَفُ فَاخِرٍ نَفْسًا وَقَوْمًا وَأَكْرَمُ مُنْتَمٍ عَمًّا وَخَالاَ

وحين يمدح أبا حسين المرّى يقول:

إِنَّمَا مُرَّةُ بْنُ عَوْفِ بْنِ سَعْدٍ جَمَرَاتٌ لاَ تَشْتَهِيهَا النَّعَامُ

ويتحدث عن سيف الدولة فلا يترك مكرمة إلا وصفه بها، ولكنه لا ينسى أحداده الغر الميامين. فى إحدى مدائحه يعدد له من المكرمات ماينطق به ثلاثة وعشرون بيتاً من عيون الشعر. فإذا ختمها ببيت جمع له فيه الدنيا والدين إذ يقول:

فَأَنْتَ حُسَامُ الْمُلْكِ وَاللهُ ضَارِبٌ وَأَنْتَ لِوَاءُ الدِّينِ وَاللهُ عَاقِدُ

لم يجد ذلك كافياً فى إثبات عظمته. فيعقب على ذلك بذكر الآباء والأجداد:

وَأَنْتَ أَبُو الْهَيْجَا بْنُ حَمْدَانَ يَا ابْنَهُ تَشَابَهَ مَوْلُودٌ كَرِيمٌ وَوَالِدُ

و «أبو الهيجا» هى كنية عبد الله بن حمدان والد سيف الدولة. فبعد أن قلّب أبو الطيب أوجه الكلام. وعدّد صفات الكرام، لم يجد وصفا يصف به سيف الدولة أعظم من أن يشبهه بأبى الهيجاء أبيه، فيقول له: «وأنت أبو الهيجا ابن حمدان»، ولكن هذا لا يكفيه فى نسبة الابن إلى أبيه. فيزيد فى هذه النسبة توكيداً ووثاقة فيقول. «يا ابنه». ولكن كل ذلك دون مايقنع به أبو الطيب. فلا بد من الامثال الخالدة يؤيد بها رأيه فى ذلك النسب العريق، فيقول: «تشابه مولود كريم ووالد».

وليس هذا المحتد الكريم وليد الأمس، بل هو قديم مؤثل. فلا يرضى فيه المتنبي بغير السلسلة الطويلة من الجدود:

وَحَمْدَانُ حَمْدُونٌ، وَحَمْدُونُ حَارِثٌ وَحَارِثُ لُقْمَانٌ، وَلُقْمَانُ رَاشِدُ

أُولَئِكَ أَنْيَابُ الْخِلَافَةِ كُلُّهَا وَسَائِرُ أَمْلَاكِ الْبِلَادِ الزَّوَائِدُ (١)

المكرمات تعوضه عن كرم الآباء والأمهات :

ولكنه حين يطرى ممدوحا ليس من سلالة عريقة يلجأ إلى ما يلجأ إليه فى فخره بنفسه من تعداد المكارم ، يظهر ذلك فى مدحه أبا شجاع فاتكا ، مولى الإخشيد ، وزميل كافور فى خدمته ، ومنافسه وعدوه بعد جلوس الأسود على عرش مصر ، ويظهر أقوى ما يظهر فى مدحه كافوراً .

استمع إليه حين يمدح أبا شجاع ، فيتجاوز عن ذكر الآباء والأجداد ، ويكتفى بنسبته إلى المكرمات والفضائل :

إِذَا الْمُلُوكُ تَحلَّتْ كَانَ حِلْيَتَهُ مُهَنَّدٌ وَأَصَمُّ الْكَعْبِ عَسَّالُ (٢)

أَبُو شُجَاعٍ أَبُو الشُّجْعَانِ قَاطِبَةً هَوْلٌ نَمَتْهُ مِنَ الْهَيْجَاءِ أَهْوَالُ

تَمَلَّكَ الْحَمْدَ حَتَّى مَا لِمُفْتَخِرٍ فِى الْحَمْدِ حَاءٌ وَلَا مِيمٌ وَلَا دَالُ

ويمدح كافورا فينسبه ــ كما كان ينسب نفسه ــ إلى المكرمات ؛ وكما تكون الأجداد رفيعة الحسب معدومة النظير ، كذلك تكون المكرمات عذارى لا شبيه لهن :

فَجَاءَتْ بِنَا إِنْسَانَ عَيْنِ زَمَانِهِ وَخَلَّتْ بَيَاضاً خَلْفَهَا وَمَآقِيَا

... ...

تَرَفَّعَ عَنْ عُونِ الْمَكَارِمِ قَدْرُهُ فَمَا يَفْعَلُ الْفَعَلَاتِ إِلَّا عَذَارِيَا

---

(١) الناب : السن خلف الرباعية ، والزوائد : الأسنان التى تنبت خلف الأضراس. يقول : إن أولئك الأجداد كانوا للخلافة بمنزلة أنياب تمنع بهم امتناع السبع بنابه ، وغيرهم من الملوك بمنزلة الزوائد لا حاجة للخلافة بهم .

(٢) الكعب : الناشز بين أنبوبى الرمح ، والعسال : المضطرب .

يُبِيدُ عَدَاوَاتِ الْبُغَاةِ بِلُطْفِهِ فَإِنْ لَمْ تَبِدْ مِنْهُمْ أَبَادَ الْأَعَادِيَا

... ...

أَبَا كُلِّ طِيبٍ لَا أَبَا الْمِسْكِ وَحْدَهُ وَكُلَّ سَحَابٍ لَا أَخُصُّ الْغَوَادِيَا

... ...

وَمَا كُنْتَ مِمَّنْ أَدْرَكَ الْمُلْكَ بِالْمُنَى وَلَكِنْ بِأَيَّامٍ أَشَبْنَ النَّوَاصِيَا

ويعدد له مرة أخرى مفاخره فاذا هى كلها من بناء عصاميته:

إِنَّمَا يَفْخَرُ الْكَرِيمُ أَبُو الْمِسْكِ بِمَا يَبْتَنِي مِنَ الْعَلْيَاءِ

وَبِأَيَّامِهِ الَّتِي انْسَلَخَتْ عَنْهُ وَمَا دَارُهُ سِوَى الْهَيْجَاءِ

وَبِمَا أَثَّرَتْ صَوَارِمُهُ الْبِيضُ لَهُ فِي جَمَاجِمِ الْأَعْدَاءِ

وَبِمِسْكٍ يُكْنَى بِهِ لَيْسَ بِالْمِسْكِ وَلَكِنَّهُ أَرِيجُ الثَّنَاءِ

ويشعر أبو الطيب بالحاجة إلى النسب فى مدح كافور فيستتر منها وراء شاعرية لبقة إذ يقول:

يَا أَيُّهَا الْمَلِكُ الْغَانِي بِتَسْمِيَةٍ فِي الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ عَنْ وَصْفٍ وَتَلْقِيبِ

وتلح الحاجة إلى النسب، فيغلبها التخلص البارع حين يقول:

وَيُغْنِيكَ عَمَّا يَنْسُبُ النَّاسُ أَنَّهُ إِلَيْكَ تَنَاهَى الْمَكْرُمَاتُ وَتُنْسَبُ

وَأَيُّ قَبِيلٍ يَسْتَحِقُّكَ قَدْرُهُ مَعَدُّ بْنُ عَدْنَانٍ فِدَاكَ وَيَعْرُبُ

فإذا لم يكن مفر من أن ينسبه. نسبه أبو الطيب ـ على طريقته فى ابتكار الجدود ـ إلى حام بن نوح، ثم ادعى أن عمه ساما يفتديه بنسله وبنفسه وبماله:

وَمِنْ قَوْلِ سَامٍ ـ لَوْ رَآكَ ـ لِنَسْلِهِ: فِدَى ابْنِ أَخِي نَسْلِي وَنَفْسِي وَمَالِيَا

على أنه حين يهجو كافورا يعود إلى ذكر الآباء فيعيره بضعتهم، ولكنه لا يتخلى عن رأيه فى المكارم، فهو ينتقصه منهما جميعا:

أَمَيْنًا ، وإخْلافا ، وَغدْرًا ، وَخِسَّةً   وَجُبْنًا ، أشَخْصًا لُحْتَ لِي أمْ مَخازِيا ؟

فلا ترجُ الْخيرَ عِنْدامْرِىءٍ   مرَّتْ يدُ النخَّاسِ فى رأسِهِ
وَإنْ عرَاكَ الشَّكُّ فى نفسِهِ   بحالِه فانظُرْ إلى جنْسِهِ
فَقلّما يلؤُمُ فى ثوْبِهِ   إلا الَّذى يلؤُمُ فى غِرْسِهِ(١)
مَنْ وَجدالْمذهبَ عَنْ قَدْرِهِ   لمْ يَجِدِ المَذهَبَ عَنْ قَنْسِهِ(٢)

وكأننا يتحفظ أبو الطيب تحفظا لا بد له منه حين يقول :

فقلما يَلْؤُمُ فى ثوْبِهِ   إلا الَّذى يَلْؤُمُ فى غِرْسِهِ

ويعود إلى تعييره بضعة الأصل فيقول متهكما لاذعا :

مَنْ علَّمَ الأَسْوَدَالْمَخْصِىَّ مَكرُمَةً   أَقوْمُهُ البِيضُ ، أمْ آباؤُهُ الصِّيدُ ؟
أمْ أُذْنُهُ فِى يَدِ النَّخَّاسِ دَامِيَةً   أَمْ قَدْرُهُ وَهْوَ بِالفلْسَيْنِ مَرْدُودُ ؟

وأخيرا يقول:

إذَاماعَدِمْتَ الأَصْلَ وَالعقلَ وَالنَّدَى   فَمَا لِحَيَاةٍ فِى جنابِكَ طِيبُ

وكأنى به يتحفظ هنا مرة أخرى ، فيجعل للعقل والندى ذكرا مسموعا مع الأصل ، مسايرة لمذهبه فى العصامية . ودرءاً لتجريح قد يوجه إليه .

* * *

غلو فى العصامية :

وتسمو عصامية أبى الطيب فلا يرضى أن يعزى إلى جد همام ، بل يعزو نفسه إلى الملوك ؛ وكيف لا يفعل وقد ألف عصامية كافور قد أجلسته على العرش ؟ فهو يستهل إحدى قصائده له مهنئا بقوله :

---

(١) الغرس : جلدة رقيقة تخرج مع المولود ، كناية عن الأصل .

(٢) القنس : الأصل ، يقول : اذا استطاع لئيم الأصل أن يفارق منزلته الوضيعة ، بأن تغير مركزه الاجتماعى لم يمكنه أن يفارق أصله فى الخسة واللؤم .

إنما التهنئات للأكفاء ولمن يدنى من البعداء
وأنا منك لا يهنئ عضو بالمسرات سائر الأعضاء

ثم يختمها بقوله:

وفؤادى من الملوك وإن كا ن لسانى من الشعراء

وبعد فقد ظل المتنبى مقيما على رأيه فى العصامية حتى آخر حياته ، فقد اختتم أرجوزته فى عضد الدولة - ولم يقل بعدها إلا قصيدة واحدة - برأيه فى العصامية صريحا فى أن فخر الفتى بنفسه وأفعاله . ينبغى أن يكون قبل فخره بأعمامه وأخواله . وإلا كان كالقبيح إذا تحلى ، خير منه المعطال الحسناء:

وربّ قبح وحلى ثقال أحسن منها الحسن فى المعطال
فخر الفتى بالنفس والأفعال من قبله بالعم والأخوال

***

صلف العصامية:

وتطغى عصامية المتنبى فتصبح عجبا، وتيها، وصلفا، وأثرة. وقد ظهر كل ذلك فى شعر أبى الطيب ، فهو دائما مشيد بذكر نفسه ، مدل بنباهته ، مكر فى ذلك منذ صباه:

إن أكن معجبا فعجب عجيب لم يجد فوق نفسه من مزيد

وهذا يدلنا على أنه كان لدى أبى الطيب فكرة راسخة تغلغلت فى أعماق نفسه . وتفرعت فى نواحى تفكيره ، وسيطرت على شعوره وشعره . وإن شئت سميت هذه الفكرة عقيدة ، وإن شئت سميتها جنون العظمة (١):

أنا السابق الهادى إلى ما أقوله إذ القول قبل القائلين مقول

(1) Superiority Complex

أنا صَخْرَةُ الوادي إذا مازُوحِمَتْ　　وإذا نَطَقْتُ فإنني الجَوْزَاء

وهل نريد دليلا على ما نقول أدل من أن أبا الطيب لم يستطع أن ينسى نفسه فى المواقف التى ينسى فيها الناس أنفسهم — أو ينبغى على أقل تقدير أن يتناسى فيها الشعراء صلفهم وكبرياءهم وهى مواقف المدح ، لئن إن تحلى فيه المادح عن التواضع فإنه ينبغي له أن يتحلى فيها عن الصلف والتيه .

لقد أراد « شوقى » أن يدل مرة فى موقف مدح فأدل . ولكنه أفصح فى دلاله عن ذوق رفيع وأدب عال : فقد استمد من عظمة ممدوحه عظمة لنفسه ثم نطق بها فى فخر وازدهاء ، يكسوهما الأدب والحياء :

شاعرُ الأمير ، وما　　بالقليلِ ذا اللقبُ

أما أبو الطيب فكثيراً ما كان يشغل ممدوحه بمحره وإعجابه ونفسه . كأنما يـفس عليه كل ما قال وما سيقول فيه . فيأبى إلا أن يقاسمه المجد ، فيؤجل مدح وليه تأجيلا ، ويزيحه جانبا ، حتى يتنفس ما تجيش به نفسه عن نفسه . ففى أثناء مدحه لسيف الدولة يعرض عنه إعراضا ، ويقبل على نفسه إقبالا إذ يقول :

سَيَعْلَمُ الجَمْعُ مِمَّنْ ضَمَّ مَجْلِسُنَا　　بِأَنَّنِى خَيْرُ مَنْ تَسْعَى بِهِ قَدَمُ

أَنَا الَّذِى نَظَرَ الأَعْمَى إِلَى أَدَبِى　　وَأَسْمَعَتْ كَلِمَاتِى مَنْ بِهِ صَمَمُ

أَنَامُ مِلْءَ جُفُونِى عَنْ شَوَارِدِهَا　　وَيَسْهَرُ الخَلْقُ جَرَّاهَا وَيَخْتَصِمُ

وَجَاهِلٍ مَدَّهُ فِى جَهْلِهِ ضَحِكِى　　حَتَّى أَتَتْهُ يَدٌ فَرَّاسَةٌ وَفَمُ

....　　.......................

الخَيْلُ وَاللَّيْلُ وَالبَيْدَاءُ تَعْرِفُنِى　　وَالسَّيْفُ وَالرُّمْحُ وَالقِرْطَاسُ وَالقَلَمُ

ويعيد مثل ذلك مرة ثانية فى قصيدة أخرى حين ينتقل بلباقة نادرة من مدح سيف الدولة إلى الفخر بنفسه :

وَلَكِنْ تَفُوقُ النَّاسَ رَأْيًا وَحِكْمَةً　　كَمَا فُقْتَهُمْ حَالاً وَنَفْسًا وَمَحْتِدَا

يدق على الأفكار ما أنت فاعل … فيترك ما يخفى ويؤخذ ما بدا

أزل حسد الحساد عنى بكبتهم … فأنت الذى صيرتهم لى حسدا

إذا شد زندى حسن رأيك فيهم … ضربت بسيف يقطع الهام مغمدا(1)

وما أنا إلا سمهرى حملته … فزين معروضا وراع مسددا

وما الدهر إلا من رواة قصائدى … إذا قلت شعرا أصبح الدهر منشدا

فسار به من لا يسير مشمرا … وغنى به من لا يغنى مغردا

أجزنى إذا أنشدت شعرا؛ فإنما … بشعرى أتاك المادحون مرددا

ودع كل صوت غير صوتى؛ فإننى … أنا الطائر المحكى، والآخر الصدى

ويستبطىء سيف الدولة مدحه فيعتذر إليه ويمدحه ، ولكنه لا ينسى نفسه ، فيدل بما يقول فيه من الشرد السائرات اللائى لا يختصصن من الأرض داراً ، والقوافى التى تنطلق من لسانه فيثبن الجبال ويخضن البحار :

ولكن حمى الشعر (إلا القليـــل) هم حمى النوم إلا غرارا

وما أنا أسقمت جسمى به … ولا أنا أضرمت فى القلب نارا

فلا تلزمنى ذنوب الزمان … إلى أساء ، وإياى ضارا

وعندى لك الشرد السائرا … ت لا يختصصن من الأرض دارا

قواف إذا سرن عن مقولى … وثبن الجبال وخضن البحارا

---

(1) يفسر اليازجى هذ البيت تفسيرا عليلا إذ يقول : « فيهم صلة رأيك والهام الرءوس . يقول اذا قويت ساعدى بحسن رأيك فيهم ، أى إذا آنست منك انحرافا عنهم كفاهم ذلك خذلانا بين يدى حتى لو ضربتهم بسيفى وهو فى غمده لقطع » والذى أرى أن « فيهم » متعلق لشد زندى ، ويكون المعنى : اذا شد زندى فيهم حسن رأيك أى قى ضربت الخ .

وَلِي فِيكَ مَالَمْ يَقُلْ قَائِلٌ ... وَمَالَمْ يَسِرْ قَمَرٌ حَيْثُ سَارَا

وبعد أن يشبع نهمته من الفخر، أو يتناول منه قسطا مؤقتا، ينتقل إلى ممدوحه فيقول له:

فَلَوْ خُلِقَ النَّاسُ مِنْ دَهْرِهِمْ ... لَكَانُوا الظَّلَامَ وَكُنْتَ النَّهَارَا ... الخ

ويفعل مثل ذلك مع كافور فيدل عليه، ويذكره بفضله، وبما احتمل من جهد فى ارتحاله إليه إذ يقول:

أَلَا لَيْتَ يَوْمَ السَّيْرِ يُخْبِرُ حَرُّهُ ... فَتَسْأَلَهُ، وَاللَّيْلَ يُخْبِرُ بَرْدُهُ

وَلَيْتَكَ تَرْعَانِي، وَحَيْرَانُ مُعْرِضٌ (١) ... فَتَعْلَمَ أَنِّي مِنْ حُسَامِكَ حَدُّهُ

وَأَنِّي إِذَا بَاشَرْتُ أَمْراً أُرِيدُهُ ... تَدَانَتْ أَقَاصِيهِ وَهَانَ أَشَدُّهُ

ويكرره معه فى قصيدة أخرى إذ يقول:

وَفِي الْجِسْمِ نَفْسٌ لَا تَشِيبُ بِشَيْبِهِ ... وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْوَجْهِ مِنْهُ حِرَابُ

لَهَا ظُفُرٌ، إِنْ كَلَّ ظُفْرٌ أُعِدُّهُ ... وَنَابٌ، إِذَا لَمْ يَبْقَ فِي الْفَمِ نَابُ

يُغَيِّرُ مِنِّي الدَّهْرُ مَا شَاءَ غَيْرَهَا ... وَأَبْلُغُ أَقْصَى الْعُمْرِ، وَهْيَ كَعَابُ

وَإِنِّي لَنَجْمٌ تَهْتَدِي صُحْبَتِي بِهِ ... إِذَا حَالَ مِنْ دُونِ النُّجُومِ سَحَابُ

غَنِيٌّ عَنِ الْأَوْطَانِ، لَا يَسْتَخِفُّنِي ... إِلَى بَلَدٍ سَافَرْتُ عَنْهُ إِيَابُ

وَعَنْ ذَمَلَانِ الْعِيسِ إِنْ سَامَحَتْ بِهِ ... وَإِلَّا فَفِي أَكْوَارِهِنَّ عُقَابُ (٢)

وَأَصْدَى، فَلَا أُبْدِي إِلَى الْمَاءِ حَاجَةً ... وَلِلشَّمْسِ فَوْقَ الْيَعْمَلَاتِ لُعَابُ

(١) حيران: اسم ماء على طريق سلمية.

(٢) يقول: وأنا غنى كذلك عن ذملان العيس. فإن سمحت به سرت عليها، وإلا فإنى كالعقاب أقطع الفلوات من غير حاجة إلى ما يحملنى.

وبعد ستة أبيات أخرى من هذا الطراز يتذكر واجبه نحو ممدوحه فيقول:

أعزُّ مكانٍ في الدُّنى سرجُ سابحٍ وخيرُ جليسٍ في الزّمانِ كتابُ
وبحرٌ أبي المسكِ الخضمُّ الذي له على كلِّ بحرٍ زخرةٌ وعُبابُ

وإن نفسه لتغالبه على أمره وحزمه أحيانا. فيقول: إن قبوله العطايا من وليه حمل ثقيل عليه:

برٌّ يخفُّ على يديكَ قبولُهُ ويكونُ محملُهُ عليَّ ثقيلا

بل إنه ليعلن أن قبوله برّ وليه تفضل منه على ذلك الولى، ولكن شاعريته الجبارة تلف هذا الصلف فى براعة من التعبير منقطعة النظير:

قبولُكَ منَّهُ مَنٌّ عليهِ وإنْ لا يبتدىءْ يرَهُ فظيعا

يا ذا الذي يهبُ الكثيرَ، وعندَهُ أنّي عليهِ بأخذِهِ أتصدّقُ

هذه هى عصامية المتنبى بما تضمنت من خصائص ونتائج، كما عبر عنها فى شعره. وهى فى الحقيقة محور فلسفته الاجتماعية. ومن لوازمها ما رآه فى الخبرة والتجارب وتفضيلهما على السن، أو ما أسميه «العصامية العقلية»، وهى ما سأتناوله فى الفصل الآتى.

° ° °

رأيه فى الخبرة والتجارب: أو العصامية العقلية:

وخليق بمن كان فى مثل ذكاء أبى الطيب، وبعد نظره، أن يجعل للرأى قيمة أعلى من السن، كما جعل للمكارم قيمة أعلى من كرم المحتد؛ وإنه فى ذلك ليقارب مذهب اللقانة الذى يقول: إن من الأفكار الصالحة ما يلقنُهُ المرء من غير تعليم. وهو يبدو فى كثير من شعره من مذهب أفلاطون فى الإشراق، أو فيما يسميه أفلاطون «حنينا فلسفيا إلى العلم» (١):

---

(١) راجع فى شرح هذا المذهب مذكراتنا فى تاريخ علم الأخلاق ص ٢٩ طبعة سنة ١٩٣١

وَأَبْصَرُ مِنْ زَرْقَاءِ جَوٍّ ، لِأَنَّنِي مَتَى نَظَرَتْ عَيْنَايَ سَاوَاهُمَا عِلْمِي
كَأَنِّي دَحَوْتُ الْأَرْضَ مِنْ خِبْرَتِي بِهَا كَأَنِّي بَنَى الإِسْكَنْدَرُ السَّدَّ مِنْ عَزْمِي

يرى أبو الطيب ذلك فى نفسه ، ويراه فى ممدوحيه ، فيقول مرة :

وَيَعْرِفُ الأَمْرَ قَبْلَ مَوْقِعِهِ فَمَا لَهُ بَعْدَ فِعْلِهِ نَدَمُ

ويقول أخرى :

مُسْتَنْبِطٌ مِنْ عِلْمِهِ مَا فِي غَدٍ فَكَأَنَّ مَا سَيَكُونُ فِيهِ دُوِّنَا

ويقول مرة ثالثة :

ذَكِيٌّ ، تَظَنِّيهِ طَلِيعَةُ عَيْنِهِ يَرَى قَلْبُهُ فِي يَوْمِهِ مَا تَرَى غَدَا

ويفخر عن حق بأنه بلغ العقل صغيرا ، فان الحداثة لا تمنع الرشد فى الرأى ، كما أنه رأى فيما سبق أن تطامن الأصل لا يمنع عظمة النفس :

لَيْتَ الْحَوَادِثَ بَاعَتْنِي الَّذِي أَخَذَتْ مِنِّي بِحِلْمِي الَّذِي أَعْطَتْ وَتَجْرِبِي
فَمَا الْحَدَاثَةُ مِنْ حِلْمٍ بِمَانِعَةٍ قَدْ يُوجَدُ الْحِلْمُ فِي الشُّبَّانِ وَالشِّيَبِ

يقول ذلك عن نفسه ، ثم يقوله فى ممدوح عصامى مثله هو كافور :

تَرَعْرَعَ الْمَلِكُ الأُسْتَاذُ مُكْتَهِلاً قَبْلَ اكْتِهَالٍ ، أَدِيبًا قَبْلَ تَأْدِيبِ
مُجَرَّبًا فَهِمًا مِنْ قَبْلِ تَجْرِبَةٍ مُهَذَّبًا كَرَمًا مِنْ غَيْرِ تَهْذِيبِ
حَتَّى أَصَابَ مِنَ الدُّنْيَا نِهَايَتَهَا وَهَمُّهُ فِي ابْتِدَاءَاتٍ وَتَشْبِيبِ

ويصف نفسه وهو عند سيف الدولة ، فى سنة ٣٣٨ ، أى حينما كان عمره خمسا وثلاثين سنة فيقول :

فَمَا تَرَجِّي النُّفُوسُ مِنْ زَمَنٍ أَحْمَدُ حَالَيْهِ غَيْرُ مَحْمُودِ؟
إِنَّ نُيُوبَ الزَّمَانِ تَعْرِفُنِي أَنَا الَّذِي طَالَ عَجْمُهَا عُودِي

وَفِيَّ مَاقَارَعَ الْخُطُوبَ ، وَمَا آنسني بِالْمَصَائِبِ السُّودِ

وقال قبل أن يبلغ تلك السن : إن تجربة اللبيب للناس ليست شيئا مذكورا بالقياس إلى تجربته هو : فواحده كمس أكل الطعام ، والأحرى كمن ذاقه :

إذَا ما النَّاسُ جَرَّبَهُمْ لَبِيبٌ فَإِنِّى قَدْ أَكَلْتُهُمُ وَذَاقَا

فَلَمْ أَرَ وُدَّهُمْ إِلاَّ خِدَاعاً وَلَمْ أَرَ دِينَهُمْ إِلاَّ نِفَاقَا

وقال وهو أصغر سنا من ذلك :

عَرَفْتُ اللَّيَالِى قَبْلَ مَا صَنَعَتْ بِنَا فَلَمَّا دَهَتْنِى لَمْ تَزِدْنِى بِهَا عِلْمَا

وهو يرى ممدوحيه أهلا لذلك . فيقول مرة وهو صبي يمدح محمد بن عبيد الله العلوى المشطب :

قَدْ أَجْمَعَتْ هَـذِهِ الْخَلِيقَةُ لِى أَنَّكَ يَابْنَ النَّبِيِّ أَوْحَـدُهَا

وَأَنَّكَ بِالْأَمْسِ كُنْتَ مُحْتَلِماً شَيْخَ مَعَـدٍّ وَأَنْتَ أَمْرَدُهَا

ويزيد هذا المعنى قوة حين يقول : إن ابن سيار شيخ وهو فى الشباب ؛ وليس كل من بلغ المشيب يسمى شيخا :

عَجِيبٌ فِى الزَّمَانِ ؛ وَمَا عَجِيبٌ أَتَى مِنْ آلِ سَيَّارٍ عَجِيبَا

وَشَيْخٌ فِى الشَّبَابِ ، وَلَيْسَ شَيْخاً يُسَمَّى كُلُّ مَنْ بَلَغَ الْمَشِيبَا

بين المتنبى وابن سينا :

وهو فى هذا قريب مما يقوله الشيخ الرئيس ابن سينا : من أن من الناس من يجتاز حياته عرضا بدل أن يجتازها طولا . فهو يقطع من العمر نفس المساحة التى يقطعها أبوه أو جده .

بين المتنبى وروسو :

وشبيه كذلك برأى روسو حين يقول : « ليست الحيـاة أن تتنفس . وإنما

الحياة أن تعمل : إنما الحياة أن نستخدم أعضاءنا وحواسنا وملكاتنا وكل ما منحنا لاشعارنا بالوجود . إن أطول الرجال عمرا ليس الرجل الذى مضى عليه أكثر عدد من السنين ، ولكنه الرجل الذى شعر بالحياة شعورا دقيقا » .

بين المتنبى ووليم بث :

وشبيه كذلك رأى وليم بت عند مارد على ولبول وقد عيره صغر سنه ، إذ قال فى خطبته الشهيرة : « إن هذه الجريمة النكراء ، التى تفضل السيد المحترم فى أدب جم فاتهمنى بها - جريمة أننى ما زلت شابا . لن أحاول إنكارها أو الاعتذار منها ؛ ولكننى سأقنع بالأمل فى أن أكون أحد أولئك الذين تذهب حماقاتهم مع شبابهم ، بدل أن أكون أحد هذه الشرذمة التى يلازمها الجهل على الرغم من التجارب . أما أن يكون الشباب ذنبا يبكت عليه الرجال فأمر أرانى غير مختص بالفصل فيه ، غير أن من المحقق أن الشيخوخة قد تكون محتقرة حقا إذا هى أضاعت الفرص التى تصحبها ، من غير أن تغتنمها فى إصلاح صاحبها . فتسيطر عليه الرذائل فى الوقت الذى تخمد فيه جذوة العواطف . إن ذلك التعس الذى يظل يرتكب الأخطاء بعد أن يرى عواقب ألف خطأ من أخطائه ، والذى لم تزد شيخوخته على أن أضافت إلى حماقته عنادا - لجدير به أن يبوء بمقت الناس أو باحتقارهم ، وليس له أن يطمع فى أن يحميه بياض شعره من الاهانة . »(١)

ولعل هؤلاء قد أفاضوا فى الرأى بما لم يصل إليه أبو الطيب ، ولكن حسبه أنه كان سابقا لهم جميعا حينما لخص الرأى بقوله :

فَمَا الْحَدَاثَةُ مِنْ حِلْمٍ بِمَانِعَةٍ ... قَدْ يُوجَدُ الْحِلْمُ فِى الشُّبَّانِ وَالشِّيَبِ

كهولة الشباب وشباب الكهولة :

وكما أن الكهولة العقلية قد تبكر قبل سنها العادى ، لدى حكماء الشبان ، كذلك

---

(١) تراجع ترجمتنا الكاملة لهذه الخطبة الفريدة وتعليقنا عليها فى ص ١٦٨-١٧١ فى العدد الثانى من السنة الثانية من « صحيفة دار العلوم » .

الشباب - شباب النفس - قد يتأخر مع الكهول الفتيان، فيحتفظون بنشاط أرواحهم وفتائها، مهما تتقدم بهم السنون :

وَفى الْجِسْمِ نَفْسٌ لاَ تَشِيبُ بِشَيْبِهِ ... وَلَوْ أنَّ مَا فِى الْوَجْهِ مِنْهُ حِرَاب

لَهَا ظُفُرٌ، إنْ كَلَّ ظُفْرٌ أُعِدُّهُ ... وَنَابٌ، إذا لَمْ يَبْقَ فِى الْفَمِ نَاب

يُغَيِّرُ مِنِّى الدَّهْرُ مَاشَاءَ غَيْرَهَا ... وَأَبْلُغُ أَقْصَى الْعُمْرِ وَهْىَ كَعَاب(١)

فكأنه قد احتاط لنفسه حين قال :

وَمَا الحَدَاثَةُ مِنْ حِلْمٍ بِمَانِعَةٍ ... قَدْ يُوجَدُ الْحِلْمُ فِى الشُّبَّانِ والشِّيبُ

ولذلك لم يناقض نفسه حين ادعى الفتاء لنفسه فى الكهولة فى الأبيات المتقدمة، وفى البيتين الآتيين :

رَاعَتْكِ رَائِعَةُ الْبَيَاضِ بِمَفْرِقِى ... وَلَوَ انَّهَا الأُولَى لَرَاعَ الاسْحَمُ

لَوْ كَانَ يُمْكِنُنِى - سَفَرْتُ عَنِ الصِّبا ... فَالشَّيْبُ مِنْ قَبْلِ الأَوَانِ تَلَثُّمُ

هل ناقض المتنبى نفسه ؟

ولم نر لأبى الطيب فى جميع ديوانه إلا موضعا واحدا نسب فيه النزق إلى الشباب حيث يقول :

وَالْمَرْءُ يَأْمُلُ، وَالْحَيَاةُ شَهِيَّةٌ ... وَالشَّيْبُ أَوْقَرُ، وَالشَّبِيبَةُ أَنْزَق

ولَقَدْ بَكَيْتُ عَلَى الشَّبَابِ، وَلِمَّتِى ... مُسْوَدَّةٌ، ولِمَاء وَجْهِى رَوْنَق

حَذَرًا عَلَيْهِ قَبْلَ يَوْمِ فِرَاقِهِ ... حتَّى لَكِدْتُ بِمَاءِ جَفْنِى أَشْرَقُ

---

(١) لقد تناول العلامة شارْپَرْ نُولْسُنْ « Sharper Knowlson» فكرة شباب النفس والعقل فى كتيب شائق على الأسلوب القصصى، فأوضح خصائصها وإمكان تنفيذها . واسم هذا الكتيب : « الرجل الذى لن يَعْجُزَ »
« The Man Who Would Not Grow Old »

ولقد يبدو هذا مناقضا لرأيه الذى أسلفناه، ولكن عصفورا واحدا لايخلق الربيع (كما يقول المثل الانكليزى). فلن يهدم هذا الرأى الوحيد نظريته فى التجارب ـ تلك النظرية التى ملأت شعره. على أنه قال هذه الأبيات وهو صبى، ولعله لم يكن قد كون له رأيا إذ ذاك. ذلك إلى أنه ما كاد يقول: إن الشيبة أزرى، حتى بكاها حذرا على فراقها، مما يدل على أنه لم يكن يومئذ صاحب فكرة واضحة، أوعقيدة راسخة فى تقدير الشباب. وأقوى ظنى أنه كان فى هذه الأبيات يردد معنى قديما سبق إليه فى الغض من ثورة الشباب، والاشادة بحكمة الشيوخ. وكأنى أسمع هنا صوت الْمُتَنَبِّيّ (وقد سبقت وفاته وفاة المتنبى بقرن وربع قرن) إذ يقول:

لَمَّا رَأَتْنِى سُلَيْمَى خَافِضًا بَصَرِى عَنْهَا، وَفِى الطَّرْفِ مِنْ أَمْثَالِهَا زَوَرُ

قَالَتْ: عَهِدْتُكَ مَجْنُونًا، فَقُلْتُ لَهَا: إِنَّ الشَّبَابَ جُنُونٌ بُرْؤُهُ الْكِبَرُ

مَنْ عَاشَ أَخْلَقَتِ الأَيَّامُ جِدَّتَهُ وَخَانَهُ الثِّقَتَانِ: السَّمْعُ وَالْبَصَرُ

***

الصداقة فى رأى المتنبى:

ولأبى الطيب فى الصداقة والأصدقاء آراء لا شك أنها ثمرة حياته، ونتيجة فلسفته العامة فى الطموح والكبرياء والتشاؤم. فلقد عاش أبو الطيب وحيدا لانعرف له أصدقاء، حتى ممدوحيه، فكان لايصادقهم إلا على دخل، وإلى أجل. وكان له فى حاشية كل أمير منهم منافسون وحقدة؛ وكان له من طموحه وكبريائه مايزهده فى الاستكثار من الأصدقاء ترفعاً وتعاليا؛ وكان له من تشاؤمه مايحجبه عن مؤاخاة الناس اتهاما لهم وحذراً منهم. فهو لذلك مقلٌّ من الأصدقاء، مُقِل إلى حد العدم، فقد يكتفى بنفسه صديقا لنفسه، محتقراً من عداها أن يكون صديقا له، ضنيناً بها أن تكون صديقاً لغيره:

خَلِيلُكَ أَنْتَ، لا مَنْ قُلْتَ خِلِّى وَإِنْ كَثُرَ التَّجَمُّلُ وَالْكَلامُ

وليس هـذا غريبا على من يرى أن فؤاده من الملوك . وإن كان لسـانه من الشعراء .

تعريف الصديق :

فإذا استكثر من الأصدقاء لم يزد على صديق شبيه بنفسه ، ينبض قلبه بما ينبض به قلبه ، فيتحدان فى الوجدان . ويتآلفان فى الرأى . ويتعاطفان فى البأساء :

مَا الْخِلُّ إلاَّ مَنْ أَوَدُّ بِقَلْبِهِ   وَأَرَى بِطَرْفٍ لاَ يَرَى بِسَوَائِهِ

إنَّ الْمُعِينَ على الصَّبَابَةِ بِالْأَسَى   أَوْلَى بِرَحْمَةِ رَبِّهَا وَإخَائِهِ

وكأنى أسمـع فى هـذا الرأى تعريف « فيثاغورس » للصـداقة إذ يقول : « الصداقة مساواة مُتَّسقة »(١)

تعريف الوطن :

ويزداد بهذا الرأى تعلقا ، فيعلى شأن الصداقة التى من هذا الطراز ، ويفضلها على القرابة . ويتوسع فى هذا المعنى فيسحبه على الوطن — فكما أنه لم يتقيد فى تعريف الصديق بأواصر القربى ولحمة الدم ، كذلك لم يتقيد فى تعريف الوطن بخطوط الطول والعرض :

وَمَا بَلَدُ الْإِنْسَانِ غَيْرُ الْمُوَافِقِ   وَلاَ أَهْلُهُ الْأَدْنَوْنَ غَيْرُ الْأَصَادِقِ

وكأنما يشعر أبو الطيب إذ قال ذلك بأنه قد أفرط فى القول ، وفسح الطريق لمدعى الصداقة ، فيعود إلى انحجازه وانقباضه ، معقبا بتحذيره الآتى :

وَجَائِزَةٌ دَعْوَى الْمَحَبَّةِ وَالْهَوَى   وَإِنْ كَانَ لاَ يَخْفَى كَلاَمُ الْمُنَافِقِ

ونسمعه فى موضع آخر يحذّر نفسه الاستكثار من الأصدقاء (وفيه تعريض بصداقة سيف الدولة ، وربما كان فيه تعريض بكافور) حين يقول :

---

(١) « Friendship is a harmonic equality ».
انظر : Sidgwick, History of Ethics.

وَللنفسِ أَخْلاَقٌ تَدُلُّ عَلَى الفتَى أَكَانَ سَخاءً مَا أَتَى، أَمْ تَساخِيا؟

أَقِلَّ اشْتِيَاقاً أَيُّهَا القَلْبُ، رُبَّمَا رَأَيْتُكَ تُصْفِي الْوُدَّ مَنْ لَيْسَ صَافِيَا

ويعلن ذلك مرة أخرى حين يقول:

وَمَا الْخَيْلُ إلاَّ كَالصَّدِيقِ، قَلِيلَةٌ وَإِنْ كَثُرَتْ فِي عَيْنِ مَنْ لاَ يُجَرِّبُ

إِذَا لَمْ تُشَاهِدْ غَيْرَ حُسْنِ شِيَاتِهَا وَأَعْضَائِهَا - فَالْحُسْنُ عَنْكَ مُغَيَّبُ

المتنبى لا ينخدع بالود الكاذب:

ولكن أبا الطيب حين يعترف بأن ود الناس خب. وبأن الألسنة الْمَوَالى تقلبها الأفئدة الأعادى، وبأن للعدو دموعا خداعة – يأبى أن يعترف بأنه ينخدع بهذه الظواهر. وخليق بمن كان فى مثل ذكائه، وفى مثل اعتداده بعقله، وتعويله على خبرته وتجاربه، أن يحرص – حين يعبر عن خبث الناس وخداعهم – على أن يفصح عن أنه بذلك الخبث والخداع جد خبير. فهو يقرأ فى نظر العدو سر عداوته وإن أخفاها:

يُخْفِي الْعَدَاوَةَ، وَهْيَ غَيْرُ خَفِيَّةٍ نَظَرُ الْعَدُوِّ بِمَا أَسَرَّ يَبُوحُ.

وهو يفرق بين دموع الأحباب، ودموع التماسيح:

وَفِي الْأَحْبَابِ مُخْتَصٌّ بِوَجْدٍ وَآخَرُ يَدَّعِي مَعَهُ اشْتِرَاكَا

إِذَا اشْتَبَهَتْ دُمُوعٌ فِي خُدُودٍ تَبَيَّنَ مَنْ بَكَى مِمَّنْ تَبَاكَى

كما يفرق بين ابتسامة الود الخالص، وابتسامة النفاق المتلون:

وَلاَ تَشَكَّ إِلَى خَلْقٍ فَتُشْمِتَهُ شَكْوَى الْجَرِيحِ إِلَى الْغِرْبَانِ وَالرَّخَمِ.

وَكُنْ عَلَى حَذَرٍ لِلنَّاسِ تَسْتُرُهُ وَلاَ يَغُرَّنْكَ مِنْهُمْ ثَغْرُ مُبْتَسِمِ

وبين ابتسامة الأسد – إن كان للأسد ابتسامة – وبروز أنيابه:

إِذَا رَأَيْتَ نُيُوبَ اللَّيْثِ بَارِزَةً فَلاَ تَظُنَّنَّ أَنَّ اللَّيْثَ يَبْتَسِمُ.

وليس يلتبس عليه الورم بالشحم ، فالفرق بينهما فى نظره الثاقب كالفرق بين الأنوار والظلم :

أُعِيذُهَا نَظَرَاتٍ مِنْكَ صَادِقَةً أَنْ تَحْسَبَ الشَّحْمَ فِيمَنْ شَحْمُهُ وَرَمُ

وَمَا انتِفَاعُ أَخِى الدُّنْيَا بِنَاظِرِه إِذَا اسْتَوَتْ عِنْدَهُ الْأَنْوَارُ وَالظُّلَمُ؟

ولا يخفى عليه معسول اللفظ يُخفى سموم البغضاء :

فَلَا تَغْرُرْكَ أَلْسِنَةٌ مَوَالٍ تُقَلِّبُهُنَّ أَفْئِدَةٌ أَعَادِى

ولكنه يصانع :

ويزداد ظن المتنبي بالناس سوءا ، ولكن تحفزه الحاجة إلى الاختلاط بهم ، وتلمس رضاهم :

وَمِنْ نَكَدِ الدُّنْيَا عَلَى الْحُرِّ أَنْ يَرَى عَدُوًّا لَهُ مَا مِنْ صَدَاقَتِهِ بُدُّ !

غير أنه يصطنع حسن السياسه ، فينافق أو يكاد :

وَلَمَّا صَارَ وُدُّ النَّاسِ خِبًّا جَزَيْتُ عَلَى ابْتِسَامٍ بِابْتِسَامِ

وَصِرْتُ أَشُكُّ فِيمَنْ أَصْطَفِيهِ لِعِلْمِى أَنَّهُ بَعْضُ الْأَنَامِ

ولا يطمع فى أن ينخدع الناس بمصانعته :

ولكنه ، على ذلك ، حازم متيقظ ، فهو لا يطمع فى أن ينخدع فى مدخول مودته الناس ، كما أنه لم ينخدع بمدخول مودتهم :

وَلَا تَطْمَعَنْ مِنْ حَاسِدٍ فِى مَوَدَّةٍ وَإِنْ كُنْتَ تُبْدِيهَا لَهُ وَتُنِيل

وأشهد إن هذا لمن أبرع ماقال المتنبى ، بل إنه من أبرع ماقال الشعراء . فلقد يأمل المرء أن يخدع الناس ، لكن على أن يؤمن بأنه ينخدع كذلك ؛ أما أن يعتقد أنه لاينخدع وهو مع ذلك قادر على خديعتهم فذلك هو الحمق بعينه .

حرمات هذه الصداقة :

ولئن ضنّ أبو الطيب بصداقته على الناس ، واختص بها القليل القليل من الأوفياء . لقد جعل لتلك الصداقة حرما مقدسا ، وعهداً محفوظا . فى سبيل مرضاة هذه الصداقة يحتمل كل أذى . ويرعى كل ذمة :

إِنْ كَانَ سَرَّكُمُ مَا قَالَ حَاسِدُنَا فَمَا لِجُرْحٍ ـ إِذَا أَرْضَاكُمُ ـ أَلَمُ
وَبَيْنَنَا ـ لَوْ رَعَيْتُمْ ذَاكَ ـ مَعْرِفَةٌ إِنَّ الْمَعَارِفَ فِى أَهْلِ النُّهَى ذِمَمُ

وكأنما أراد أن يعبر مرة أخرى عن مذهب «فيثاغورس» فى أن **الصداقة مساواة منصفة** ، فلم يكتف بأن يكون حفظ العهد من جانبه وحده ، باذلا ولاء لايقابله ولاء ، حدبا على قوم زاهدين فيه ، فقال :

لَئِنْ تَرَكْنَ ضُمَيْرًا عَنْ مَيَامِنِنَا لَيَحْدُثَنَّ لِمَنْ وَدَّعْتُهُمْ نَدَمُ (١)
إِذَا تَرَحَّلْتَ عَنْ قَوْمٍ ـ وَقَدْ قَدَرُوا أَلاَّ تُفَارِقَهُمْ ـ فَالرَّاحِلُونَ هُمُ

الاحتفاظ بالسر تاج الصداقة :

ويرى أبو الطيب أن الاحتفاظ بالسر تاج الصداقة . ولا شك أن الصداقة التى حددها أبو الطيب لاتتحقق إلا بذلك الخلق الكريم . يقول سْتانْلى هُولْ : إن الطفل كالرجل الهمجى ، يخضع فى تقديره الصدقَ والكذبَ لعاملى الحب والبغض : فهما يصدقان مع الأصدقاء ، ويريان الكذب حلا مباحا مع الأعداء . ويستدل على ذلك بأن الصداقة تتوثق عراها بالثقة والأسرار المتبادلة ؛ فإذا أخذت عراها تنفصم ، فإن العهود والمواثيق التى كانت قد تبودلت بين الصديقين بألا يخبر أحدهما عن أسرار الآخر ـ تأخذ فى الانحلال والضعف (٢).

---

(١) ضمير : جبل عن يمين الراحل من الشام إلى مصر . يقول : لئن تركت السياق ضميرا عن ميامننا ـ أى قصدت إلى مصر ـ ليندمن سيف الدولة على فراقى

(٢) يراجع تفصيل ذلك فى كتابنا « فلسفة الكذب » ص ١١٠.

تلك هى الصداقة الطفلة، بين الأطفال، وبين الهمج، أو الذين يعيشون بأخلاقية الطفل. ولا كذلك صداقة المتنبى، فقد ضيق نطاقها، وأحسن اختيار أهلها، حتى إنه ليحتفظ بأسرارها، فما تجد إلى الذيوع سبيلا . يقول مخاطبا سيف الدولة:

رِضَاكَ رِضَايَ الَّذِى أُوثِرُ … وَسِرُّكَ سِرِّى ، فَما أُظْهِرُ
كَفَتْكَ الْمُرُوءَةُ مَا تَتَّقِى … وَآمَنَكَ الوُدُّ مَا تَحْـذَرُ
وَسِرُّكُمُ فِى الْحَشَا مَيِّتٌ … إذَا أُنْشِرَ السِّرُّ لا يُنْشَرُ(١)
كَأَنِّى عَصَتْ مُقْلَتِى فِيكُمُ … وَكَاتَمَتِ الْقَلْبَ ـ مَا تُبْصِرُ
وَإِفْشَاءُ مَا أَنَا مُسْتَوْدَعٌ … مِنَ الْغَدْرِ ، وَالْحُرُّ لا يَغْدِرُ
إِذَا مَا قَدَرْتُ عَلَى نَطْقَةٍ … فَإِنِّى عَلَى تَرْكِهَا أَقْدَرُ

ويزداد بالسر احتفاظا، حتى لكأن حرمة السر عنده تقهر سطوة العقل الباطن — وهو الذى يتحدث فى النوم والشراب وما إليهما:

وَلِلسِّرِّ مِنِّى مَوْضِعٌ لاَ يَنَالُهُ … نَدِيمٌ، وَلاَ يُفْضِى إِلَيْهِ شَرَابُ

تلك هى فلسفة أبى الطيب فى الصداقة قد لخصناها هنا بقدر مايسمح به الفراغ المخصص بها. ولننتقل الآن من رأيه فى مجتمعه الصغير — وهو أسرة الأصدقاء — إلى المجتمع الأكبر — وهو الدنيا التى يعيش فيها، والناس الذين يتحرك بينهم.

رأيه فى المجتمع: أو شكوى الناس والزمان:

ويتفرع على مذهبه فى الصداقة مذهبه فى شكوى الزمان، أو هما — على الأصح — متفرعان على مذهبه فى التشاؤم والتبرم بالدنيا ومن فيها. فهذا الرجل

(١) أنشر: من النشور وهو بعث الأموات يوم القيامة.

العصامى ، الذى يحاول بناء مجده بذكائه النادر ، يعوقه الحظ العاثر . فيألم ويشكو ، ويتبرم ويتململ ، وينحجز عن الأصدقاء . ويثير بكبريائه الحسدة ، ويراهم حوله فى كل مكان ، فيزداد ضيقا بهم ، ومقتاهم .

كثرة حساده :

ومن ثم نراه دائب الشكوى من الحساد ، يراهم وراءه وقدامه ، فى حلّه وترحاله .

كان مرة يجتاز « الفراديس » من أرض « قنسرين » فسمع زئير أسد فقال:

أجارُكَ يا أُسْدَ الفراديسِ مُكْرَمٌ فَتَسْكُنَ نفسِي، أمْ مُهانٌ فَمُسْلَمُ ؟
وَرائِي وَقُدَّامِي عُداةٌ كثيرةٌ أحاذِرُ مِنْ لِصٍّ، وَمِنْكِ، وَمِنْهُمُ .

ومرة يقول : إن تقريب مولاه له هو الذى أثر فى قلوب الحسدة الحقد ، ولكنه يطلب لهم منه الكبت والإذلال :

أزِلْ حَسَدَ الحُسَّادِ عَنِّي بِكَبْتِهِمْ فَأَنْتَ الَّذِي صَيَّرْتَهُمْ لِيَ حُسَّدا

أصدق نظرية فى الحسد :

وأخرى ينظر إليهم نظرة متشفية ، ويعبر عن أصدق نظرية فى الحسد فيقول :

إن المحسود عقوبة للحاسد :

إنِّي - وإنْ لُمْتُ حَاسِدِيَّ - فما أُنْكِرُ أَنِّي عُقُوبَةٌ لَهُمُ
وَكَيْفَ لا يُحْسَدُ امْرُؤٌ عَلَمٌ لَهُ عَلَى كُلِّ هَامَةٍ قَدَمُ ؟[1]

(١) والحق أنى لم أجد فى كل ما قرأت عن الحسد أبدع ولا أدق مما قاله المتنبى هنا ، ومما قاله ابن المقفع فى الأدب الكبير : « ليكن ما تصرف به الأذى والعذاب عن نفسك ألا تكون حسودا ، فإن الحسد خلق لئيم ، ومن لؤمه أنه يوكل بالأدنى فالأدنى ، من الأقارب والأكفاء والخلطاء . فليكن ما تقابل به الحسد أن تعلم أن خير ما تكون حين تكون مع من هو خير منك ؛ وأن غنما لك أن يكون عشيرك وخليطك أفضل

وهى عقوبة لم يقصد أن ينزلها بهم - فهم أهون عليه من أن يفعل ذلك - ولكنهم بمنازلته ينزلونها بأنفسهم :

وَمَا كَمَدُ الْحُسَّادِ شَيْءٌ قَصَدْتُهُ ... وَلَكِنَّهُ مَنْ يَزْحَمِ الْبَحْرَ يَغْرَقِ

بل إنه ليشفق عليهم ويعذرهم فى حفيظتهم عليه ، ولكنه إشفاق الشامت الساخر:

وَلِلْحُسَّادِ عُذْرٌ أَنْ يَشِحُّوا ... عَلَى نَظَرِى إِلَيْهِ ، وَأَنْ يَذُوبُوا

فَإِنِّى قَدْ وَصَلْتُ إِلَى مَكَانٍ ... عَلَيْهِ تَحْسُدُ الْحَدَقَ الْقُلُوبُ

الشعراء ألد خصومه:

وأكثر من يذكر من هؤلاء الحساد ، المتشاعرون الذين ينفسون عليه منزلته، ويحاولون إحداث الجفوة والقطيعة بينه وبين ممدوحيه ، ليخلو لهم الجو :

أَرَى الْمُتَشَاعِرِينَ غَرُوا بِذَمِّى ... وَمَنْ ذَا يَحْمَدُ الدَّاءَ الْعُضَالَا ؟

وَمَنْ يَكُ ذَا فَمٍ مُرٍّ مَرِيضٍ ... يَجِدْ مُرًّا بِهِ الْمَاءَ الزُّلَالَا

وهو لذلك يشدد النكير عليهم ، ويحتقرهم ولا يراهم أهلا لمصاولته :

أَفِى كُلِّ يَوْمٍ تَحْتَ ضِبْنِى شُوَيْعِرٌ[1] ... ضَعِيفٌ يُقَاوِينِى ، قَصِيرٌ يُطَاوِلُ ؟

لِسَانِى بِنُطْقِى صَامِتٌ عَنْهُ عَادِلٌ ... وَقَلْبِى بِصَمْتِى ضَاحِكٌ مِنْهُ هَازِلُ

وهم من رهبته يسجدون إذا طلع عليهم ، وهو من ازدرائهم وهوانهم عليه لا يعتب عليهم ؛ فإذا تحرك فيه حب المصاولة لم يصاول إلا كميا ، ثم هو عندئذ يصرعه :

منك فى العلم ، فتقتبس من علمه ؛ وأفضل منك فى القوة ، فيدفع عنك بقوته ، وأفضل منك فى المال ، فتفيد من ماله ؛ وأفضل منك فى الجاه ، فتصيب حاجتك بجاهه ؛ وأفضل منك فى الدين ، فتزداد صلاحا بصلاحه » .

(١) الضبن : ما بين الإبط والكشح .

أَبْدُو، فيَسْجُدُ مَنْ بالسُّوءِ يذْكُرُنِى فَلاَ أُعَاتِبُهُ ، صَفْحًا وإهْوانَا
وَهكَذَا كُنْتُ فِى أهْلِى وَفِى وَطَنِى إنَّ النَّفِيسَ غَرِيبٌ حيْثُمَا كَانَا
مُحسَّدُ الفضلِ، مَكْذُوبٌ على أثَرِى ألْقَى الْكَمِىَّ وَيَلْقانِى إذا حانا

ويكرر هذا المعنى فى موضع آخر، مؤكدا أن وشاية الواشين أهون عليه من الواشين أنفسهم. وهو لذلك لا يباليهم، ولا يداجيهم .... ولا ينازل منهم إلا دارعا مستعدا، ثم هو مع ذلك يورده حتفه. كما أنه يروع بقوافيه أبلغ الشعراء، فيلقى فى قلوبهم الحيرة:

إنَّ الْكِذَابَ الَّذِى أُكَادُ بِه أهْوَنُ عِنْدِى مِنَ الَّذِى نَقَلَهْ
فَلاَ مُبَالٍ ، وَلاَ مُدَاجٍ ، وَلاَ وانٍ ، وَلاَ عَاجِزٌ ، وَلاَ تُكَلَهْ
وَدَارِعٍ سِفْتُهُ ، فَخَرَّ لَقًى فِى الْمُلْتَقَى وَالْعَجَاجِ وَالْعَجَلَهْ[1]
وَسَامِعٍ رُعْتُهُ بِقَافِيَةٍ يَحَارُ فِيهَا الْمُنَقِّحُ الْقُوَلَهْ

مذهبه فى التشاؤم:

ويمكننا أن نلخص مذهبه فى التشاؤم فى نقط ثلاث يدور بعضها حول بعض، وتلتقى كلها فى فكرة واحدة. فهو يرى أن الدنيا لا تصفو إلا للأغبياء والحمق، وأن الإنسان لئيم حقود، وأن الدنيا من أجل ذلك كله حقيرة ذميمة. وليس احتقاره للدنيا - فيما أعتقد، وفيما يؤيده تاريخه - زهادة ولا تورعا، ولكنه تحرق، ولوعة، واضطغان.

الدنيا لا تصفو إلا للطغام:

فهو يرى أن هذه الدنيا الدنيئة لا تصفو إلا لأشباهها من طغام الناس:

وَشِبْهُ الشَّىْءِ مُنْجَذِبٌ إلَيْهِ وَأَشْبَهُنَا بِدُنْيَانَا الطَّغَامُ

(١) دارع: ذو درع؛ سفته: ضربته بالسيف؛ لقى: مطروحا.

وَلَوْ لَمْ يَعْلُ إلاَّ ذُو مَحَلٍّ تَعَالَى الْجَيْشُ، وَانْحَطَّ الْقَتَامُ

وَلَوْ لَمْ يَرْعَ إلاَّ مُسْتَحِقٌّ لِرُتْبَتِهِ، أَسَامَهُمُ الْمُسَامُ(١)

وكيف يكون لأبى الطيب رأى غير هذا، وهو يرى آماله تتحطم فوق رأسه كل يوم؟ فلم يكن له مفر إذن من أن يستمسك بهذا الرأى. ليعلن بذلك فضله وسموه إذ يعلن مصائبه وكوارثه حين يقول:

كَيْفَ الرَّجَاءُ مِنَ الْخُطُوبِ تَخَلُّصًا مِنْ بَعْدِ مَا أَنْشَبْنَ فِيَّ مَخَالِبَا؟

أَوْجَدْنَنِي وَوَجَدْنَ حُزْنًا وَاحِدًا مُتَنَاهِيًا فَجَعَلْنَهُ لِي صَاحِبَا

وَنَصَبْنَنِي غَرَضَ الرُّمَاةِ تُصِيبُنِي مِحَنٌ أَحَدُّ مِنَ السُّيُوفِ مَضَارِبَا

أَظْمَتْنِيَ الدُّنْيَا، فَلَمَّا جِئْتُهَا مُسْتَسْقِيًا، مَطَرَتْ عَلَيَّ مَصَائِبَا

أو حين يقول:

وَمَا الْجَمْعُ بَيْنَ الْمَاءِ وَالنَّارِ فِي يَدِي بِأَصْعَبَ مِنْ أَنْ أَجْمَعَ الْجَدَّ وَالْفَهْمَا

ويخرج من هذا التخصيص إلى قاعدة عامة، يعتنقها ويعلنها، وهى أن الزمن عدو لأفاضل الناس يأبى إلا معاداتهم:

أَفَاضِلُ النَّاسِ أَغْرَاضٌ لِذَا الزَّمَنِ يَخْلُو مِنَ الْهَمِّ أَخْلاَهُمْ مِنَ الْفِطَنِ

وَإِنَّمَا نَحْنُ فِي جِيلٍ سَوَاسِيَةٍ شَرٍّ عَلَى الْحُرِّ مِنْ سُقْمٍ عَلَى بَدَنِ

وأنه مناخ وخيم لراكبيه، فكل بعيد الهم فيه معذب:

لَحَى اللهُ ذِي الدُّنْيَا مُنَاخًا لِرَاكِبٍ فَكُلُّ بَعِيدِ الْهَمِّ فِيهَا مُعَذَّبُ

وهو مع ذلك يصفو لجاهلهم وغافليهم:

(١) يرعى: يسوس ويحكم؛ أسام الرعية: رعاها وحكمها؛ المسام: المحكوم. يقول لو كانت الامارة بالاستحقاق لوجب أن يكون أولئك الملوك رعية، ورعيتهم ملوكا يسوسونهم، لأنهم أحق منهم بهذه الرتبة.

تَصْفُو الْحَيَاةُ لِجَاهِلٍ أَوْ غَافِلٍ عَمَّا مَضَى فِيهَا وَمَا يُتَوَقَّعُ
وَلِمَنْ يُغَالِطُ فِي الْحَقَائِقِ نَفْسَهُ وَيَسُومُهَا طَلَبَ الْمُحَالِ فَتَطْمَعُ

والناس بطبعهم لئام :

أما ذمه للناس فذم حقود برم ، ولقد رأينا فى نظريته فى الصداقة كيف ينفر من الناس وينفّر منهم ، وهو هنا أبين رأيا . وأشد اصطعانا . فقضائلهم زائفة لا حقيقة لها :

أُذِمُّ إِلَى هَـذَا الزَّمَانِ أُهَيْلَهُ فَأَعْلَمُهُمْ فَدْمٌ ، وَأَحْزَمُهُمْ وَغْدُ [1]
وَأَكْرَمُهُمْ كَلْبٌ ،وَأَبْصَرُهُمْ عَمٍ، وَأَسْهَرُهُمْ فَهْدٌ ، وَأَشْجَعُهُمْ قِرْدُ

إِذَا مَا النَّاسُ جَرَّبَهُمْ لَبِيبٌ فَإِنِّي قَـدْ أَكَلْتُهُمُ وَذَاقَا
فَلَمْ أَرَ وُدَّهُمْ إِلاَّ خِدَاعاً وَلَمْ أَرَ دِينَهُمْ إِلاَّ نِفَاقَا

ومن ثم لا يجد ما يقابل به أهل زمانه إلا الرمح يرويه منهم غير راحم :

وَمَنْ عَرَفَ الْأَيَّامَ مَعْرِفَتِي بِهَا وَبِالنَّاسِ ، رَوَّى رُمْحَهُ غَيْرَ رَاحِمِ

وطبيعى أنه بعد هذه الخبرة وتلك النية لا ينخدع بهم وبمظاهرهم :

غَيْرِي بِأَكْثَرِ هَذَا النَّاسِ يَنْخَدِعُ إِنْ قَاتَلُوا جَبُنُوا ، أَوْحَدَّثُوا شَجُعُوا
أَهْلُ الْحَفِيظَةِ إِلاَّ أَنْ تُجَرِّبَهُمْ وَفِي التَّجَارِبِ بَعْدَ الْغَيِّ مَا يَزَعُ

ونلاحظ أن أبا الطيب كان هنا أكثر احتياطا فى تعبيره ؛ فهو لا يذم الناس جميعا ، ولكنه يذم أكثرهم ؛ ويظهر أن للظروف التى قيلت فيها هذه القصيدة يداً فى هذا التعديل الطفيف . فإن هذا البيت مطلع قصيدة مدح بها سيف الدولة

---

(١) الفدم : العيي القليل الفهم .

على إثر ظفره فى غزوة . فلم يكن من الكياسة وحسن الذوق أن يقول إذ ذاك : إن جميع الناس خداعون : إن قاتلوا جبنوا ، أو حدثوا شجعوا . بل إن المنطق والشعر كليهما يوجبان تعبيرا يمهد للاستثناء الذى سيكون موضع القصيدة ولذلك نرى أبا الطيب إذ يخرج عن مثل هذه القيود يعود إلى طبيعته فى ذم الناس جميعا ، بل إنه ليمعن فى ذلك ، وخاصة حين يكون مخفقا خائب الرجاء . استمع إليه فى قصيدته التى يعلن فيها يأسه من كافور ويصف الحمى التى أصابته بمصر :

وَلَمَّا صَارَ وُدُّ النَّاسِ خِبًّا   جَزَيْتُ عَلَى ابْتِسَامٍ بِابْتِسَامِ
وَصِرْتُ أَشُكُّ فِيمَنْ أَصْطَفِيهِ   لِعِلْمِى أَنَّهُ بَعْضُ الْأَنَامِ

والدنيا حقيرة ذميمة :

ولننتقل الآن إلى النتيجة الحتمية التى يصل إليها المتنبى مما تقدم : وهى أن الدنيا حقيرة ذميمة ، تتربص به الدوائر . وإن هذا المعنى ليتشبث بنفسه ويلح عليها حتى ما يكاد يفارق شعره . فهو حين يمدح أولياءه يمدحهم بذم الدنيا ، ففى آخر بيت من قصيدة يمدح بها على بن أحمد بن عامر الأنطاكى ، يخترع من هذا التشاؤم معنى من أجل المعانى فى المدح فيقول :

أَزَالَتْ بِكَ الْأَيَّامُ عَتْبِى كَأَنَّمَا   بَنُوهَا لَهَا ذَنْبٌ ، وَأَنْتَ لَهَا عُذْرُ

ويذم الدنيا ليمدح سيف الدولة حين يقول :

وَلَوْ جَازَ الْخُلُودُ خَلَدْتَ فَرْدًا   وَلَـكِنْ لَيْسَ لِلدُّنْيَا خَلِيلُ

وحين يصف ، يتخذ من تشاؤمه ورأيه فى الدنيا مادة لوصفه ومعينا لتشبيهاته :

كَأَنَّ الْجَوَّ قَاسَى مَا أُقَاسِى   فَصَارَ سَوَادُهُ فِيهِ شُحُوبَا
كَأَنَّ دُجَاهُ يَجْذِبُهَا سُهَادِى   فَلَيْسَ تَغِيبُ إِلَّا أَنْ يَغِيبَا
أُقَلِّبُ فِيهِ أَجْفَانِى كَأَنِّى   أَعُدُّ بِهِ عَلَى الدَّهْرِ الذُّنُوبَا

وَمَا لَيلٌ بأطْوَلَ مِنْ نَهَارٍ ... يَظَلُّ بلَحْظِ حُسَّادِي مَشُوبَا

وَمَا مَوتٌ بأبْغَضَ مِنْ حَيَاةٍ ... أرَى لَهُمُ مَعِي فِيهَا نَصِيبَا

عَرَفْتُ نَوَائِبَ الحَدَثَانِ حَتَّى ... لَوِ انْتَسَبَتْ لَكُنْتُ لَهَا نَقِيبَا

وحين يتغزل ويشتاق، لا ينسى الدهر وخبثه، ولا يضن عليه بتقريعه:

وإذا كان الدهر يكرثه بحوادثه فإنه يثأر لنفسه منه في شعره:

وَأحْسَبُ لَوْ أنّي هوِيتُ فِرَاقَكُمْ ... لَفَارَقْتُهُ وَالدّهْرُ أخْبَثُ صَاحِبِ[1]

فَيَالَيْتَ مَا بَيْنِي وَبَيْنَ أحِبّتِي ... مِنَ البُعْدِ مَا بَيْنِي وَبَيْنَ المَصَائِبِ

وإذا كان المحبون لا يؤلمهم في الدهر إلا فراق أحبتهم فإن أبا الطيب لا يجد في ذلك الدهر شيئا يحمد:

مَنْ خَصّ بالذّمّ الفِرَاقَ فإنّني ... مَنْ لا يَرَى في الدّهْرِ شَيْئاً يُحْمَدُ

ولقد يبلغ به الغضب حد الإقذاع في هجاء الدنيا:

فَذِي الدّارُ أخْوَنُ مِنْ مُومِسٍ ... وَأخْدَعُ مِنْ كِفّةِ الحَابِلِ[2]

تَفَانَى الرّجَالُ عَلَى حُبّهَا ... وَمَا يَحْصُلُونَ عَلَى طَائِلِ

وهو يعجب من حب الناس لها، وسعيهم وراءها. وهي خائنة غادرة، لا تهب إلا لتسترد، ولا تسر إلا لتضر:

أبَداً تَسْتَرِدُّ مَا تَهَبُ الدّنْيَا، فَيَالَيْتَ جُودَهَا كَانَ بُخْلَا

---

(١) يقول: إن الدهر مولع بمخالفته، فلو أنه هوى فراق أحبته ـ وهو ما أراده الدهر ـ لعكس الدهر هواه واضطره إلى فراق فراقه. (وهي عبارة شبيهة بها عبارة المرحوم سعد زغلول: استقلنا من الاستقالة.)

(٢) الكفة: الشرك؛ الحابل: الصائد.

فكفت كون فرحة تورث الغم م وخل يغادر الوجد خلا[١]

وهى معشوقة على الغدر لا تحفظ عهداً، ولا تتمم وصلا

ويكاد يعذر الناس فى انخداعهم بهذه الدنيا ، لأنها تحتاج فى الكشف عن أمرها إلى خبرة طويلة :

ومن صحب الدنيا طويلاً تقلبت على عينه حتى يرى صدقها كذبا

ويبتسم الدهر لأبى الطيب ، ولكنه لا يبتسم للدنيا . ولقد يخفف من ذمها ، ولكنه لا يمدحها ؛ بل هو يذكر دائما مرارتها حتى حين يذوق حلاوتها . لأنها وإن كانت تحسن الصنيع ، تكدر الإحسان :

دون الحلاوة فى الزمان مرارة لا تختطى إلا على أهواله

صحب الناس قبلنا ذا الزمانا وعناهم من شأنه ما عنانا

وتولوا بغصة كلهم منه ، وإن سر بعضهم أحيانا

ربما تحسن الصنيع لياليه ، ولكن تكدر الإحسانا

ويصارع أبو الطيب الدهر جلدا صبورا ، حتى إن الدهر ليعجب من جلده واصطباره :

غاض الوفاء ، فما تلقاه فى عدة وأعوز الصدق فى الإخبار والقسم

سبحان خالق نفسى : كيف لذتها فيما النفوس تراه غاية الألم !

الدهر يعجب من حملى نوائبه وصبر نفسى على أحداثه الحطم[٢]

---

(١) يقول : لو أن جودها كان بخلا لأغنت عن حصول فرحة تورث بزوالها غما ، وعن وجود خل يفقد فيصير الحزن على فقده خلا لصاحبه الذى فقده .

(٢) الحطم : جمع حطوم أى تحطم من تصيبه .

وَقْتٌ يَضِيعُ ، وَعُمْرٌ لَيْتَ مُدَّتَهُ فِي غَيْرِ أُمَّتِهِ مِنْ سَالِفِ الأُمَمِ

أَتَى الزَّمَانَ بَنُوهُ فِي شَبِيبَتِهِ فَسَرَّهُمْ ، وَأَتَيْنَاهُ عَلَى الْهَرَمِ

ولكنه مع ذلك يعترف بقوة الليالي وسطوتها ـ شأن الجبار في مصارعة الجبار :

رَمَانِي الدَّهْرُ بِالأَرْزَاءِ حَتَّى فُؤَادِي فِي غِشَاءٍ مِنْ نِبَالِ

فَصِرْتُ إِذَا أَصَابَتْنِي سِهَامٌ تَكَسَّرَتِ النِّصَالُ عَلَى النِّصَالِ

فَلاَ تَنَلْكَ اللَّيَالِي ! إِنَّ أَيْدِيَهَا إِذَا ضَرَبْنَ كَسَرْنَ النَّبْعَ بِالْغَرَبِ [١]

وَلاَ يُعِنَّ عَدُوًّا أَنْتَ قَاهِرُهُ ! فَإِنَّهُنَّ يَصِدْنَ الصَّقْرَ بِالْخَرَبِ [٢]

وَإِنْ سَرَرْنَ بِمَحْبُوبٍ فَجَعْنَ بِهِ وَقَدْ أَتَيْنَكَ فِي الْحَالَيْنِ بِالْعَجَبِ

وَرُبَّمَا احْتَسَبَ الإِنْسَانُ غَايَتَهَا وَفَاجَأَتْهُ بِأَمْرٍ غَيْرِ مُحْتَسَبِ

وَمَا قَضَى أَحَدٌ مِنْهَا لُبَانَتَهُ وَلاَ انْتَهَى أَرَبٌ إِلاَّ إِلَى أَرَبِ

ولقد تنوء كوارثه بكاهله . ولكنه يتذرع بالصبر ، ثم يدعى الزهادة في الدنيا وما فيها ، ولكنها ليست زهادة الفيلسوف القانع . بل زهادة اليائس القانط :

بِمَ التَّعَلُّلُ ؟ لاَ أَهْلٌ ، وَلاَ وَطَنُ وَلاَ نَدِيمٌ ، وَلاَ كَأْسٌ ، وَلاَ سَكَنُ

أُرِيدُ مِنْ زَمَنِي ذَا أَنْ يُبَلِّغَنِي مَا لَيْسَ يَبْلُغُهُ مِنْ نَفْسِهِ الزَّمَنُ

لاَ تَلْقَ دَهْرَكَ إِلاَّ غَيْرَ مُكْتَرِثٍ مَادَامَ يَصْحَبُ فِيهِ رُوحَكَ الْبَدَنُ

فَمَا يُدِيمُ سُرُورٌ مَا سُرِرْتَ بِهِ وَلاَ يَرُدُّ عَلَيْكَ الْفَائِتَ الْحَزَنُ

ولقد تنهد عزيمته ، فتخونه ألفاظه ، فيعترف بضعفه أمام الدنيا وهمومها :

---

(١) النبع : شجر صلب ، الغرب : نبت ضعيف.

(٢) الخرب : ذكر الحبارى.

لَمْ يَتْرُكِ الدَّهْرُ مِنْ قَلْبِي وَلاَ كَبِدِي شَيْئاً تُتَيِّمُهُ عَيْنٌ وَلاَ جِيدُ

يَا سَاقِيَيَّ أَخَمْرٌ فِي كُئُوسِكُمَا أَمْ فِي كُئُوسِكُمَا هَمٌّ وَتَسْهِيدُ ؟

ولكن تعاوده عزة النفس ، فيضعف قويا . ويحتمل أبيا . أليس - إذ تتحطم آماله - صخرةً لا تحركها المدام ولا الأغاريد ؟ ليت شعرى أىّ شىء يريد أن يكون أبو الطيب إذ يكون جبارا قويا ؟ :

أَصَخْرَةٌ أَنَا ؛ مَالِي لاَ تُحَرِّكُنِي هٰذِي الْمُدَامُ ، وَلاَ هٰذِي الأَغَارِيدُ ؟

إِذَا أَرَدْتُ كُمَيْتَ اللَّوْنِ صَافِيَةً وَجَدْتُهَا وَحَبِيبُ النَّفْسِ مَفْقُودُ

ثم يقوى شعوره بعظمته . فيرى أن ماتعافه نفسه مما يحسده عليه الناس ، فيعلن عجبه فى شكوى يصونها الإباء . وتضعضع تنهض به الكبرياء ، وعبقرية يخضع لها الشعراء :

مَاذَا لَقِيتُ مِنَ الدُّنيَا ، وَأَعْجَبُهُ أَنِّي بِمَا أَنَا شَاكٍ مِنْهُ مَحْسُودُ ؟

ومن ثم يعلن زهده فى هذه الدنيا التى لا يرضى أن تمر عليه فيها ساعة لاتعزه ، أو تصحبه فيها مهجة تقبل الضيم :

كَذَا أَنَا يَا دُنْيَا ، إِذَا شِئْتِ فَاذْهَبِي وَيَا نَفْسِ زِيدِي فِي كَرَائِهِهَا قُدْمَا

فَلاَ عَبَرَتْ بِي سَاعَةٌ لاَتُعِزُّنِي وَلاَ صَحِبَتْنِي مُهْجَةٌ تَقْبَلُ الظُّلْمَا

٭٭٭

رأى أبى الطيب فى المال :

ولننتقل الآن إلى نقطة أخرى من فلسفته الاجتماعية وهى رأيه فى المال . ولندع ما يقوله المؤرخون فى بخل المتنبي ، ولنقف وقفة قصيرة لدى فلسفته فى المال كما عبر عنها فى شعره .

فهو يعيب على البخلاء جمع المال إذا كانوا يجمعونه خشية الفقر :

وَمَنْ يُنْفِقِ السَّاعَاتِ فِي جَمْعِ مَالِهِ مَخَافَةَ فَقْرٍ ، فَالَّذِي فَعَلَ الْفَقْرُ

ولكنه . على ذلك ، يدعو إلى جمع المال ليكون من مكملات الشرف والمجد :

فَلاَ يَنْحَلِلْ فِى الْمَجْدِ مَالُكَ كُلُّهُ ... فَيَنْحَلَّ مَجْدٌ كَانَ بِالْمَالِ عَقْدُهُ

وَدَبِّرْهُ تَدْبِيرَ الَّذِى الْمَجْدُ كَفُّهُ ... إِذَا حَارَبَ الْأَعْدَاءَ ، وَالْمَالُ زَنْدُهُ

فَلاَ مَجْدَ فِى الدُّنْيَا لِمَنْ قَلَّ مَالُهُ ... وَلاَ مَالَ فِى الدُّنْيَا لِمَنْ قَلَّ مَجْدُهُ

وهو فى هذا الرأى إسلامى الفكرة : « الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا . » (١) « فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً . يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً . وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ ، وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً . » (٢)

وبين الاحتفاظ بالمجد للمال ، وبالمال للمجد ، نراه أميل إلى إنفاق المال فى سبيل المجد :

كَأَنَّ نَفْسَكَ لاَ تَرْضَاكَ صَاحِبَهَا ... إِلاَّ وَأَنْتَ عَلَى الْمِفْضَالِ مِفْضَالُ

وَلاَ تَعُدُّكَ صَوَّاناً لِمُهْجَتِهَا ... إِلاَّ وَأَنْتَ لَهَا فِى الرَّوْعِ بَذَّالُ

لَوْلاَ الْمَشَقَّةُ سَادَ النَّاسُ كُلُّهُمُ ... اَلْجُودُ يُفْقِرُ ، وَالْإِقْدَامُ قَتَّالُ

وهو يزيدنا بيانا أن المال ليس مقصوده الأول ولا غايته الذاتية حين يقول :

لِمَنْ تَطْلُبُ الدُّنْيَا ، إِذَا لَمْ تُرِدْ بِهَا ... سُرُورَ مُحِبٍّ أَوْ إِسَاءَةَ مُجْرِمِ

ومن ثم لم يستبدله بالكرامة والمودة ، فهو يقول لكافور :

إِذَا نِلْتُ مِنْكَ الْوُدَّ فَالْمَالُ هَيِّنٌ ... وَكُلُّ الَّذِى فَوْقَ التُّرَابِ تُرَابُ

وينأى بنفسه أن ينال المال ممنونا عليه ، أو غير مسموح به ، فيقول لكافور كذلك :

---

(١) الكهف ـ ٤٦

(٢) نوح : ١٠ ـ ١٢ ـ ومن الشائق أن نذكرها أن القرآن الكريم ذكر المال والبنين ، مقدما المال على البنين فى نيف وثلاثين موضعا .

وَإِنْ بَذَلَ الإِنْسَانُ لِي جُودَ عَابِسٍ   جَزَيْتُ بِجُودِ التَّارِكِ الْمُتَبَسِّمِ

وَلاَ أُقِيمُ عَلَى مَالٍ أَذِلُّ بِهِ   وَلاَ أَلَذُّ بِمَا عِرْضِي بِهِ دَرِنُ

ويفتخر فى شرخ شبابه فيقول:

كَفَانِي الذَّمَّ أَنَّنِي رَجُلٌ   أَكْرَمُ مَالٍ مَلَكْتُهُ الْكَرَمُ

يَجْنِي الْغِنَى لِلِّئَامِ ـ لَوْ عَقَلُوا ـ   مَا لَيْسَ يَجْنِي عَلَيْهِمُ الْعُدُمُ (١)

هُمُ لِأَمْوَالِهِمْ، وَلَسْنَ لَهُمْ   وَالْعَارُ يَبْقَى، وَالْجُرْحُ يَلْتَئِمُ

ويمنحه أبو شجاع فاتك هدية قيمتها ألف دينار فيقول له:

وَمَا شَكَرْتُ لِأَنَّ الْمَالَ فَرَّحَنِي   سِيَّانِ عِنْدِيَ إِكْثَارٌ وَإِقْلاَلُ

لَكِنْ رَأَيْتُ قَبِيحاً أَنْ يُجَادَ لَنَا   وَأَنَّنَا بِقَضَاءِ الْحَقِّ بُخَّالُ

ولقد لخص لنا المتنبي رأيه فى المال فى بيت واحد:

وَمَا رَغْبَتِي فِي عَسْجَدٍ أَسْتَفِيدُهُ   وَلَكِنَّهَا فِي مَفْخَرٍ أَسْتَجِدُّهُ

* * *

الحلم والعفو:

وهذا نمط من رأيه فى الأخلاقيات، فإن لأبى الطيب نظرية فى الحلم والعفو، نظمها فكره فى عقيدته، ونثرها لسانه فى شعره. وهى ذات سياسة موحدة، لا تناقض فيها ولا اضطراب. ولا أدّعى — ولعل أبا الطيب نفسه لا يدعى — أنه مبتكر هذا الرأى: فقد ردده الإسلام فى غير موضع، ونطق به فلاسفة لا شك أن آراءهم قد نقلت إلى المسلمين قبل عصر المتنبى.

غير أن الجدير بالاعتبار فى هذا الصدد هو أن أبا الطيب لم يعالج هذه الفكرة معالجة شاعر، يتجاوز عنها إن اضطره نفاق لممدوح، أو ينقضها إذا ألح عليه

(١) العدم: الفقر.

حسن تعليل جميل ، بل صدر عنها فى كل شعره بأصولها وفروعها غير ملتاثة .

ويتلخص مذهبه فى العفو فى النقط الآتية :

أن للعفو أحوالا ، وللغضب أو للعقوبة أحوالا كذلك :

لَهُ رَحْمَةٌ تُحْيِي الْعِظَامَ ، وَغَضْبَةٌ بِهَافَضْلَةٌ لِلْجُرْمِ عَنْ صَاحِبِ الْجُرْمِ

وهو يرى أن يستبدل بالعقوبة العتاب ، ولكن مع المخالفين الأحباب :

قَطَعَتْ مَكَارِمُهُمْ صَوَارِمَهُمْ فَإِذَا تَعَذَّرَ كَاذِبٌ قَبِلُوا

لاَ يَشْهَرُونَ عَلَى مُخَالِفِهِمْ سَيْفًا يَقُومُ مَقَامَهُ الْعَذَلُ

ولكنه يرى وجوب الحيطة فى توزيع العفو : فإن العفو فى موضع العقوبة كالعقوبة فى موضع العفو :

وَمَا قَتَلَ الْأَحْرَارَ كَالْعَفْوِ عَنْهُمُو وَمَنْ لَكَ بِالْحُرِّ الَّذِى يَحْفَظُ الْيَدَا ؟

إِذَا أَنْتَ أَكْرَمْتَ الْكَرِيمَ مَلَكْتَهُ وَإِنْ أَنْتَ أَكْرَمْتَ اللَّئِيمَ تَمَرَّدَا

وَوَضْعُ النَّدَى فِى مَوْضِعِ السَّيْفِ بِالْعُلاَ مُضِرٌّ كَوَضْعِ السَّيْفِ فِى مَوْضِعِ النَّدَى

فهو يخشى أن يظن اللئيم أن الصفح كان عجزا وجبانة :

إِنِّى أُصَاحِبُ حِلْمِي وَهْوَ بِى كَرَمٌ وَلاَ أُصَاحِبُ حِلْمِي وَهْوَ بِى جُبُنُ

تَحْلُو مَذَاقَتُهُ حَتَّى إِذَا غَضِبَا حَالَتْ فَلَوْ قَطَرَتْ فِى الْمَاءِ مَاشُرِبَا

مِنَ الْحِلْمِ أَنْ تَسْتَعْمِلَ الْجَهْلَ دُونَهُ إِذَا اتَّسَعَتْ فِى الْحِلْمِ طُرْقُ الْمَظَالِمِ

إِذَا قِيلَ : رِفْقًا ، قَالَ : لِلْحِلْمِ مَوْضِعٌ وَحِلْمُ الْفَتَى فِى غَيْرِ مَوْضِعِهِ جَهْلُ

إِذَا أَتَتِ الْإِسَاءَةُ مِنْ وَضِيعٍ وَلَمْ أَلُمِ الْمُسِيءَ فَمَنْ أَلُومُ ؟

لاَ تَشْتَرِ الْعَبْدَ إِلاَّ وَالْعَصَا مَعَهُ إِنَّ الْعَبِيدَ لَأَنْجَاسٌ مَنَاكِيدُ

أما إذا صادف الحلم أهله فإنه يقوم مقام العقوبة :

وَأَحْلُمُ عَنْ خِلِّي ، وَأَعْلَمُ أَنَّهُ مَتَى أَجْزِهِ حِلماً عَلَى الْجَهْلِ يَنْدَمِ

تَرَفَّقْ أَيُّهَا الْمَوْلَى عَلَيْهِمْ فَإِنَّ الرِّفْقَ بِالْجَانِي عِتَابُ

ويرى أبو الطيب أنْ لا عفو إلا عند المقدرة :

وأنتَ أبَرُّ مَنْ لَوْ عُقَّ أفْنى وَأعْفَى مَنْ عُقُوبَتُهُ الْبَوَارُ

وَأقْدَرُ مَنْ يُهَيِّجُهُ انْتِصَارٌ وأحْلَمُ مَنْ يُحَلِّمُهُ اقْتِدارُ

رَأَيْتُكَ مَحْضَ الحِلْمِ فِي مَحْضِ قُدْرَةٍ ولوْ شِئْتَ كَانَ الحِلْمُ مِنْكَ الْمُهَنَّدَا

غير أن هناك حالة لا يراها أبو الطيب جديرة بحزم العقوبة . ولا بسماحة العفو . تلك هى الحالة التي يتحاماها احتقارا لشأنها وهوانا :

أفِي كُلِّ يَوْمٍ تَحْتَ ضِبْنِي شُوَيْعِرٌ ضَعِيفٌ يُقَاوِينِي ، قَصِيرٌ يُطَاوِلُ؟

لِسانِي بِنُطْقِي صَامِتٌ عَنْهُ عَادِلٌ وقلبي بِصمْتِي ضَاحِكٌ مِنْهُ هَازِلُ[1]

* *

الطبع والتطبع :

ولنختم بحثنا الآن بدراسة ما قاله أبو الطيب فى « الطبع والتطبع » وهو موضع من « الأخلاقيات » التي انتثرت فى شعر أبي الطيب حكما متفرقة ، ولكنه يؤلف فكرة واحدة . ولسنا نقصد أن نقرر هنا أنه صاحب مذهب فى هذا الموضوع ، فذلك رأى قد سُبق إليه . ولكن الذي يحملنا على أن ندخل هذه النقطة فى فلسفة المتنبي أنه صدر فيها عن رأى واحد . لم يعدل عنه فى شعره ، ولم يناقض نفسه فيه تبعا للظروف التي كانت تكتنفه ، شأن الشعراء فيما يتناولون عادة من الموضوعات . فمن حقه علينا أن نعد له هذا الرأى عقيدة ، لا هوى

(١) قد تكلمنا بتبسط عن موضوع العفو بما يشمل نظرية المتنبي وغيرها من الآراء العلمية فى الفصل السادس من كتابنا « فلسفة العقوبة » ص ٧٤ - ٨٧ .

سانحا ، أو فكرة متقلبة . ولا شك أنه متأثر فى عقيدته هذه بما قرأ عن هذا الموضوع ، وبملاحظاته الخاصة التى جاءت فى دقتها مؤيدة للرأى السائد . فقد شاهد أبو الطيب فى نفسه أنه لم يستطع أن يخرج عن طبعه على الرغم من كل المحاولات المخفقة التى حاولها ، كما شاهد من حوله لا يخرجون عن طبعهم ، سواء منهم من كان من ممدوحيه ومن كان من شانئيه .

الطبع يقهر التطبع :

وهو يعبر عن هذا الرأى بطرق شتى : فمرة ينطق بالقضية العامة ، لا يترقب معقباً على قوله ، معلناً أن سير المرء على سجيته هو سبيل النجاح ، وفى التكلف الزلل :

أَبْلَغُ مَا يُطْلَبُ النَّجَاحُ به الـطَّبْعُ ، وَعِنْدَ التَّعَمُّقِ الزَّلَلُ

وَكلٌّ يَرَى طُرْقَ الشَّجَاعَةِ وَالنَّدَى وَلَكِنَّ طَبْعَ النَّفْسِ لِلنَّفْسِ قَائِدُ

بين المتنبي وأرسطو :

وإنى لأسمع هنا صوت أرسطاليس فى « نظرية الفضيلة » إذ يقول (فى الفقرة الثانيه ، من الباب الأول ، من الكتاب الثانى ، من كتاب الأخلاق إلى نيقوماخوس) : « إن الفضائل ليست طبيعية فينا ، وإلا عجزنا عن تغيير طبائعنا . فالعادة لا تستطيع أن تغير ماهو فطرى ، مثل ذلك مثل الحجر الذى يهوى بطبيعته إلى أسفل ، فإنه لا يمكن أن يتعود الصعود ولو حاول به المرء ذلك ألف مرة : وكذلك النار فطرتها الصعود بلهبها ، ولا يمكن أن تتجه إلى أسفل ؛ وليس فى الوجود جسم واحد يمكن أن يفقد خاصته التى تلقاها من الفطرة ليستبدل بها عادة جديدة . » [1]

---

(١) انظر بحثنا فى « نظرية الوسط فى الفضيلة بين فلاسفة اليونان وفلاسفة المسلمين » ص ١٣١ فى العدد الثالث من السنة الثانية من « صحيفة دار العلوم » .

بين المتنبي وصمول سميلز :

ومرة يقول أبو الطيب : إن سلوك المرء قد يخالف طبعه . ولكن ذلك السلوك لا يكون عندئذ نابعا من الخلق الذى هو هيئة راسخة فى النفس تصدر عنها الأفعال بدون روية ، بل يكون سلوكا متكلفا يعرف تكلفه من يعرف أخلاق صاحبه :

وَللنفسِ أَخْلَاقٌ تَدُلُّ عَلَى الفتَى أَكَانَ سَخَاءً مَا أَتَى أَمْ تَسَاخِيَا

وإن المتنبي فى هذا ليسبق بنحو تسعة قرون الأستاذ صَمُوِلْ سْمِيلِزْ ، إذ يقول فى كتابه « الأخلاق » :

« إن الخلق يتجلى فى السلوك ، وإذا كان ذلك الخلق متأصلا فى نفس صاحبه أمكننا أن نتكهن بما سيصدره صاحب ذلك الخلق من الأعمال . »(١)

فإذا نجح المرء فى التصنع والتكلف لم يلبث أن يفتضح أمره ، ويكشف عن حقيقة طبعه :

أَبَى خُلُقُ الدُّنْيَا حَبِيباً تُدِيمُهُ ، فَمَا طَلَبِي مِنْهَا حَبِيباً تَرُدُّهُ ؟

وَأَسْرَعُ مَفْعُولٍ فَعَلْتَ تَغَيُّراً تَكَلُّفُ شَيْءٍ فِي طِبَاعِكَ ضِدُّهُ

يقول صاحب الرسالة الحاتمية : إن المتنبي أخذ هذا من قول أرسطو : « تغير الأفعال التى هى غير مطبوعة أشد انقلاباً من الريح الهبوب » . وأقوى ظنى أنه يشير إلى الفقرة التى اقتبسناها فيما سبق من أرسطو .

ولا شك أن أبا الطيب يردد معنى أرستطاليس مرة أخرى إذ يقول :

فَفَدَى رَأْيَكَ الَّذِى لَمْ تُفَدْهُ كُلُّ رَأْيٍ مُعَلَّمٍ مُسْتَفَادِ

وَإِذَا الْحِلْمُ لَمْ يَكُنْ فِي طِبَاعٍ لَمْ يُحَلِّمْ تَقَادُمُ الْمِيلَادِ

ويعلن أبو الطيب مقته للتطبع فى كل مناسبة : يعلنه حين يمدح إذ يقول

(١) تراجع مذكراتنا فى فلسفة الأخلاق . الجزء الأول ص ٢١ طبعة سنة ١٩٢٩

لأنّ حِلْمكَ حِلْمٌ لا تَكلّفُه   لَيْسَ التكحُّلُ في العَيْنَيْنِ كالكَحَلِ

وإذ يقول لعضد الدولة:

يا عضُدَ الدَّوْلَةِ وَالمعَالى   النَّسَبُ الحَلْيُ وَأنْتَ الحالى

بالأبِ، لا بالشنْفِ والخَلْخَالِ   حَلْياً تَحَلَّى مِنْكَ بالجَمَالِ[1]

وَرُبَّ قُبْحٍ وَحِلَى ثِقَالِ   أحْسَنُ مِنْهَا الحُسْنُ في المِعْطَالِ

وينادى به حين يهجو إذ يقول لكافور:

إنّى نَزَلتُ بِكذّابِينَ ، ضَيْفُهمُ   عَنِ القِرَى وَعَنِ التّرْحَالِ محْدُودُ

جُودُ الرِّجَالِ مِنَ الأيْدِى، وَجُودُهُمُ   مِنَ اللّسَانِ ، فَلا كَانُوا وَلا الجُودُ!

وينطق به حين يتغزل ، فيفضل البدويات الطبيعيات ، على الحضريات المتصنعات:

ما أوْجُهُ الحَضَرِ المُسْتَحْسَنَاتُ بِهِ   كأوْجُهِ البَدَوِيّاتِ الرَّعَابِيبِ[2]

حُسْنُ الحِضَارَةِ مَجْلُوبٌ بِتَطْرِيَةٍ   وَفي البِدَاوَةِ حُسْنٌ غَيرُ مَجْلُوبِ[3]

ويرى أن الحضريات تشبهن المعيز ، على حين أن البدويات تشبهن الآرام فى الحسن والطيب ، وهن مقبلات أو مدبرات:

أيْنَ المَعِيزُ مِنَ الآرَامِ ، نَاظِرَةً   وَغَيْرَ نَاظِرَةٍ في الحُسْنِ وَالطّيبِ؟

ويعجبه من البدويات — أو من ظباء الفلاة ، كما يسميهن — أنهن يتكلمن على سليقتهن ، لا يمضغن الكلام صناعة ، ولا يصبغن الحواجب زينة ، ولا يخضعن أنفسهن لفن التجميل فى الحمام:

---

(١) الشنف : القرط الأعلى.

(٢) الضمير فى « به » يعود على الحضر ؛ الرعابيب : جمع رعبوبة وهى الطويلة الممتلئة.

(٣) التطرية : المعالجة.

أَفْدِي ظِبَاءَ فَلاةٍ مَا عَرَفْنَ بِهَا مَضْغَ الكَلامِ وَلاَ صَبْغَ الْحَوَاجِيبِ
وَلاَ بَرَزْنَ مِنَ الْحَمَّامِ مَائِلَةً أَوْرَاكُهُنَّ صَقِيلاتِ الْعَرَاقِيبِ

وهو فى هوى هؤلاء الحسان غير المموهات لا يخضب شعره، ولا يخفى شيبه. مع أنه فى سن الثالثة والأربعين (١) والشيب أبغض ما يكون للرجال:

وَمِنْ هَوَى كُلِّ مَنْ لَيْسَتْ مُمَوِّهَةً تَرَكْتُ لَوْنَ مَشِيبِي غَيْرَ مَخْضُوبِ
وَمِنْ هَوَى الصِّدْقِ فِي قَوْلِي وَعَادَتِهِ رَغِبْتُ عَنْ شَعَرٍ فِي الرَّأْسِ مَكْذُوبِ

ويكرر هذا الرأى متعزلا مستعتبا إذ يقول:

أَتَتْ زَائِراً مَا خَامَرَ الطِّيبُ ثَوْبَهَا وَكَالْمِسْكِ مِنْ أَرْدَانِهَا يَتَضَوَّعُ
فَمَا جَلَسَتْ حَتَّى انْثَنَتْ تُوسِعُ الْخُطَا كَفَاطِمَةٍ عَنْ دَرِّهَا قَبْلَ تُرْضِعُ

فإذا لم يكن للمرأة بد من بعض مظاهر التجمل، لم ير أبو الطيب فى ذلك تجملا، بل حياء واحتشاما: فإذا لبس الحسان الوشى لم يلبسنه تجملا، بل صيانة لجمالهن: وإذا ضفرن غدائرهن لم يكن ذلك زينة، بل خيفة أن يختفين فى الشعر:

لَبِسْنَ الْوَشْيَ لا مُتَجَمِّلاتٍ وَلَكِنْ كَيْ يَصُنَّ بِهِ الْجَمَالا
وَضَفَّرْنَ الْغَدَائِرَ لا لِحُسْنٍ وَلَكِنْ خِفْنَ فِي الشَّعْرِ الضَّلالا

***

أما بعد، فهذه فلسفة المتنبى هتفت بها فى الملعب طفولته، وشدت بها وسط الطموح والمغامرات شبيبته، ونطقت بها فى مرارة القنوط كهولته.

محمد مهدى علام
المفتش بوزارة المعارف
وعضو المكتب الفنى بها

---

(١) قال هذه القصيدة فى سنة ٣٤٦ ﻫ وهو مولود فى سنة ٣٠٣

طموح المتنبي (١)

بقلم الأستاذ الكبير على الجارم بك

المفتش بوزارة المعارف

فى نحو السنة الخامسة عشرة بعد الثلثمائة ، يرى عند أبواب دمشق شيخا رقيق الحال ، تقتحمه العين ، أخذ منه جهد السفر وجهد الحياة . ودل عبوس وجهه ورثاثة زيه أنه لا ينال عيشه إلا بعرق القربة ، ونضح الجبين ، وقد أخذ بضبع غلام فى الثانية عشرة . سفعته الشمس فزادت وجه المليح سمرة على سمرته ، وقد شعت عيناه الواسعتان السوداوان بذكاء نادر وعبقرية لا يخطئها من له علم بالفراسة ، وتقدير مواهب بنى الانسان . وكان هذا الصبي قلق النفس كثير التلفت ، كلما رأى مشهدا من مشاهد العظمة فى المدينة ، أو مر به سرى من سراتها فى خدمه واتباعه حدق فيه ، ومد عينيه فى لهفة ظمآن ساغبة امتزج فيها الحسد بالغبطة ، واليأس بالأمل ، ثم أطرق إطراقة الحزين ، وهمهم بما يشبه الأنين .

ذانكم هما الحسين بن الحسن ، وابنه أحمد الذى عرفناه بعد ذلك بالمتنبي ، قدم به أبوه دمشق ، ليتلقى فنون الأدب واللغة على جهابذتها وأعلامها ، بعد أن نطقت مخايله بما أعد له الزمان : من مجد رفيع ، وشأن بعيد .

كان الطموح وتطلب معالى الأمور من أبرز صفات هذا الصبي وأظهرها ، والحق كيفما كان (كريما أو ذميما) إذا تملك نفسا أخضعها لسلطانه ، وأنزلها عند حكمه ، وتحكم فيها تحكم الصبي على أهله فألقت اليه بعنانها ومكنته من ناصيتها وساقت اليه جميع ما فيها من صفات ، لتكون وسائل غايته ، وحشرت فى طاعته كل ما تستطيع بذله لاطفاء غلته .

---

(١) ألقى هذا البحث فى الاحتفال بالذكرى الألفية للمتنبي ، الذى أقيم بدار الأبرا الملكية فى ٢١ من فبراير سنة ١٩٣٦ .

فالناس عبيد نفوسهم وما يسيطر عليهم من نزعات قوية إلى الخير أو إلى الشر وعلماء الأخلاق فى كل أفق وزمان يحشدون حشدهم، ويجهدون جهدهم لتقوية نزعات الخير والسمو الروحى الى أرفع أوج. ومحاربة نزعات الشر والتدلى بالنفس الانسانية إلى الحضيض.

وأساس هذا الخلق ودعامته أن يكبر المرء نفسه أولا، ويثق بمواهبه، ويسخر من شدائد الدهر وأزماته. ويبذل الوسائل جميعها التى تصل به إلى الغاية، وأن يقدم إذا كان الأقدام عزما. ويحجم إذا كان الإحجام حزما، وأن يطاطىء ليثب. ويدمن القرع ليلج. وألا يبهبه يأس. ولا يفل من عزيمته ملل، وأن يصانع ويداهن اذا خطت به المصانعة الى طلبته، ويهدد ويتوعد إذا طار به التهديد الى أربته، وأن يجعل عزمه مطية أمله. وأمله فوق نفسه. ونفسه فوق متناول الآمال، وقد كان المتنبى كذلك فى جميع أطوار حياته فهو يقول فى صباه:

إنْ أكُنْ مُعْجَباً فَعُجْبُ عَجِيبٍ ... لَمْ يَجِدْ فَوْقَ نَفْسِهِ مِنْ مَزِيدِ

أنَا تِرْبُ النَّدَى وَرَبُّ الْقَوَافِى ... وَسِمَامُ الْعِدَى وَغَيْظُ الْحَسُودِ

أنَا فِى أُمَّـــةٍ تدَارَكَهَا اللهُ ... غَرِيبٌ، كَصَالِحٍ فِى ثَمُودِ

ويقول فى كهولته:

وَفِى النَّاسِ مَنْ يَرْضَى بِمَيْسُورِ عَيْشِهِ ... وَمَرْكُوبُهُ رِجْلَاهُ وَالثَّوْبُ جِلْدُهُ

وَلَكِنَّ قَلْباً بَيْنَ جَنْبَىَّ مَالَهُ ... مَدًى يَنْتَهِى بِى فِى مُرَادٍ أَحُدُّهُ

ويقول فى أواخر أيامه:

ذرِينِى أَنَلْ مَا لَا يُنَالُ مِنَ الْعُلَا ... فَصَعْبُ الْعُلَا فِى الصَّعْبِ وَالسَّهْلُ فِى السَّهْلِ

تُرِيدِينَ لُقْيَانَ الْمَعَالِى رَخِيصَةً ... وَلَا بُدَّ دُونَ الشَّهْدِ مِنْ إِبَرِ النَّحْلِ

٭٭٭

إن بوادى الطموح، ذلك الخلق العنيف الوثاب ظهرت فى شاعرنا منذ نشأته

الأولى . وملكت عليه جوانب نفسه ، فأحس عظم همته وسمو مطالبه فى فتائه وصباه . حين يقول فى كبر وصلف :

وَخُضرَةُ ثَوْبِ الْعَيْشِ فِى الْخُضْرَةِ الَّتِى أَرَتْكَ احْمِرَارَ الْمَوتِ فِى مَدْرَجِ النَّمْلِ
أَمِطْ عَنْكَ تَشْبِيهِى بِـ (مَا، وَكَأَنَّهُ) فَمَا أَحَدٌ فَوْقِى ، وَلَا أَحَدٌ مِثْلِى

وقد وصل (فى صباه) إحساسُه عظمَ نفسه وكبر همته إلى حد الجنون . حين يقول :

أَىَّ مَحَلٍّ أَرْتَقِى ؟ أَىَّ عَظِيمٍ أَتَّقِى ؟
وَكُلُّ مَاقَدْ خَلَقَ اللّـــهُ وَمَا لَمْ يَخْلُقِ
مُحْتَقَرٌ فِى هِمَّتِى كَشَعْرَةٍ فِى مَفْرِقِى

وقد رأى المتنبى ـ منذ غضارة عوده وميعة صباه ـ أن آمال نفسه الكبيرة لا تنال إلا بحد السيف وشباة السنان ؛ لأنه نشأ فى عصر يشبه عصر الفتوة بأوربا ، وقد رأى بعينيه ـ بعد أن أصبحت الدولة العباسية نهبا مقسما ـ أن القوة كانت تؤسس ملكا فى يوم وليلة . لذلك نراه فى جميع أوجه حياته ، يرى أن الحق للقوة ، وأن المجد لا ينال إلا تحت ظلال السيوف ؛ استمعوا له حين يقول فى صباه :

وَإِلَّا تَمُتْ تَحْتَ السُّيُوفِ مُكَرَّمًا تَمُتْ وَتُقَاسِ الذُّلَّ غَيْرَ مُكَرَّمِ
فَثِبْ وَاثِقًا بِاللهِ وَثْبَةَ مَاجِدٍ يَرَى الْمَوْتَ فِى الْهَيْجَا جَنَى النَّحْلِ فِى الْفَمِ

وقد يتغلب اليأس على هذا الفتى المسكين ، ويحس بُعد آماله ، وقصر ذات يده ، فيقول :

لِبَسَ التَّعَلُّلُ بِالْآمَالِ مِنْ أَرَبِى وَلَا الْقَنَاعَةُ بِالْإِقْلَالِ مِنْ شِيَمِى
وَلَا أَظُنُّ بَنَاتِ الدَّهْرِ تَتْرُكُنِى حَتَّى تَسُدَّ عَلَيْهَا طُرْقَهَا هِمَمِى

لُمِ اللَّيَالِي الَّتِي أَخْنَتْ عَلَى جِدَتِي ... بِرِقَّةِ الْحَالِ، وَاعْذِرْنِي وَلَا تَلُمِ
أَرَى أُنَاساً، وَمَحْصُولِي عَلَى غَنَمٍ ... وَذِكْرَ جُودٍ، وَمَحْصُولِي عَلَى الْكَلِمِ

حتى إذا ضاقت نفس شاعرنا الناشئ، وأنف أن يطوف به طائف من الضعف، قال:

لَقَدْ تَصَبَّرْتُ حَتَّى لَاتَ مُصْطَبَرٍ ... فَالْآنَ أُقْحِمُ حَتَّى لَاتَ مُقْتَحَمِ
لَأَتْرُكَنَّ وُجُوهَ الْخَيْلِ سَاهِمَةً ... وَالْحَرْبُ أَقْوَمُ مِنْ سَاقٍ عَلَى قَدَمِ

على رسلك أيها الفتى! أين هذه الخيل؟ ومن أين تأتي بالشيعة والأنصار، وقد أراد القدر أن تكون من أسرة حيث وضعها القدر؟ ولكن النفس الطموح تتسلى بالآمال، وتتشبث بأذيال الخيال.

ما هذه الهمة الشماء يا أبا الطيب؟ وإلى أي شيء تتجه؟ لقد كشف المتنبي الحدث عن ذات نفسه، وباح بما يحيك في صدره من ذلك المطلب السامي البعيد، الذي بذل لنيله فيما بعد ماء وجهه وماء حياته، فقال:

أَيَمْلِكُ الْمُلْكَ ـ وَالْأَسْيَافُ ظَامِئَةٌ ... وَالطَّيْرُ جَائِعَةٌ ـ لَحْمٌ عَلَى وَضَمِ

مرحى مرحى!! لقد عرفنا ما كان يريده أبو الطيب؛ إنه كان يريد الملك، نعم لقد كان يريده، ولقد كان من أجل ذلك شديد الحقد على ملوك عصره، حتى في أيامه الأولى، ولقد حاول في سن العشرين أن يدعو إلى نفسه، فبايعه طائفة من عرب السماوة، ولكن المحاولة لم تنجح كما كان مقدرا لها، فأُخذ أبو الطيب وأودع السجن، وأظهر في السجن ذلة واستخذاء لا يليقان بالفارس المغوار، صاحب الآمال الكبار، حين يناجي في سجنه صاحب حمص:

أَمَالِكَ رِقِّي، وَمَنْ شَأْنُهُ ... هِبَاتُ اللُّجَيْنِ، وَعِتْقُ الْعَبِيدِ
دَعَوْتُكَ عِنْدَ انْقِطَاعِ الرَّجَا ... ءِ وَالْمَوْتُ مِنِّي كَحَبْلِ الْوَرِيدِ
دَعَوْتُكَ لَمَّا بَرَانِي الْبَلَاءُ ... وَأَوْهَنَ رِجْلَيَّ ثِقْلُ الْحَدِيدِ

وقد كانَ مَشيهُما في النِّعالِ فقد صارَ مَشيهُما في القيودِ

خرج المتنبي من السجن ، فنفض عنه ما اعتراه فيه من ضعف ، وعاد إلى سالف عزيمته ، وآنف طموحه . ولكنه رأى ضرورة تغيير خططه ، وابتكار وسائل جديدة لغايته . فسبق إلى نفسه أن الاستجداء بالشعر ، وجمع الأموال من هذه الطريق ، قد يُعِدُّه إلى مطلبه الأسمى :

فلا مَجدَ في الدُّنيا لِمَن قلَّ مالُهُ ولا مالَ في الدُّنيا لِمَن قلَّ مَجدُهُ

فهام على وجهه في الآفاق ، يمدح من عز وهان . ولكن نفسه كانت تطالعه باليأس من هذه الوسيلة ، وتناجيه فتقول :

إلى كَمْ ذا التَّخلُّفُ والتَّواني وكَمْ هذا التَّمادي في التَّمادي ؟

وشُغْلُ النَّفسِ عَنْ طَلَبِ المَعالي بِبَيْعِ الشِّعْرِ في سُوقِ الكَسادِ

لا يا صاحبي ، إن مطلبك البعيد لا ينال بالخضوع وذل السؤال ، فكن كما قلت :

مَنْ أطاقَ التِماسَ شيءٍ غِلاباً واغْتِصاباً ، لَمْ يلتَمِسْهُ سُؤالا

وكأني أرى المتنبي ، بعد لأي ، مطرق الرأس ، كاسف البال ، بين شعور بالضعف ، وأمل في القوة ، ينشد :

فَسِرْتُ نَحوكَ لا أَلوي على أَحَدٍ أَسُوقُ راحِلَتيَّ : الفَقْرَ والأَدَبا

أَذاقَني زَمَني بَلْوى شَرِقْتُ بِها لَوْ ذاقَها لَبَكى - ما عاشَ - وانْتَحَبا

وإنْ عَمَرْتُ جَعَلْتُ الحَرْبَ والِدَةً والسَّمْهَرِيَّ أَخاً ، والمَشْرَفيَّ أَبا

ولكنه يسأم مديح الناس ، وتضيق نفسه بالوهدة التي وضع فيها نفسه . فيثور ثورة الحانق المهدد :

لِلهِ حالٌ أُرَجِّيها ، وتُخلِفُني وأَقتَضي كَوْنَها دَهْري ، ويَمْطُلُني

مَدَحْتُ قَوْماً ، وإنْ عِشْنا نَظَمْتُ لَهُمْ قَصائِداً مِنْ إناثِ الخَيْلِ والحُصُنِ

لماذا كل هذا؟ لأن الناس لا يعرفون قدره. ولأن الأقدار لم تضعه فى موضعه:

أنا صَخْرةُ الوَادِى إذا ما زُوحِمَتْ وَإذَا نَطقتُ فإنَّنى الجَوْزاء
وَإذا خفيتُ عَلَى الغَبِيِّ فعاذِرٌ ألاَّ ترانِى مُقلَةٌ عَمْياء

وما دام الناس لم يرفعوه فوق الرءوس. وما داموا لاهين عما تستحقه عظمته ومواهبه، فليسحقهم تحت قدميه سحقا، وليقل:

وَمنْ عرفَ الأَيَّامَ مَعْرِفَتِى بِهَا وَبالنَّاسِ، رَوَّى رُمْحَهُ غَيْرَ رَاحِمِ
فَلَيْسَ بِمَرْحُومٍ إِذَا ظَفِرُوا بِهِ وَلاَ فِى الرَّدَى الجارِى عَلَيْهِمْ بآثِمِ

إن له مطالبا أسمى من قرض الشعر ومن بلوغ الغاية فيه. وقد وسوست إليه نفسه أن هذا المطلب من حقه، وأنه لم يسع إليه متطفلا، ولم يحبس عليه آماله دعيا، استمعوا له حين يقول:

سأطْلُبُ حَقِّى بِالْقَنا وَمشايخٍ كأنَّهُمُ مِنْ طُول مَا الْتَثمُوا مُرْدُ
ثِقالٍ إذا لاَقَوْا، خِفَافٍ إذَا دُعُوا كَثِيرٍ إِذَا شدُّوا، قَلِيلٍ إِذَا عُدُّوا

سأطلب حقى!! ماهذا الحق الذى يطلبه المتنبى؟ يكشف عن هذا الحق فى كثير من الغموض والإبهام فيقول مرة:

إِذَا غَامَرْتَ فِى شَرَفٍ مَرُومِ فَلاَ تَقْنَعْ بِمَا دُونَ النُّجُومِ
فَطَعْمُ الْمَوْتِ فِى أَمْرٍ حَقِيرٍ كَطَعْمِ الْمَوْتِ فِى أَمْرٍ عَظِيمِ

ويقول ثانية:

ذَرِ النَّفْسَ تَأْخُذْ وُسْعَهَا قبلَ بَيْنِها فَمُفْتَرِقٌ جارَانِ دَارُهُمَا العُمْرُ
وَلاَ تَحْسَبَنَّ الْمَجْدَ زِقًّا وَقَيْنَةً فَمَا المَجْدُ إلاَّ السَّيْفُ وَالْفَتْكَةُ الْبِكْرُ
وَتَرْكُكَ فِى الدُّنْيَا دَوِيًّا كَأَنَّمَا تَدَاوَلُ سَمْعَ المَرْءِ أَنْمُلُهُ العَشْرُ

ويقول ثالثة :

أُرِيدُ مِنْ زَمَنِي ذَا أَنْ يُبَلِّغَنِي مَا لَيْسَ يَبْلُغُهُ مِنْ نَفْسِهِ الزَّمَنُ

ويقول أخيرا فى تهويل مرهب مخيف :

تَغَرَّبَ لاَ مُسْتَعْظِماً غَيْرَ نَفْسِهِ وَلاَ قَابِلاً إِلاَّ لِخَالِقِهِ حُكْمَا

وَلاَ سَالِكاً إِلاَّ فُؤَادَ عَجَاجَةٍ وَلاَ وَاجِداً إِلاَّ لِمَكْرُمَةٍ طَعْمَا

يَقُولُونَ لِي: مَا أَنْتَ فِي كُلِّ بَلْدَةٍ ؟ وَمَا تَبْتَغِي؟ مَا أَبْتَغِي جَلَّ أَنْ يُسْمَى

ماهذا الذى جل أن يسمى يا أخا العرب ؟ لقد عرفناه من قبل . ولقد كشف عنه المتنبي مرة أخرى فى بيت دسه فى آخر قصيدة لكافور ، حين يقول :

فَارْمِ بِي مَا أَرَدْتَ مِنِّي فَإِنِّي أَسَدُ الْقَلْبِ ، آدَمِيُّ الرُّوَاءِ

وَفُؤَادِي مِنَ الْمُلُوكِ ، وَإِنْ كَا نَ لِسَانِي يُرَى مِنَ الشُّعَرَاءِ

ولكن ماذا يصنع المتنبي للوصول إلى هذه الأمنية الشاسعة . وقد يقف تطامن نسبه عقبة فى سبيل مطلبه العزيز ؟ لا ، لا . إن شيئا من ذلك لن يقف فى سبيل غاياته ؛ إن المتنبي يفرع مجدُه ، الذى بناه لنفسه ، مجدَ الباحثين عن أصله ، ومجد آبائهم ، وإن الإنسان إنما يلجأ إلى الفخر بالأنساب بعد أن تنفد وسائل الفخرالأخرى :

أَنَا ابنُ مَنْ بَعْضُهُ يَفُوقُ أَبَا الْـ بَاحِثِ ، وَالنَّجْلُ بَعْضُ مَنْ نَجَلَهْ

وَإِنَّمَا يَذْكُرُ الْجُدُودَ لَهُمْ مَنْ نَفَرُوهُ وَأَنْفَدُوا حِيلَهْ

فَخْراً لِعَضْبٍ أَرُوحُ مُشْتَمِلَهْ وَسَمْهَرِيٍّ أَرُوحُ مُعْتَقِلَهْ

وَلْيَفْخَرِ الْفَخْرُ إِذْ غَدَوْتُ بِهِ مُرْتَدِياً خَيْرَهُ وَمُنْتَعِلَهْ

أَنَا الَّذِي بَيَّنَ الإِلهُ بِهِ الْـ أَقْدَارَ ، وَالْمَرْءُ حَيْثُمَا جَعَلَهْ

ثم يرحل أبو الطيب إلى سيف الدولة ، وإذا قرأنا شعره فى هذا الأمير العظيم .

وقد لزم بساطه نحو تسع سنين ، نرى أن هذه المنازعة العنيفة إلى مطلبه الأسمى قد هدأت كثيراً ، وأن فخره كاد يقتصر على التمدح بمواهبه الشعرية البارعة ، وعلى تحدى شعراء العصر جميعا ، وكانوا شيوخ الشعر ونجوم الدهر ، كما يقول الثعالبي .

والسبب فيما أرى أنه لم يجد مجالا ، ولم ير فائدة من كشف مراميه البعيدة فى حضرة أمير عربى قوى ، نهض بملكه الصغير إلى أسمى المراتب ، فى السياسة والعلم والأدب . فلم يستطع المتنبى أن ينبس بكلمة عن آماله ، ولا عن قومه ونصرائه ، الذين كان يتحيلهم فى كل قصيدة قبل ذلك . لهذا ضاق به المكان على اتساعه ، وقلق به المضجع على وثارته ، لأنه رأى أنه إن أقام بكنف سيف الدولة فانه سيعيش شاعرا ويموت شاعرا . وهذا ما تأباه نفسه الطامحة ، فماذا يفعل ؟ يتيه ويدل ويهدد ، ويضن على سيف الدولة بالمديح ، ويخاطبه مخاطبة الند ، ويقرّعه أحيانا ، ويصبح كلاً لا يطاق ولا يحتمل ، ويخاطب سيف الدولة فى مجلس حافل فيقول :

أُعِيذُهَا نَظَرَاتٍ مِنْكَ صَادِقَةً ... أَنْ تَحْسَبَ الشَّحْمَ فِيمَنْ شَحْمُهُ وَرَمُ

وَمَا انْتِفَاعُ أَخِي الدُّنْيَا بِنَاظِرِهِ ... إِذَا اسْتَوَتْ عِنْدَهُ الأَنْوَارُ وَالظُّلَمُ؟

سَيَعْلَمُ الْجَمْعُ مِمَّنْ ضَمَّ مَجْلِسُنَا ... بِأَنَّنِي خَيْرُ مَنْ تَسْعَى بِهِ قَدَمُ!

وبعد كل هذا يرضى عنه سيف الدولة ، ويقربه ، ويخلع عليه ، ولكن نفس المتنبى السجينة ، تريد أن تنطلق ، وتريد أن تطير الى جو تحدفيه إرتها ، وتصل فيه إلى غايتها ، فيذهب المتنبى إلى مصر ، وفيها كافور يقوم بالملك عن ابن سيده ، فيظن المتنبى أن الزمن واتاه ، وأن أمنيته التى عالته عليها الأيام أصبحت منه على طرف الثمام ! كافور يقصده أعظم شعراء المشرق ولا يجود عليه بولاية ؟ هذا مستحيل ، كان هذا الظن الكاذب أكبر غلطة غلطها المتنبى فى حياته ، قطع عليها أصابعه حسرة وندما .

أخذ يتذلل للأسود ويتضع ، ويصغر ويهون ، ونسى الشمم ، ونسى الشهامة ، ونسى صلفه على سيف الدولة ، وهو يرى أن الغاية تبرر الوسيلة ، حتى لقد جعل خاتمة أكثر قصائده فى كافور ، طلبا ذليلا ، يريد منه صاحبه النظر بعين الرأفة والإنصاف ... اسمعوا طلبا من هذه :

وَلَوْ كُنْتُ أَدْرِي كَمْ حَيَاتِي، قَسَمْتُهَا وَصَيَّرْتُ ثُلْثَيْهَا انْتِظَارَكَ ؛ فَاعْلَمِ
وَلَكِنَّ مَا يَمْضِي مِنَ الْعُمْرِ فَائِتٌ فَجُدْ لِي بِحَظِّ الْبَادِرِ الْمُتَغَنِّمِ
رَضِيتُ بِمَا تَرْضَى بِهِ لِي، مَحَبَّةً وَقُدْتُ إِلَيْكَ النَّفْسَ قَوْدَ الْمُسَلِّمِ
وَمِثْلُكَ مَنْ كَانَ الْوَسِيطَ فُؤَادُهُ فَكَلَّمَهُ عَنِّي، وَلَمْ أَتَكَلَّمِ

ولم يعبأ المتنبي بصلات كافور . ولا بما أغدق عليه من أموال : لأنه يقول :

وَما رَغْبَتِي فِي عَسْجَدٍ أَسْتَفِيدُهُ وَلَكِنَّهَا فِي مَفْخَرٍ أَسْتَجِدُّهُ

وكان الأسود وعده بولاية ، لا ليفى وعده ، بل ليمد له حبل الأمل ، وليطيل إقامته بمصر . فكان المتنبي يطالبه بوعده ويستبطئه ، ويتهكم أحيانا بالحال التي وصل إليها كقوله :

أَبَا الْمِسْكِ هَلْ فِي الْكَأْسِ فَضْلٌ أَنَالُهُ فَإِنِّي أُغَنِّي مُنْذُ حِينٍ وَتَشْرَبُ ؟
وَهَبْتَ عَلَى مِقْدَارِ كَفَّيْ زَمَانِنَا وَنَفْسِي عَلَى مِقْدَارِ كَفَّيْكَ تَطْلُبُ
إِذَا لَمْ تَنُطْ بِي ضَيْعَةً أَوْ وِلَايَةً فَجُودُكَ يَكْسُونِي، وَشُغْلُكَ يَسْلُبُ

وما زال بين إلحاح ودهان ، ويأس عابس ، وأمل ضاحك ، حتى ظهر له أنه كان موضع خديعة هائلة ، وسخرية مخزية ، وأنه لا ولاية ولا ملك ، وأن ماء وجهه الذي أراقه ، وشممه الذي دسه في التراب ، لم يحصل منهما على شيء إلا الهزيمة والعار ، فهو يقول في حزن وأنين :

وَلَا أُمْسِي لِأَهْلِ الْبُخْلِ ضَيْفًا وَلَيْسَ قِرًى سِوَى مُخِّ النَّعَامِ
وَلَمَّا صَارَ وُدُّ النَّاسِ خِبًّا جَزَيْتُ عَلَى ابْتِسَامٍ بِابْتِسَامِ
وَصِرْتُ أَشُكُّ فِيمَنْ أَصْطَفِيهِ لِعِلْمِي أَنَّهُ بَعْضُ الْأَنَامِ

ثم يفر من مصر تحت ستار الليل ، وتنفجر نفسه بهجاء كافور ، انفجارا قد يكون الوحيد من نوعه في تاريخ الأدب ، وهنا يعرف المتنبي أن كل وسائله الأدبية لا تجدي ، وأن القلم وحده لا يصل به إلى شاسع آماله ، فيقول قول النادم الحزين :

حَتى رَجَعْتُ وَأقلَامِى قَوائِلُ لِى : الْمَجْدُ لِلسَّيْفِ، لَيْسَ الْمَجْدُ لِلْقَلَمِ
اُكْتُبْ بِنَا أبدًا، بَعْدَ الكِتَاب بِهِ فإنَّما نَحْنُ لِلأسْيافِ كَالْخَدَمِ

ولكنه ينظر فيرى أن الشيخوخة أدركته، وأنه نعد كل ما بذله من جهد لم يعمل عملا. ولم يبلغ أملا. فيتعزى بأنه جاء إلى الدنيا بعد أن طارت منها فرص المجد. وعاش فى أمم لا تقدر الرجال، فيقول:

وَقتٌ يضِيعُ، وَعُمْرٌ لَيتَ مُدَّتَهُ فى غيْرِ أُمَّتِهِ مِنْ سَالِفِ الأمَمِ
أتَى الزَّمانَ بَنُوهُ فِى شَبِيبَتِهِ فَسَرَّهُمْ، وَأتَيْنَاهُ على الْهَرَمِ

ويزيد به الألم. وتلذعه لوعة اليأس وضياع الأمل، فيصيح:

أمَا فِى هَذِه الدُّنْيَا كَرِيمُ تَزُولُ بِهِ عَنِ الْقلْبِ الهُمُومُ؟
أمَا فِى هَذِه الدُّنْيَا مَكانٌ يُسَرُّ بِأهْلِهِ الجارُ الْمُقِيمُ؟

ولا يزال فى أسف وبكاء على تلك الأمانى الغالية، التى طارت أمام عينيه فى الهواء، وذهبت مع الهباء. إلى أن يقول ـ فى آخر قصيدة قالها ـ قول اليائس المتهدم:

فَزُلْ يا بُعْدُ عَنْ أيْدِى رِكَابٍ لهَا وَقْعُ الأسِنَّةِ فِى حَشَاكَا
وَأنَّى شِئْتِ يَا طُرُقِى فَكُونِى: أذاةً، أوْ نَجَاةً، أوْ هَلاَكَا...!

علي الجارم

الخيـال فى شعر المتنبى

بقلم عبد الحميد حسن
المفتش بوزارة المعارف

لعظمة الشعراء وخلود أثرهم عوامل شتى، من أبرزها خمسة : هى الفكر، والخيال، وقوة البيان، والصفات النفسية، والذوق السليم.

فالشاعر فى ابتكاره يستوحى فكره، ويستلهم خياله، مستعينا بقوة بيانه ؛ وفى ثنايا ذلك تتجلى طباعه، وما تنطوى عليه نفسه من صفات، فتتحكم فى اتجاهه العقلى ؛ ومن وراء كل هذا ذوقه السليم. وعلى قدر ما فى الشعر من المعانى الصادقة الطبيعية، التى تسيغها الطباع الصافية. يكون خلوده وامتزاجه بالقلوب.

وللمتنبى فى هذه النواحى حظ أكسب شعره قوة، وسار به فى الآفاق. وسأعرض فى كلمتى لناحية من النواحى التى أشرت إليها، هى الخيال فى شعره.

والخيال من العوامل القوية فى الاختراع والابتكار، فى نواحى العلوم والفنون ؛ وهو منبع لكثير من مناحى الجمال فى الشعر وروعته، وقوة أثره، وحسن تصويره، وامتزاجه بالنفس، وإيقاظه للوجدان، وإثارته لكريم العواطف.

وقبل البحث فيما فى شعر المتنبى من خيال، نذكر كلمة علمية موجزة فى الخيال ودعائمه، والعوامل التى توجهه وتقوده :

٭٭٭

الخيال هو العمل العقلى الذى يستطيع به الإنسان أن يكوّن صورا ذهنية تتجلى أمام عينى عقله، ثم إذا شاء صورها بالقلم، أو باللسان، أو بالألوان، أو ركبها نماذج ملموسة، أو صورا محسوسة ؛ وإذا شاء تركها تسبح فى نواحى ذهنه، وتضىء فى أحناء صدره، فتزيد حياته العقلية خصبا، وتكسبها بهجة وروعة.

وإذا استعاد الإنسان الصور على حقيقتها فهذا هو التذكر. وإذا افتنّ فى تكوينها بالمحو والإثبات والتغيير، والتصغير والتكبير، والاقتطاع والإضافة،

وغير ذلك ، فهذا هو الخيال بالمعنى الخاص . ومن هذا يتضح أن الصور التى يخلقها الخيال ليست إلا المحسوسات أو الفكر السابقة . تصرف فيها العقل بالتغيير فى الأوضاع والأشكال . فنشأ عن ذلك صور ذهنية جديدة ، تختلف فى روعتها أو جمودها ، وقوتها أو ضعفها . وخصبها أو إمحالها . على حسب تجارب المرء واستعداده النفسى .

فالدعائم التى يرتكز عليها الخيال . ويستمد منها الإنسان الصور العقلية ، هى تجاربه السابقة التى اكتسبها بحواسه . وقد تكون إحدى الحواس أرجح من غيرها ، وأقوى أثرا فى إمداد الإنسان بالتصورات ، فمن الناس من يكون للتجارب البصرية الشأن الأكبر فى حياته العقلية . ومنهم من يعتمد على السمع ، ومنهم العضليون .

ونستطيع أن نجد ذلك فى أنفسنا ، وفيمن نحدثهم ونقرأ آثارهم القلمية . فمن الناس من إذا استرسل فى تخيله سار فى ميدان المرئيات والألوان والأشكال وما يتصل بذلك ؛ ومنهم من يجول فى ميدان المسموعات فيخيل إليه أنه يستمع إلى حديث نفسه أو حديث لغيره . وقد يجيش صدر الإنسان بالأخيلة السمعية ، ويتردد صداها فى نواحى نفسه ، فينطلق بها لسانه ، وتراه يحدث نفسه ؛ ومنهم من يتخيل الحركات العضلية ، والإقدام والإحجام . والوثب والتحفز ، والرفع والخفض ، ونحو ذلك .

وإذا رأى فريق من الناس حفلا فمنهم من يتأثر بما سمع ، ومنهم من يرتسم فى ذهنه ما رأى . ومنهم من يحس الحركات الجسمية تسرى فى أعصابه وتحفز عضلاته . حتى تراه يكاد يعبر عن خواطره بحركات جسمية ظاهرة . وفى الجمهور المصرى فريق لا يستطيع أن يتصور أو يصور المعانى إلا إذا استعان بغير اللسان من العضلات .

وإنا حين نقرأ لناثر أو شاعر ترتسم فى أذهاننا المعانى . ونتخيل ما يسطر . لا تخيل الابتكار . بل التخيل التفسيرى المترجم ، ونتصور ما يركب من صور على حسب اتجاهه فى تخيله ، فتارة ترتسم أمام أذهاننا صور وألوان وأشكال .

وطورا نسمع ما فى معانيه من أصوات وصليل وضجيج ورنين ، وأحيانا نشعر بالمعانى تحفز العضلات ، وتستفز الأعصاب ، وتسرى فى الجسم فلا يستقر على حال . وقد تشذ الأخيلة عن مألوفنا فلا نستسيغها ، أو تنبو عن ذوقنا فلا نستملحها .

هذه هى منابع الخيال . أما العوامل التى تقود العقل فى أثناء التخيل فهى إما الفكر ، وإما الوجدان . فمن النوع الأول الخيال العلمى الذى يتجلى فى الإنتاج ، ويساعد على ظهور المخترعات ، وتركيب الأجهزة والآلات ، وعمل النماذج الهندسية ، وغير ذلك . ومن النوع الثانى الخيال الفنى فى الشعر ، والتصوير ، وأنواع التنسيق ، وسائر الفنون الجميلة .

ومن وراء هذه القيادة ذلك الحكَم الناقد فى التخير والانتقاء ، وهو الذوق السليم . والدعامة فى كل هذا هى تجارب الانسان وبيئته وصفاء ذهنه وسرعة بديهته.

ولنذكر بصدد الوجدان أن منه الفردى ، ومنه الاجتماعى ، ومنه العواطف ، وهى تنشأ عن تنظيم الانفعالات والاتجاهات النفسية ، وتركيزها حول غاية ؛ ومن العواطف عواطف فكرية ، وعواطف خلقية ، وعواطف الجمال . وذلك يرجع الى المثل الأعلى الذى تتجه اليه مظاهر الشعور الثلاثة فى الإنسان ، والمحور الذى يدور حوله كل منها فى تكوين العواطف ، وهو الحق للفكر ، والجمال للوجدان والخير للارادة .

٭ ٭ ٭

نعود بعد هذا إلى موضوعنا :

قد وضح أن الخيال يعتمد على البيئة الحسية الحيوية للإنسان ، وعلى البيئة العقلية والجو النفسى : فالأولى . هى منبع التجارب ؛ والثانية هى كالمصنع ، تصهر فيه الحقائق ، وتصاغ المعانى والفكرَ تحت إشراف الطبع القويم ، وقيادة الذوق السليم .

فلننظر فى الجو النفسى والجو الحيوى المتنبى ؛ فهما عاملان قويان فيما أنتج من معان ، وما ابتكر أو نقل من أخيلة . ولنعرض هذا الجو فى ناحيتيه : النفسية ، الحسية ؛ لنتبين ظاهره وباطنه :

(١) أما جوه النفسي فأظهر مافيه آماله المتأججة ، ومطامعه المتوثبة ، وطموح يغالب به الحدثان ، واعتداد بالنفس لم تخضد الحوادث شوكته ، بل زادته صلابة وعتوا . وقد نشأ عن طموحه واعتداده بنفسه . ميله إلى الإغراق والمبالغة ، والعلو في التعالى ، وتعداد ما يراه لنفسه من فضائل لا يعترف لغيره بحظ منها ، ولا يرى لها محوراً إلا شخصه ؛ وكان إحفاقه فى نيل ما تاقت إليه نفسه . من العوامل التى ألهبت فيه السخط والحنق على الحياة ومن فيها ، ولكن هذا السخط لم يكن سخط المنهزم أو اليائس . بل سخط الناقم الذى يحاول أن يثأر لنفسه . وأن يصب سوط عذابه على من فازوا فى الحياة دونه .

فالصفات النفسية التى نلمحها فى المتنبى تنطوى على التوثب والعظمة ، والفخر بهمته وعزيمته . لا بقومه وعشيرته . والغلو فى تمجيد نفسه . والإشادة بخبرته وسطوته ، والاستهانة بالخطوب ، والارتياب فى بنى الانسان ، وقد ظهر ذلك فيما جرت به قريحته حين يقول :

يُحَاذِرُنى حَتْفِي كَأَنِّىَ حَتْفُهُ وَتَنْكُزُنِى[1] الْأَفْعَى، فَيَقْتُلُهَا سُمِّى

طِوَالُ الرُّدَيْنِيَّاتِ يَقْصِفُهَا دَمِى وَبِيضُ السُّرَيْجِيَّاتِ يَقْطَعُهَا لَحْمِى

كَأَنِّي دَحَوْتُ الْأَرْضَ مِنْ خِبْرَتى بِهَا كَأَنِّى بَنَى الإِسْكَنْدَرُ السَّدَّ مِنْ عَزْمِى

أَنَا صَخْرَةُ الْوَادِى إِذَا مَا زُوحِمَتْ وَإِذَا نَطَقْتُ فَإِنَّنِى الْجَوْزَاءُ

وَهَانَ ، فَمَا أُبَالِى بِالرَّزَايَا لِأَنِّى مَا انْتَفَعْتُ بِأَنْ أُبَالِى

إِذَا مَا النَّاسُ جَرَّبَهُمْ لَبِيبٌ فَإِنِّى قَدْ أَكَلْتُهُمْ وَذَاقَا

إِنَّ نُيُوبَ الزَّمَانِ تَعْرِفُنِى أَنَا الَّذِى طَالَ عَجْمُهَا عُودِى

---

(١) تلسع .

قوافٍ إذا سِرْنَ عن مِقْولي وَثَبْنَ الجبالَ، وَخُضْنَ البحارا

وَلَمَّا صَارَ وُدُّ النَّاسِ خِبًّا جَزَيْتُ على ابْتِسامٍ بابْتِسامِ
وصِرْتُ أشُكُّ فيمَنْ أصْطفيهِ لِعلْمي أنَّهُ بَعْضُ الأنامِ

عجِبْتُ لِمنْ لهُ قَدٌّ وَحَدٌّ وَيَنْبُو نَبْوَةَ القَضِمِ[1] الكَهامِ

وإنا نرى في هذه الأبيات وأمثالها مما جاء في شعر المتنبي صورة من نفسه المضطرمة الطامحة.

ومما يجدر بنا أن نشير إليه في هذا المقام. أن الجانب الرقيق المشوب بالعطف والحنين أو الحنان. ليس بالبارز في الحياة النفسية للمتنبي، وأثره في شعره ليس بالعظيم. ويرجع السبب في هذا إلى حقيقة لها أثر في موضوعنا، وسنعرض عليها حينا من البحث. وهي أن الوجدان ليس هو المظهر القوي الفعال في نفس المتنبي. وليس المتنبي ممن تقتاده العواطف، أو تستهويه المظاهر الرقيقة اللينة: بل الذي يقوده ويملأ أعماق نفسه. هو إرادته الراسخة التي لا تشوبها هوادة، ولا تثنيها العقبات، وفكره الوثاب الذي يهيم به في أودية الحياة ومعانيها.

(٢) وأما جوه الحيوي فمن أظهر ما فيه امتلاؤه بالكفاح والحركة، والتنقل سعيا وراء المجد. والمكانة التي كان يأمل أن ينالها عند الملوك والعظماء الذين اتصل بهم. وغايته في سعيه تنتهي إلى مطامعه الخاصة، فلم يكن يسعى لإقرار حق عام، أو لمثل أعلى إنساني، بل كان أشبه بطلاب المناصب، يحط الرحال حيث تطيب الإقامة، وتُنال الحظوة، وتلوح بوارق الظفر بمطلبه، ثم لا يلبث أن يتحول إذا نبا به المكان، أو تجهمت له أحداث الزمن.

ولا يعزب عن البال أنه لم يكن يسلك لتحقيق مطالبه سبيل الاستكانة أو المهانة، بل كان الاعتداد بالنفس والأنفة والترفع عن الصغائر وعلو الهمة، يحفزه في حله وترحاله.

---

(١) السيف المفلل.

ولا نغفل عن حقيقة أخرى فى حياة المتنبى ، وهى أنه لم يكن له حظ من عراقة الحسب أو النسب يتمدح به ، أو نصيب من الفخر بالعزة القومية أو الوطنية يتعلعل فى نفسه . فلم يكن وطنه إلا المكان الموافق ، وإن عزّ هذا فظهر الجواد :

غَنِىٌّ عَنِ الأَوْطَانِ ، لاَ يَسْتَخِفُّنِى إِلَى بَلَدٍ سَافَرْتُ عَنْهُ ـ إِيَابُ

وَمَا بَلَدُ الإِنْسَانِ غَيْرُ المُوَافِقِ وَلاَ أَهْلُهُ الأَدْنَوْنَ غَيْرُ الأَصَادِقِ

أَعَزُّ مَكَانٍ فِى الدُّنَا ظَهْرُ سَابِحٍ وَخَيْرُ جَلِيسٍ فِى الزَّمَانِ كِتَابُ

تُبَدِّلُ أَيَّامِى وَعَيْشِى وَمَنْزِلِى نَجَائِبُ لاَ يُفْكِرْنَ فِى النَّحْسِ وَالسَّعْدِ

وخلو حياة المتنبى من الاعتزاز بوطن أو بأهل أو عشيرة ، جعل قلبه خلوا من عواطف الحنين إلى الأوطان أو الأهل ، وحرمه غذاء وجدانيا خصبا . ولسنا الآن بصدد البحث فيما عسى أن يكون من أسباب لعدم تمدح المتنبى بقوميته ، وهل للشك فى أصله العربى وإثبات أنه قرمطى شأن فى هذا ؟ ندع هذا البحث جانبا فليس موضوعنا . وحسبنا فيما نحن بصدده أن نصل إلى الحقيقة التى نلمحها فى شعر المتنبى وفى حياته ، وطفولته وشبابه وكهولته ، وهى أنه لم يكن له حظ عظيم من جانب المحبة والتمتع بها ، سواء أكانت هذه المحبة للأسرة ، أم للوطن ، أم للخير العام ؛ ولم يكن فى حبه إنسانيا بل أنانيا ، لا يعتد بغير نفسه ، ولا يسعى لغير مطامعه .

ولهذا كانت العواطف التى تركز حول المحبة وتنبع منها ضعيفة فى نفس المتنبى ، وقد حل محلها الشق الثانى الذى تركز عليه العواطف ، وهو جانب الكراهية ، فالأساس العام للعواطف هو محبة وكراهية . ولو أن جانب الكراهية فى المتنبى اتجه للإنسانية وما يصيبها ، لكان ذلك داعياً إلى أن تنمو فى نفسه عواطف نبيلة فى هذه الناحية ، ولكن الكره لم يكن موجها إلا لما يعترض مطامعه من العقبات ، ولمن يراه دون همته من بنى الإنسان ، وكلهم فى زعمه دون ذلك ؛ فهو القائل :

أىَّ محلٍّ أرتقى أىَّ عظيمٍ أتّقى
وكلُّ ما قد خلقَ الـلّهُ وما لم يخلقِ
محتقرٌ فى همّتى كشعرةٍ فى مفرقى

* * *

من هذا يتضح أن الجو النفسى والحيوى للمتنبي تغمره المطامع، ويسيطر عليه الفكر، وتحفزه الإرادة، وأنه لم يكن له ذلك القلب الطروب، ولا الوجدان الرقيق الساطع فى سماء عقله. ويظهر أن مطامعه، واعتداده بنفسه، وميله إلى الحرية التى درج عليها فى البادية ـ كل أولئك قد شغله عن الحياة المرحة، ومال به إلى الجد والتفكير الفلسفى، وصوغ الحكم الحيوية فى الزمان وأهله، ولم يدع فى قلبه مكانا هادئاً تجد فيه مسرات الحياة موئلا.

* * *

وإنا على هذا الأساس النفسى والحيوى للمتنبى، نستطيع أن نركز البحث فى خياله.

وأول ما نتجه إليه فى هذا الصدد، هو المادة التى كان يركب منها أخيلته. وواضح أنها إنما تنبع من تجاربه، وما غمر حياته، وماجاشت به نفسه، وما اجتذب مطامعه، وما اتجهت إليه حواسه، وما اكتسب باطلاعه.

وأكثر ما صاغ فيه المتنبي أخيلته يرجع إلى:

الحرب وما يتصل بها. والسماء وكواكبها، والسحب والأمطار والبحار، والإغداق والحرمان، والخصب والجدب، والقيادة والهمة، والفتك ومغالبة الحوادث. وإلى جانب ذلك نرى طائفة قليلة من المظاهر التى تمتُّ بصلة إلى الجمال والسرور والحلى وما إلى ذلك. ولا تبرز هذه المادة الأولية لأخيلة المتنبي خالصة مجردة، بل تمتزج بها عناصر الإغراق والمبالغة. وتتغلغل فيها أحياناً المقابلات التكبيرية والتصغيرية، وما فيها من نظام حسابى، إلى غير ذلك مما ستراه.

نتجه بعد هذا إلى البحث فى النظام الذى كان يتبعه المتنبى فى صوغ أخيلته من المواد المتقدمة ، وإلى تعرف القائد الذى كان يخضع له فى ذلك ، أهو الفكر أم الوجدان ؟

* * *

ولعلنا بعد ما أوضحنا لا نشك فى أن الذى يقود المتنبى فى تكوين أخيلته إنما هو الفكر : أما الوجدان فليست له إلا جولات قليلة فى خيله بل فى حياته عامة ، فهو كما رأينا لم يكن فى حياته العقلية والحسية ممن يستسلمون للوجدان . ولم تكن انفعالاته النفسية وتموجاتها الوجدانية موجهة توجيها لينا رقيقا نحو جمال المظاهر أو رشيق المناظر ، أو نحو العواطف المقرونة بالحنان ، والرفق ، والصداقة ، والوداعة ، والمواساة ، ولين الجانب ، والدعة ، والنسيب ، والتشبيب : أو نحو آلام تحيق بغيره فتهتز لها عواطفه أسى ، أو نحو الطرب بنعيم الحياة ومسراتها . لم يكن هذا الجانب هو البارز فى حياة المتنبى لما أوضحناه ، بل كان الذى يملأ قلبه هو مطامحه البعيدة ، وآماله الواسعة ، وهمته القوية . أرأيت لو تصورنا المتنبى حين يخلو بنفسه ، ويطلق العنان لطبعه ـ أ كنا نراه مطرقا سابحا فى هواجسه ، مستسلما للواعج الشجون ، مفكرا فى آلام بنى الانسان ، مستضيئا بمثل أعلى يحققه للإنسانية أو للخير العام ؟ لعلنا لا نتصوره على هذه الحال ، بل نتصوره وقد تحفزت همته ، وغلت مراجل مطامعه ، ونرى القلب الطموح ، والهمة الوثابة ، التى تحاول أن تتخذ نفقا فى الأرض أو سلما فى السماء ، وأن تحلق فتزاحم الكواكب فى أبراجها ، أو تنقض فتقتنص ما نال بنو الإنسان ، ما لم تشأ الأقدار أن تمكن له فيه ـ نتصور نفسا يصدق فيها قول البارودى :

سواى بتحنان الأغاريد يطرب   وغيرى باللذات يلهو ويلعب

وما أنا ممن تأسر الخمر لبه   ويملك سمعيه اليراع المثقب

ولكن ، أخو هم ، إذا ما ترجحت   به سورة نحو العلا راح يدأب

فالذى يقوده فى حياته هو إرادته وفكره ، والذى يقوده فى خيله فى أكثر الأحوال هو الفكر ؛ ولهذا نجد أكثر أخيلته خلوا من العنصر الوجدانى ، ومن

التموجات العاطفية ، وهى فى كثير من نواحيها كالتعادل الرياضى فى الكم ، والصغر والكبر ، والطول والقصر ، أو كالتنسيق الهندسى فى عمل الأشكال من خطوط أو مساحات . أو كالتكوين العلمى فى مزج الألوان واستعراض المتقابل منها ، والمؤتلف والمختلف ، واللامع والمظلم . وقد تشوب هذه الأخيلة فكرة التناسب الحسانى بين شيئين أو أربعة تتقابل على التناظر . فهو فى تخيله مفكر على النسق الهندسى أو الرياضى أو العلمى .

هذا ما نجده فى طائفة ضخمة من أخيلته .

على أنا لا نبغى أن نجرد المتنبى من الوجدان . فهو مظهر من مظاهر الشعور المعروفة فى علم النفس ، ولا يخلو منه إنسان .

وللمتنبى طائفة من الأخيلة عليها مسحة ظاهرية من رقة الوجدان ، ولكن هذا ليس طبعه الشامل أو الغالب ، بل هو صناعة وتكلف ، وليس صادرا عن شعور وجدانى تفيض به نفسه .

وسنعرض لإيضاح ذلك ، بالإشارة إلى أظهر أنواع الخيال التى جادت بها قريحته ؛ لنعرف كنهها ونسجها .

* * *

(١) أخيلته فى الحرب وما يتصل بها :

ولعل هذا النوع من أضخم ما أنتجه المتنبى . وفيه تتصور أدوات الحرب ، وميدان القتال . وما فيه من فتك ودماء تسيل ، فتطغى على الأنهار والبحار . وهامات تتطاير ، وسماء تمطر الموت . ونرى الغبار وقد تلبد ولمعت فيه السيوف ، ونرى الأسنة ترتوى بالدماء ، وتبحث عن مهج الأعداء .

وفى خلال كل ذلك نلمح همة المتنبى ، وهى همة القائد يخوض بحار الموت . ونروى سيفه من القلوب والأعناق ، ونحس أيضا ذلك الخلق الذى يملأ قلبه . وهو الميل إلى التعالى والسيطرة ، وتسنم هامة المجد ، وذلك المظهر الضخم المشوب بالعظمة .

وأخيلة المتنبي في الحرب أنواع :

١ – فمنها ما يشعر بحركة الجيوش والفرسان ، وذلك مثل :

فِي فَيْلَقٍ مِنْ حَدِيدٍ، لَوْ قَذَفْتَ بِهِ صَرْفَ الزَّمَانِ ـ لَمَا دَارَتْ دَوَائِرُهُ

فَخَاضَ بِالسَّيْفِ بَحْرَ الْمَوْتِ خَلْفَهُمُ وَكَانَ مِنْهُ إِلَى الْكَعْبَيْنِ زَاخِرُهُ

وَبِيضٍ مُسَافِرَةٍ ، مَا يُقِمْــنَ ، لاَ فِي الرِّقَابِ، وَلاَ فِي الْغُمُودِ

يَقُدْنَ الْفَنَاءَ غَدَاةَ اللِّقَاءِ إِلَى كُلِّ جَيْشٍ كَثِيرِ الْعَدِيدِ

قَوْمٌ إِذَا أَمْطَرَتْ مَوْتاً سُيُوفُهُمُ حَسِبْتَهُمْ سُحُباً جَادَتْ عَلَى بَلَدِ

وقد يمتزج هذا بالتعالى ومغالبة الحوادث مثل :

وَلَوْ بَرَزَ الزَّمَانُ إِلَيَّ شَخْصاً لَخَضَّبَ شَعْرَ مَفْرِقِهِ حُسَامِي

أو بالمبالغة المشوبة بالاستجداء مثل :

إِذَا مَا ضَرَبْتَ الْقِرْنَ[١] ثُمَّ أَجَزْتَنِي فَكِلْ ذَهَباً لِي مَرَّةً مِنْهُ بِالْكَلْمِ[٢]

أو بمسحة من الغزل مثل :

يُفَرِّقُ مَا بَيْنَ الْكُمَاةِ وَبَيْنَهَا بِطَعْنٍ يُسَلِّي حَرُّهُ كُلَّ عَاشِقِ

وقد حاول فى خلال ذلك إظهار التململ من ويلات الدهر ، ولكنه تململ الكبر والعظمة ، أو الاستهانة بالآلام ، مثل قوله :

رَمَانِي الدَّهْرُ بِالْأَرْزَاءِ ، حَتَّى فُؤَادِي فِي غِشَاءٍ مِنْ نِبَالِ

فَصِرْتُ إِذَا أَصَابَتْنِي سِهَامٌ تَكَسَّرَتِ النِّصَالُ عَلَى النِّصَالِ

ونراه حين يذكر الشيب لا يريد أن يذعن بأنه نذير للتغلب ، وعلامة للضعف والانهزام : بل يذكر له ما يقارعه ويغالبه ، وهو السيف فى قوله :

(١) كفء الرجل فى شجاعته .

(٢) الجرح .

ضَيْفٌ أَلَمَّ بِرَأْسِي غَيْرَ مُحْتَشِمٍ   السَّيْفُ أَحْسَنُ فِعْلاً مِنْهُ بِاللِّمَمِ

ب — ومنها المظاهر اللونية مثل :

وَعَلَى التُّرَابِ مِنَ الدِّمَاءِ مَجَاسِدٌ[1]   وَعَلَى السَّمَاءِ مِنَ الْعَجَاجِ مُسُوحُ[2]

مُبَرْقِعِي خَيْلِهِمْ بِالْبِيضِ، مُتَّخِذِي   هَامِ الْكُمَاةِ عَلَى أَرْمَاحِهِمْ عَذَبَا[3]

وَبِأَرْعَنٍ[4] لَبِسَ الْعَجَاجَ إِلَيْهِمُ   فَوْقَ الْحَدِيدِ، وَجَرَّ مِنْ أَذْيَالِهِ

يَعَافُ خِيَامَ الرَّيْطِ فِي غَزَوَاتِهِ   فَمَا خَيْمُهُ إِلاَّ غُبَارُ حُرُوبِ

وقد يمزج ذلك بشىء من الرقة مثل :

وَلاَ تَرِدُ الْغُدْرَانَ إِلاَّ وَمَاؤُهَا   مِنَ الدَّمِ كَالرَّيْحَانِ تَحْتَ الشَّقَائِقِ

وَعَجَاجَةٍ تَرَكَ الْحَدِيدُ سَوَادَهَا   زِنْجًا تَبَسَّمُ، أَوْ قَذَالاً شَائِبَا

وقد يمزج هذا بالتجانس التناسبى بين شيئين أو أكثر مثل :

إِذَا صَرَفَ النَّهَارُ الضَّوْءَ عَنْهُمْ   دَجَا لَيْلاَنِ : لَيْلٌ وَالْغُبَارُ

وَإِنْ جُنْحُ الظَّلاَمِ انْجَابَ عَنْهُمْ   أَضَاءَ الْمَشْرَفِيَّةُ وَالنَّهَارُ

يَشُقُّ بِلاَدَ الرُّومِ وَالنَّقْعُ أَبْلَقٌ   بِأَسْيَافِهِ، وَالْجَوُّ بِالنَّقْعِ أَدْهَمُ

تَعَرَّضُ لِلزُّوَّارِ أَعْنَاقُ خَيْلِهِ   تَعَرُّضَ وَحْشٍ خَائِفَاتٍ مِنَ الطَّرْدِ

ج — ومنها ارتواء السيوف ونحوها مثل :

---

(١) جمع مجسد ، وهو المصبوغ بالزعفران .

(٢) المسح : الثوب الأسود من الشعر .

(٣) العذبة : هى الريش فى طرف الرمح .

(٤) الجيش العظيم .

رَيَّان لَوْ قَذَفَ الَّذِى أَسْقَيْتَهُ لَجَرَى مِنَ الْمُهَجَاتِ بَحْرٌ مُزْبِدُ

غذا الهِنْدُوانِيَّاتِ بِالْهَامِ وَالطُّلَى فَهُنَّ مَدارِيهَا . وَهُنَّ الْمَخانِقُ (١)

كَمْ مِنْ دَمٍ رَوِيَتْ مِنْهُ أَسِنَّتُهُ وَمُهْجَةٍ وَلَغَتْ فِيهَا بَوَاتِرُهُ

وقد يمتزج بعض الأنواع السابقة ببعض ، مثل :

تَبْكِى عَلَى الْأَنْصُلِ الْغُمُودُ إِذَا أَنْذَرَهَا أَنَّهُ يُجَرِّدُهَا

ولعلنا نلمح فى هذا النوع من الخيال ميل المتنبى إلى الإقدام والتصوير النظرى ، فخياله فى هذا عضلى نظرى . وليس فيه من رشاقة الوجدان و رقة العواطف إلا مسحة طفيفة صناعية .

(٢) أخيلته المستمدة من السماء والكواكب :

وأخيلته من هذا النوع سهلة التكوين ، فهى لاتخرج عن : الإضاءة وأثرها ، والأوضاع الضوئية ، والمظاهر المكانية للكواكب فى الارتفاع والانخفاض ، والظهور والاختفاء ؛ والتصورات الشكلية . وإليك أمثلة من هذه الأنواع :

ا — فمن الإضاءة وأثرها وأوضاعها قوله :

فَلاَ زَالَتِ الشَّمْسُ الَّتِى فِى سَمَائِهِ مُطَالِعَةَ الشَّمْسِ الَّتِى فِى لِثَامِهِ

وَلا زَالَ تَجْتَازُ الْبُدُورُ بِوَجْهِهِ فَتَعْجَبُ مِنْ نُقْصَانِهَا وَتَمَامِهِ

يَزُورُ الْأَعادِى فِى سَماءِ عَجَاجَةٍ أَسِنَّتُهُ فِى جَانِبَيْهَا الْكَوَاكِبُ

كَالْبَدْرِ ، مِنْ حَيْثُ الْتَفَتَّ رَأَيْتَهُ يُهْدِى إِلَى عَيْنَيْكَ نُوراً ثَاقِبَا

(١) الهندوانى : السيف . الطلى : الأعناق . المدارى :جمع مدرى ، وهو مايفرق به الشعر . المخانق : قصار القلائد .

وَكُنْتَ الشَّمْسَ تَبْهَرُ كُلَّ عَيْنٍ فَكَيْفَ وَقَدْ بَدَتْ مِنْهَا اثْنَتَانِ؟

كَالشَّمْسِ فِى كَبِدِ السَّمَاءِ، وَضَوْءُهَا يَغْشَى الْبِلَادَ مَشَارِقًا وَمَغَارِبَا

كَثُرَتْ حَوْلَ دِيَارِهِمْ لَمَّا بَدَتْ مِنْهَا الشُّمُوسُ، وَلَيْسَ فِيهَا الْمَشْرِقُ

وقد يمزج هذا بشئ من الغزل مثل:

كَأَنَّ نِقَابَهَا غَيْمٌ رَقِيقٌ يُضِئُ بِمَنْعِهِ الْبَدْرَ الطُّلُوعَا

تَجْنِى الْكَوَاكِبَ مِنْ قَلَائِدِ جِيدِهِ وَتَنَالُ عَيْنَ الشَّمْسِ مِنْ خَلْخَالِهِ

رَأَتْ وَجْهَ مَنْ أَهْوَى بِلَيْلٍ عَوَاذِلِى فَقُلْنَ: نَرَى شَمْسًا وَمَا طَلَعَ الْفَجْرُ!

أو ببعض الحقائق العلمية مثل:

تَكَسَّبُ الشَّمْسُ مِنْكَ النُّورَ طَالِعَةً كَمَا تَكَسَّبَ مِنْهَا نُورَهُ الْقَمَرُ

ب — الأوضاع المكانية للكواكب:

وكثيرا ما يمزج هذا بالعظمة والتسامى. وكأن رفعة الكواكب فى أبراجها تثير فيه الميل إلى السمو. فيحاول أن ينافسها ويساميها فى علوها، بل يتصور أنه طاولها فكانت دون همته أو تحت أقدامه، انظر إلى قوله:

وَعَزْمَةٌ بَعَثَتْهَا هِمَّةٌ، زُحَلٌ مِنْ تَحْتِهَا بِمَكَانِ التُّرْبِ مِنْ زُحَلِ

فَقَالُوا: هَلْ يُبَلِّغُكَ الثُّرَيَّا؟ فَقُلْتُ: نَعَمْ إِذَا شِئْتُ اسْتِفَالَا[1]

غَرَبَ النُّجُومُ فَغُرْنَ دُونَ هُمُومِهِ وَطَلَعْنَ — حِينَ طَلَعْنَ — دُونَ مَنَالِهِ

أَتَتْرُكُنِى وَعَيْنُ الشَّمْسِ نَعْلِى فَتَقْطَعَ مِشْيَتِى فِيهَا الشِّرَاكَا!

---

(١) أى تسفلا ونزولا عما بلغته.

جـ – ظهور الكواكب واختفاؤها :

ومن ذلك قوله :

مازلتَ تدنُو وَهْيَ تعلُو عِزَّةً   حَتَّى توارَى فِى ثرَاهَا الفَرْقَدُ

مَا كُنْتُ أحْسَبُ قَبْلَ دَفْنِكَ فى الثَّرَى   أنَّ الكوَاكِبَ فِى التُّرَابِ تَغُورُ

طَلَعْنَ شُمُوساً ، وَالغُمُودُ مَشارِقٌ   لَهُنَّ ، وَهاماتُ الرِّجالِ مَغَارِب

د – المظاهر الشكلية :

وهذا قليل فى أخيلته ، ومنه :

صِلةُ الهَجْرِ لِى وَهَجْرُ الوِصَالِ   نكَسَانِى فِى السُّقْمِ نُكْسَ الهِلالِ

هـ – وهناك أخيلة فى حركة الكواكب وبطئها ، مثل قوله :

النَّوْمُ بَعْدَ أبِى شُجَاعٍ نَافِرٌ   وَاللَّيْلُ مُعْىٍ ، وَالكوَاكِبُ ظُلَّعُ

مَا بالُ هَذِى النُّجُومِ حَائِرَةً   كأنَّهَا العُمْىُ مَا لهَا قَائِدْ ؟

ومن هذا نرى أن أخيلته من هذا النوع ليست بعيدة المنال ، أو عميقة التصور ، فهى لا تعدو التصورات السهلة للأجرام المضيئة فى أوضاعها وحركاتها ، فى الظهور والاختفاء ونحو ذلك ، وليس هناك من العناصر الرقيقة ، أو التصورات الوجدانية الرشيقة ، شىء يدل على عمق الابتكار .

(٣) أخيلته فى الغزل ومظاهر الجمال والتحلى :

وهذا النوع هو محك وجدان المتنبى ، وميزان عواطفه ، ومقياس للجانب الرقيق من نفسه ، فاذا كان لوجدانه مجال للظهور والعمل ، فهذا ميدانه . فلننظر إلى ما دبجت قريحته من ذلك .

يتصل معظم أخيلته الغزلية ببعض أوصاف الجسم وبالنحول ، وبالدموع وملوحتها ، وكثرتها ، وامتزاجها بالدم ؛ وتصوره للجمال مستمد من الشمس والبدر ،

والصباح وبياضه ، والليل وسواده ، والأغصان ورائحة الرياض . وسهام العيون.

وهو فى ذلك يرسم مظاهر صناعية ، لا تنم عن وجدان صادق ، أو حب خالص ، أو قلب له من الغزل الرشيق نصيب .

وكذلك الشأن فى أخيلته فى الدموع أو النحول ، لا نلمح فيها الرشاقة المتموجة ، أو الرقة القلبية المترنحة ، على أنا لا ننكر ما فى بعضها من دقة التصور ، وجودة الصناعة.

وما كنا نرقب من المتنبي غير هذا ، وحياته لم يكن فيها مجال للحب أو الهيام . ورأيه فى الغوانى ينطق به قوله :

وَمَنْ خَبَرَ الْغَوَانِى فالْغَوَانِى ضِيَاءٌ فِى بَوَاطِنِهِ ظَلَامُ

فأخيلته الغزلية لا يقودها وجدان ولا عواطف ، وإليك أمثلة منها :

عَمْرَكَ اللهَ ! هَلْ رَأَيْتَ بُدُوراً طَلَعَتْ فِى بَرَاقِعٍ وَعُقُودِ

رامِيَاتٍ بِأَسْهُمٍ ، رِيشُهَا الْهُدْ بُ ، تَشُقُّ الْقُلُوبَ قَبْلَ الْجُلُودِ ؟

بِفَرْعٍ يُعِيدُ اللَّيْلَ ، وَالصُّبْحُ نَيِّرٌ وَوَجْهٍ يُعِيدُ الصُّبْحَ ، وَاللَّيْلُ مُظْلِمُ

وَذَكِيُّ رَائِحَةِ الرِّيَاضِ كَلَامُهَا تَبْغِى الثَّنَاءَ عَلَى الْحَيَا فَتَفُوحُ

غُصْنٌ عَلَى نَقَوَىْ[1] فَلَاةٍ نَابِتٌ شَمْسُ النَّهَارِ تُقِلُّ لَيْلاً مُظْلِمَا

سَفَرَتْ ، وَبَرْقَعَهَا الْفِرَاقُ بِصُفْرَةٍ سَتَرَتْ مَحَاجِرَهَا ، وَلَمْ تَكُ بُرْقُعَا

فَكَأَنَّهَا ـ وَالدَّمْعُ يَقْطُرُ فَوْقَهَا ـ ذَهَبٌ بِسِمْطَىْ لُؤْلُؤٍ قَدْ رُصِّعَا

وَضَفَرْنَ الْغَدَائِرَ لَا لِحُسْنٍ وَلَكِنْ خِفْنَ فِى الشَّعَرِ الضَّلَالَا

وَخَصْرٌ تَثْبُتُ الْأَبْصَارُ فِيهِ كَأَنَّ عَلَيْهِ مِنْ حَدَقٍ نِطَاقَا

---

(١) تثنية نقا . وهو الكثيب من الرمل . يريد الردفين . ويريد بالغصن القامة .

وفتانةَ العينين قتالةَ الهوى ... إذا نفحت شيخًا روائحُها ـ شبّا
لها بشرُ الدرِّ الذى قُلِّدَت به ... ولم أرَ بدرًا قبلها قُلِّدَ الشُّهُبا

وقد امتزج خياله الغزلى بمظهر على فى قوله:

أدرن عيونًا حائرات، كأنها ... مركّبةٌ أحداقها فوق زئبقِ

ومن أخيلته فى الدموع قوله:

أوما وجدتم فى الصَّراة ملوحةً ... مما أرقرق فى الفرات دموعى؟
إن كنتِ ظاعنةً فإنّ مدامعى ... تكفى مزادكمُ، وتروى العيسا
وكلما فاض دمعى غاض مصطبرى ... كأنّ ما سال من جفنىَّ من جلدى
بللتُ بها رُدْنِىَّ، والغيمُ مسعدى ... وعبرتُهُ صِرفٌ، وفى عبرتى دمُ
ولو لم يكن ما انهلّ فى الخدِّ من دمى ... لما كان محمرًّا يسيلُ فأسقمُ

ومنها فى نحول الجسم قوله:

وخيالُ جسمٍ لم يُخَلِّ له الهوى ... لحمًا، فيُنحلَهُ السّقامُ، ولا دما
بجسمى من برته، فلو أصارت ... وشاحى ثقبَ لؤلؤةٍ لجالا
ولولا أننى فى غير نومٍ ... لكنتُ أظنُّنى منى خيالا

وأخيلته المستمدة من مظاهر التحلى هى أقرب إلى دقة الوصف منها إلى الرقة.
انظر إلى قوله:

وقد خفى الزمانُ به علينا ... كسلكِ الدرِّ يخفيه النظامُ
نثرتهمُ فوق الأحيدبِ كلِّه ... كما نثرت فوق العروس الدراهمُ

بِوَادٍ بِهِ مَا بِالْقُلُوبِ ، كَأَنَّهُ ـ وقَدْ رَحَلُوا ـ جِيدٌ تَنَاثَرَ عِقْدُهُ

فهل ترى أخيلته الغزلية تفيض بالوجدان النابض . والعاطفة الرقيقة . والقلب الطروب ؟

لعل القارىء يرى بعد هذا أن المتنبي ليس شاعر الوجدان أو الجمال .

° ° °

(٤) وللمتنبي أمثلة أخرى مبتكرة أو منقولة فى معان شتى . فمن ذلك قوله فى وصف القلم :

نَحِيفُ الشَّوَى ، يَعْدُو عَلَى أُمِّ رَأْسِهِ وَيَحْفَى ، فَيَقْوَى عَدْوُهُ حِينَ يُقْطَعُ

يَمُجُّ ظَلَامًا فِى نَهَارٍ لِسَانُهُ وَيُفْهِمُ عَمَّنْ قَالَ مَا لَيْسَ يُسْمَعُ

ذُبَابُ حُسَامٍ مِنْهُ أَنْجَى ضَرِيبَةً وَأَعْصَى لِمَوْلَاهُ ، وَذَا مِنْهُ أَطْوَعُ

فَصِيحٌ ، مَتَى يَنْطِقْ تَجِدْ كُلَّ لَفْظَةٍ أُصُولَ الْبَرَاعَاتِ الَّتِي تَتَفَرَّعُ

ومن ذلك قوله :

وتَضْحِى الْحُصُونُ الْمُشْمَخِرَّاتُ فِى الذُّرَى وَخَيْلُكَ فِى أَعْنَاقِهِنَّ قَلَائِدُ

مُنْعَلٌ لَا مِنَ الْحَفَا ذَهَبًا يَحْـمِلُ بَحْرًا فِرِنْدُهُ إِزْبَادُهْ

قَدْ سَوَّدَتْ شَجَرَ الْجِبَالِ شُعُورُهُمْ فَكَأَنَّ فِيهِ مُسِفَّةَ [١] الْغِرْبَانِ

وَجَرَى عَلَى الْوَرَقِ النَّجِيعُ الْقَانِى [٢] فَكَأَنَّهُ النَّارَنْجُ فِى الْأَغْصَانِ

ومنها ما استمده من قواعد النحو أو غيره مثل :

إِذَا كَانَ مَا تَنْوِيهِ فِعْلًا مُضَارِعًا مَضَى قَبْلَ أَنْ تُلْقَى عَلَيْهِ الْجَوَازِمُ

كَأَنَّ سَخَاءَكَ الْإِسْلَامُ ، تَخْشَى ـ إِذَا مَا حُلْتَ ـ عَاقِبَةَ ارْتِدَادِ

(١) الغربان التى تدنو من الأرض. (٢) الدم الأحمر.

يتضح من كل ما تقدم أن المتنبي فى أخيلته وأسلوبه فى صوغها ، هو إلى الرسام أقرب منه إلى المصور ؛ والفرق بين الرسم والتصوير أن الرسم تخطيط ، والتصوير تعبير ؛ والرسم نقل . والتصوير ابتكار؛ والرسم تصميم هندسى، والتصوير هو لغة العواطف ، والمعبر عما يجيش فى الخواطر ، و يتغلغل فى نواحى النفس الحساسة ؛ والرسم أقرب إلى العلوم العقلية الهندسية . والتصوير فن جميل . يتجلى فيه وحى الضمائر . وإلهام السرائر ؛ وأساس الأول الفكر والعلم . ودعامة الثانى الوجدان والفن الجميل .

على أنا لا نبغى بهذا أن نغض من شأن الخيال الفكرى ، أو أن نرجح عليه الخيال الوجدانى . فلكل من هذين النوعين مكانته فى عالم البيان . وقد يرى رجال العلم والفلسفة والفكر أن الوجدان ليس بالقائد القوى المكين ، وأن سيطرته على العقل وأعماله تزعزع دعائم الحياة الرصينة ، وأن الشعر الوجدانى ليس إلا نوعا من الترف أو الطرف التى يتسلى بها الناس فى أوقات لهوهم وسرورهم ، وأنه هو ذلك النوع العذب . ولكن أعذبه أكذبه ؛ فقد يلبس الحق بالباطل ، وقد يسوق إلى الهيام فى أودية الغى والضلال . ولعل هذا من الأسباب لما ورد فى الآيات القرآنية الكريمة فى قوله تعالى : (وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ) وقوله تعالى : (وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ . أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ . وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ .)

وقد يقول أرباب الفكر فوق هذا : إن الخيال الفكرى هو النوع الخالد ، الذى لا تغير من ديباجته ورصانته أحداث الزمان وتقلبات النفوس ، ولا تعصف به عواصف العواطف المتقلبة . فالتأثر الوجدانى عرضة للتبدل إذا اختلفت الأمزجة ، وتغيرت الأجواء ، فأثرت فى الطباع ، وتحكمت فى الأهواء ، وما أسرع تقلبات النفس البشرية تبعا للزمان والمكان ! وأما التأثير من ناحية الفكر والخيال الفكرى فهو أبقى وأثبت ما كرّت الأيام .

٭٭٭

وعلى هذا الأساس يرى أنصار المتنبي ـ من رجال الفكر والتنسيق الصناعى ـ فى أخيلته نوعا من حسن الرصف والاتزان ، ويرى فيها علماء البيان من التشبيهات والمحسنات مايسترعى اهتمامهم . ولنا أن نقول : إن المتنبي ـ وإن لم تصادف أخيلته هوى من أنصار الجمال الوجدانى ـ قد نال إعجاب أرباب الفكر ، وإطراء رجال البيان ؛ وهو ـ وإن لم يكن شاعر الخيال الرشيق ، والجمال الوثيق ، والوجدان الرفيق ـ فهو شاعر الهمة العالية . والأمل الضخم ، والحكم الحيوية الخالدة ، والفسفة الاجتماعية الصادقة . وبمثل هذا كتب له الخلود ... !

عبد الحميد حسن



عبارة المتنبي

بين البداوة والعجمة

بقلم محمد عبد الجواد
مدرس فقه اللغة بدار العلوم

المعروف من حياة أبي الطيب العلمية ، أو دراسته - إذا صح هذا التعبير - أمران :

الأول : أنه تعلم القراءة والكتابة ، ولزم أهل العلم والأدب ، ولازم الورّاقين ، واستفاد علمه من دفاترهم ، وأكب على تعلم العربية صبيا ، ونظر فى كتب الفلاسفة والمناطقة ، وأفاد من ذلك كله كثيراً ؛ لما وهب من قوة فى الحافظة .

الثانى : أنه خرج إلى البادية مجاوراً ، وصاحب الأعراب فيها سنين ، فنما فيها خياله ، واتسعت دائرة معلوماته اللغوية والشعرية ، ثم عاد منها بدويا قُحا .

وقد جمع ذلك فى قوله :

فَالْخَيْلُ وَاللَّيْلُ وَالْبَيْدَاءُ تَعْرِفُنى والسَّيْفُ والرُّمْحُ ،والقِرْطَاسُ وَالْقَلَمُ

أو فى الرواية الأخرى :

فَالْخَيْلُ واللَّيْلُ والْبَيْدَاءُ تَعْرِفُنى والحرب والضرب ،والقِرْطَاسُ والْقَلَمُ

وإن أردت أن تعرف نصيب كل من الدراستين السابقتين ، فما عليك إلا أن تنظر إلى ما سرده فى هذا البيت ، حتى تجد أن نصيب الدراسة الثانية ، دراسة البادية ، أوفر فيه من نصيب القرطاس والقلم .

ومما لا شك فيه ، أن مجاورته فى البادية كان لها أثرها فى لغته وشعره ، وما يتبع ذلك عادة من حس وشعور ، وذوق وملاحظة ، فلا بدع حينئذ أن اتخذنا البداوة حدا أعلى لعبارته ، حيث يتجلى فيها كثير من سمات البداوة ، فى ألفاظه ومعانيه .

أما نشأته الحضرية، وما كان بعد رحلته البدوية، من تطوافه فى البلاد، وانتجاعه مغانىَ الملوك، ومخالطة حواشيهم - فلا بد لكل ذلك من أثر فى ظهور طابع الحضارة (أو العجمة) أحيانا فى عبارته؛ ولهذا جعلنا العجمة أو شبهها، من التكلف فى القول، والصناعة فى اللفظ، والالتجاء إلى الالتواء فى الدلالة، حدا أدنى لعبارته.

ويعنينى أن أوجه النظر إلى ما أردته فى العنوان من لفظ «عبارة» قبل الدخول فى الموضوع:

لست أريد بها مايعرف بالأسلوب، وإلا وجب علىّ أن أتعرض له من جميع نواحيه. ولا أريد الألفاظ مجردة عن المعانى، أو العكس، بل أريد معناها العام، حتى أكون فى حل من التعرض أحيانا للفظ، وآونة للمعنى وحده، أو لهما معا. فهى إلمامة عجلى، بما كان للبداوة والحضارة من أثر فى لغة أبى الطيب.

وإنى - قبل أن أشرح أثر البداوة فى لغة شاعرنا، وقبل أن أسرد طرفا من عجمة لغته - أود أن أضع أمام نظر القارىء أمثلة توضح مرادى من العبارة.

(١) قوله من قصيدة يمدح بها كافورا سنة ٣٤٦ هـ:

أَزُورُهُمْ، وَسَوَادُ اللَّيْلِ يَشْفَعُ لِى، وَأَنْثَنِى، وَبَيَاضُ الصُّبْحِ يُغْرِى بِى

فأنت ترى فى هذا البيت، أن هذه الزيارة بدوية، والتفكير بدوى، والمرآى والتمثيل بدوى أيضا، إلا أن الصناعة اللفظية واضحة فيه، من حيث المقابلة.

فمثل هذا البيت جمعت عبارته بين سمات البداوة معنى، وطابَع الحضارة أو العجمة لفظا.

(٢) قوله من قصيدة يمدح على بن إبراهيم التّنوخى:

مُلِثَّ القَطْرِ، أَعْطِشْهَا رُبُوعَا وإلاَّ فاسْقِهَا السُّمَّ النَّقِيعَا...![1]

أُسَائِلُهَا عَنِ المُتَدَيِّرِيهَا، فلا تدْرِى، ولا تُذْرِى دمُوعَا

---

(١) الملث: الدائم المقيم. والربوع: جمع ربع.

فى هذين البيتين فكرة بدوية ، بذكر الربوع ، والغضب عليها ، وسؤالها ، وذكر القطر و الدموع ، الخ : ولكن فيهما من أثر العجمة أو التكلف ، أو الخروج على قواعد النحو والصرف والاشتقاق ، أو الصناعة عامة إبدال الربوع من الضمير فى أعطشها ، أو إعادته عليها متأخرة ، كما فعل فى قوله أيضا :

أُعِيذُهَا نَظَرَاتٍ مِنكَ صادِقةً أن تَحسَبَ الشحمَ فيمَنْ شحمُهُ وَرَمُ !

وفيهما أيضا قوله : المتديرها من حيث الاشتقاق ، والصناعة فى قوله فلا تدرى ولا تذرى من حيث الجناس الناقص .

(٣) قوله من قصيدة يمدح بها بدر بن عمار :

وَمَهْمَهٍ جُبْتُهُ عَلى قَدَمِى تَعجِزُ عَنهُ العَرَامِسُ الذُّلُلُ

بِصَارِمِى مُرْتَدٍ ، بِمَخْبَرَتى مُجْتَزِىءٌ ، بالظَّلاَمِ مُشْتَمِلُ (١)

فهذه عبارة بدوية لفظا ومعنى ، إلا أن البيت الثانى دخلت فيه الصناعة اللفظية من حيث التقسيم .

(٤) قوله من قصيدة قالها فى صباه ، يمدح محمد بن عبد الله العلوى :

لاَ نَاقَتِى تَقْبَلُ الرَّدِيفَ ، وَلاَ بِالسَّوْطِ يَوْمَ الرِّهَانِ أُجْهِدُها

شِرَاكُهَا كُورُها ، ومِشْفَرُها زِمَامُها ، والشُّسُوعُ مِقْوَدُها (٢)

فهذه أيضا عبارة بدوية لفظا ومعنى ؛ وقد تحس فى البيت الثانى شيئا من الصناعة اللفظية ، كما سبق .

---

(١) المهمه : ما بعد من الأرض واتسع . والعرامس : النوق الصلاب الشديدة . جمع عرمس (بكسر فسكون فكسر) . والمخبرة : العلم بالشىء .

(٢) الرديف : من يجلس على الردف خلف الراكب . والشراك : سير النعل ، والكور : الرحل أو بأدواته . والمشفر للبعير : كالشفة للإنسان . والشسوع : جمع شسع (بكسر فسكون) ، وهى سيور للنعل تكون بين خلال الأصابع .

أما بعد : فلنقصد إلى شقى الموضوع . وهما :

(ا) أثر البداوة فى شعر أبى الطيب .

(ب) علائم العجمة فيه .

أولا : لازمت البداوة أبا الطيب فى شعره . فظهر أثرها فيه ، حتى فى آخر سنى حياته ، وفى كثير من قصائده السيارة المهمة . ومن مظاهرها :

(١) استعمال الغريب من الألفاظ .

(٢) وصف الخيل .

(٣) تشبيبه بالبدويات .

(٤) علمه بالحيوان والسباع وطبائعها .

(٥) ما يلازم البدو من الخشونة وقلة الدوق ، أو عدم تحاشى التشبيهات المعيبة ونحوها .

وها نحن أولاء نعرض لكل نقطة من هذه النقط بمُثُل أو بعض المُثُل :

(١) أما استعمال الغريب من الألفاظ فيزعم بعضهم « أن شاعرنا كانت تنتابه من آن لآخر ، نوبة أشبه بالحمى ، يهذى فيها بالغريب ، ويخرج كل ما بقى عالقا منه بنفسه ، فى صورة أرجوزة ، يخفف بها ما كان مرتكزاً على صدره من هذا الحمل الثقيل » ص ٢٧٧ من كتاب أبى الطيب لمحمد كمال حلمى بك .

وصحة القول فى هذا : أن شاعرنا كان من الملمين بغريب اللغة وحوشيها ، من المتوسعين فيها ، المحيطين بمفرداتها وأساليبها ، لما وهب من قوة فى الحفظ ، ولما أثرت فيه مجاورته بالبادية . فالبداوة ، أو غرابة اللفظ ، أصلية فيه ، لاحمى تنتابه ؛ وإنما الذى طرأ على شعره ، وما كان يعتر به حينا بعد حين ، فهو الصناعة فى ألفاظه ، وتكلفه التنزل فى عبارته ، فراراً من عنجهية البداوة ، وخوفا على ممدوحه وسامعيه من صعوبة فهم كلامه . وقد كان كثير منهم من المستعجمين ، الذين كان يرى ضرورة مجاملتهم ، بالتكلف أو التعمل أو التنزل فى العبارة (كما تراه واضحا فى الشق الثانى) .

ولست أظن أن المتنبى ، حين كان يجرى اللفظ الغريب على لسانه ، كان يشعر

به حين ينطق، لأنه عنده من الألفاظ السائغة، كما رأيت فى قوله.

ومهمه جبته على قدمى تعجز عنه العرامس الذلل

ولقد كان أبو الطيب يلجأ للغريب من اللفظ، أو قل يرمى به، فى أحرج المواقف، وفى أمنع مكان من القصيدة. قال من قصيدة يمدح بها كافوراً سنة ٣٤٦ ﻫ أى قبل وفاته بثمان سنوات. هذه الأبيات الثلاثة متعاقبة:

أَبَا المِسْكِ، ذَا الوَجْهُ الَّذِى كُنْتُ تَائِقاً إِلَيْهِ؛ وَذَا الوَقْتُ الَّذِى كُنْتُ رَاجِيَا!

لَقِيتُ المَرَوْرَى، والشَّنَاخِيبَ دُونَهُ، وَجُبْتُ هَجِيراً يَتْرُكُ المَاءَ صَادِيَا!(1)

أَبَا كُلِّ طِيبٍ، لا أَبَا المِسْكِ وَحْدَهُ، وَكُلِّ سَحَابٍ، لا أَخُصُّ الغَوَادِيَا!

فانظر إليه كيف وضع البيت الثانى بين البيتين فى القصيدة، وانظر إلى الشطر الأول منه! ويقول بعضهم: «كيف ضاعت الشطرة الثانية منه، أمام شناخيب الشطرة الأولى؟». ولكن الذى أراه أن الشناخيب لم تؤثر فى البيت تأثير المَرَوْرَى! وأين هذا البيت من قوله فى القصيدة:

إِذَا الجُودُ لَمْ يُرْزَقْ خَلَاصاً مِنَ الأَذَى فلا الحَمْدُ مكسوباً، ولا المَالُ بَاقِيَا

ولكن المتنبى له العذر فى ذلك، فإن الفتى الريفى النشأة، ولو تحضر أو تربى فى بيئة أجنبية، تجد له بوادر من كلامه، تحمل سمات الريف لفظاً وتفكيراً.

(٢) وترى فى هذه القصيدة نفسها، من ملامح البداوة، وصف الخيل التى حملته إلى كافور من قوله:

وَجُرْداً مَدَدْنَا بَيْنَ آذَانِهَا القَنَا فَبِتْنَ خِفَافاً يَتَّبِعْنَ العَوَالِيَا

---

(١) المرورى: جمع مروراه (بفتحتين فسكون) وهى الفلاة الواسعة. والشناخيب: جمع شنخوب، وهى القطعة العالية من الجبل، أو رأس الجبل. والهجير: شدة الحر. والصادى: العطشان. وإسناد العطش للماء مبالغة يسيغها الذوق فى هذا المقام.

كما نجده في كثير من قصائده - حتى في بيته الذي قتله - قد بدأ بذكرها .

(٣) من أوضح آثار التربية البدوية ، في شعر المتنبي وذوقه ، تشبيبه بالبدويات واعتقاده أن الحسن لا يكون إلا فيهن ؛ حتى لقد اتهمه بعضهم في هذا بالتعصب للأعراب . وجعل غرامه بالوحشي المهجور من الألفاظ ، ورغبته عن المألوف المتعارف منها ، نتيجة مرتبة على هذا التعصب .

ولكن لا غرابة في هذا التشبيب ، ولا عجب من تفضيله حسن البدويات ، فإن معيشته البدوية ، وقد كانت في سن بين العشرين والثلاثين ، غرست في نفسه الولع بالبدويات ، دون الحضريات ، وتحكمت في ذوقه من هذه الناحية ، لأن هذا ذوق الشباب ، وهو ذوق يلازم الإنسان حتى شيخوخته ، فإنه يذكر دائماً أيام شبابه ، وألعاب شبابه ، وأوقات شبابه ، ولا ينسى رفقاء شبابه ، ولا يرضى إلا بذوق شبابه . على أن وجوده في البادية هيأ له تلك الفرصة ، دون حياته الحضرية .

ولقد ترى ذلك واضحاً ، في موازنة بين حسن البداوة وحسن الحضارة ، في قصيدته التي قالها يمدح بها كافوراً سنة ٣٤٦ هـ والتي مطلعها :

مَنِ الجَآذِرُ في زِيِّ الأَعارِيبِ ؟ حُمْرُ الحُلَى وَالْمَطَايَا وَالْجَلابِيبِ ! [١]

قال :

ما أَوْجُهُ الحضَرِ الْمُسْتَحْسَنَاتُ بِهِ ، كَأَوْجُهِ الْبَدَوِيَّاتِ الرَّعَابِيبِ [٢] !

حُسْنُ الحضارةِ مَجْلُوبٌ بِتَطْرِيَةٍ ، وَفي الْبَدَاوَةِ حُسْنٌ غَيْرُ مَجْلُوبِ .

أَيْنَ الْمَعِيزُ مِنَ الآرَامِ ناظرةً وَغَيْرَ نَاظِرَةٍ ، في الحُسْنِ والطيبِ [٣] ؟

---

(١) الجآذر : جمع جؤذر ، وهو ولد البقرة الوحشية .

(٢) الرعابيب : جمع رعبوبة ، وهي المرأة الممتلئة البيضاء .

(٣) المعيز : خلاف الضأن ، وهي كل ذات شعر . - الآرام : جمع رئم ، وهو الظبي الخالص البياض .

أَفْدِي ظِبَاءَ فَلَاةٍ ، مَا عَرَفْنَ بِهَا مَضْغَ الْكَلَامِ، وَلَاصَبْغَ الْحَوَاجِبِ

وَلَا بَرَزْنَ مِنَ الْحَمَّامِ مَائِلَةً أَوْرَاكُهُنَّ ، صَقِيلَاتِ الْعَرَاقِيبِ[1]!

وَمِنْ هَوَى كُلِّ مَنْ لَيْسَتْ مُمَوَّهَةً تَرَكْتُ لَوْنَ مَشِيبِي غَيْرَ مَخْضُوبِ.

فأنت ترى بدوية مطلع القصيدة ، وترى فى هذه الأبيات ، تفضيله البدوية لفطرتها وطبيعتها ، وبعدها عن الصنعة فى الحسن والتزويق . كما ترى طابع البداوة فى ألفاظ : (الرعابيب ـ المعيز ـ الآرام ـ ظباء فلاة ـ العراقيب) .

ويحملنى وضع لفظ العراقيب فى موضعه . على التفكير : ماذا يكون الحكم على شاعر أو أديب يصف الآن فتاة جميلة بقوله « ما أحلى كوارعها ! » .

ولست أشك فى أن لفظ العراقيب هنا وحده ، كاف فى التنفير من الحضرية . ولقد يمر الانسان على كلمة المعيز فيقبلها ، ولكنه لا يسيغ لفظ العراقيب ، ولا يود أن يرى هذه العراقيب ، مهما كانت صقيلة أو مخضبة .

(٤) إن من يعيش فى البادية ، لا يرى له أنيسا ـ بعد أخيه الإنسان ـ إلا جمله وكلبه ، وإلا ما يراه من الحيوان المستأنس وغيره . وقد تتهيأ له الفرص الكثيرة لمراقبته ودراسة طبائعه ، وحشيا أو مستأنسا ، فيتخذ منه مثل الجمال ، والفضائل والرذائل ، ويجرى ذكره على لسانه ؛ ولهذا لا يستغرب من أبى الطيب كثرة ذكره للحيوان فى قصيده ، وأقرب الأمثلة إلينا الآن ، القصيدة السابقة ، فقد جرى فيها ذكر الحيوان فى المواضع الآتية :

مَنِ الْجَآذِرُ فِى زِىِّ الْأَعَارِيبِ ؟ حُمْرُ الْحُلَى وَالْمَطَايَا وَالْجَلَابِيبِ !

لَا تَجْزِنِى بِضَنًى بِى بَعْدَهَا بَقَرٌ تَجْزِى دُمُوعِى مَسْكُوبًا بِمَسْكُوبِ

كَمْ زَوْرَةٍ لَكَ فِى الْأَعْرَابِ خَافِيَةٍ أَدْهَى ، وَقَدْ رَقَدُوا ، مِنْ زَوْرَةِ الذِّيبِ

قَدْ وَافَقُوا الْوَحْشَ فِى سُكْنَى مَرَاتِعِهَا وَخَالَفُوهَا بِتَقْوِيضٍ وَتَطْنِيبِ

(١) العراقيب : جمع عرقوب ، وهو ما يكون عند الكعب .

أين المعيز من الآرام ناظرةً، وغير ناظرةٍ في الحسن والطيب؟
أفدي ظباء فلاةٍ ما عرفن بها مضغ الكلام ولا صبغ الحواجيب.
فتن المهالك، حتى قال قائلها: ماذا لقينا من الجرد السراحيب؟[1]

ومن الأمثلة قوله من قصيدة يمدح محمد بن سيار بن مكرم التميمي:

أذمُّ إلى هذا الزمان أُهيلَه، فأعلمهم فدمٌ، وأحزمهم وغد
وأكرمهم كلبٌ، وأبصرهم عمٍ، وأسهدهم فهدٌ، وأشجعهم قرد
ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى عدواً له، ما من صداقته بدُّ

فتراه في البيت الثاني بدويا قحا، ذكر ثلاثة من الحيوان، مشيرا إلى طبائعها فقال: إن أكرمهم في خسة الكلب. وأسهدهم فهد. والفهد يضرب به المثل في النوم، فيقال: أنوم من فهد: وأشجعهم قرد؛ لأنه يضرب به المثل في الجبن، حتى إنه يقال: إن القرد لا ينام إلا وفي كفه حجر لشدة الفزع، ولا ينام الليل حتى يجتمع إليه كثير منهن.

أما البيتان (الأول والثاني) فأنت تراه فيهما رجلا اجتماعيا، خبر الزمان وبلا أهله، ودرس طباعهم، واطلع على خبايا نفوسهم. ولكنه علم أن لا مفر من صحبتهم، على عداوتهم.

وانظر إليه لماذا صغر أهيله في البيت الأول. وقد تعثر بمثل هذا التصغير كثيرا في كلامه.

(٥) ومن آثار البداوة في شعر المتنبي، تكنيته بالحيوان، كقوله من قصيدة كتبها بعد أن بعث إليه سيف الدولة يستدعيه:

---

(١) الجرد: الخيل الضوامر التي ليس لها شعر. والسراحيب: جمع سرحوب وهي الفرس الطويلة.

وَمَنْ رَكِبَ الثَّوْرَ بَعْدَ الْجَوا ... دِ، أَنْكَرَ أَظْلَافَهُ والغَبَبْ![1]

يريد بالثور كافورا، وبالجواد سيف الدولة، ولا ريب فى أن تشبيه الملوك بالحيوان مما ينبو عنه الذوق، ولكنها آثار البداوة تلح عليه فى ذلك.

(٦) وباطلاعك على سائر أبيات القصيدة، تعثر فيها بالكلمة، التى يضربها علماء البلاغة مثلا للفظ المستكره، وهى الجرشى فى قوله:

مُبَارَكُ الاسْمِ، أغَرُّ اللَّقَبْ ... كَرِيمُ الْجِرِشَّى شَرِيفُ النَّسَبْ[2]

ويلحظ أن لفظ الجرشى مهما وصف بالكرم، فان استكراهه يغنى عن نعوته ومعناه.

إلى هنا قد استعرضنا بعض آثار البداوة فى شعر أبى الطيب، وهو الشق الأول من الموضوع. ووجب أن نبدأ بالكلام على الشق الثانى منه.

ثانيا: علائم العجمة فى شعر أبى الطيب:

لعلك أدركت ما أريده بالعجمة، بعد وضعها فى مقابلة لبداوة، وبعد مامر بك من الأمثلة، فلست الآن فى حاجة إلى أن أقول: إذا كانت البداوة من شأنها الوضوح فى التعبير عن المراد، بقدر المطلوب من لفظ بين، لا تعقيد فيه ولا صناعة ولا تكلف، ولا خروجا عن المألوف من قواعد اللغة والإعراب. فان العجمة تكون بالتقصير فى ناحية من هذه النواحى.

وليس من المستطاع استقصاء كل ما جاء بشعر أبى الطيب من هذه العلائم، على الرغم من كثرة الجيد فى شعره. ولكنا نختار بعض الأبواب التى توضح ما نريد من هذه الدراسة.

ولقد غالى بعضهم فى وصف هذه الناحية من شعر المتنبى، فعد كلامه منظوما نازلا عن درجة الشعر، كما قال ابن خلدون مثلا، كما وصفه بعضهم بأنه كان قائد عسكر، يهجم على ما يريده، لا يبالى ما لقى ولا حيث وقع، كما ذكر صاحب

(١) الأظلاف: جمع ظلف، وهو للبقرة والشاة والظبى بمنزلة القدم للإنسان. الغبب: ما تدلى تحت حنك البقرة. (٢) الجرشى: النفس.

العمدة والصبح المنبى : هذا إلى ما جاء فى العرف الطيب ، من أنه كان يكثر من التحرى والتطلب فى ألفاظه ومعانيه ، حتى غلب قريحته صنعه وبادرته تكلفه ، وكان فى أراجيزه يقصد محاكاة البدو ، فجاء كل ما له من هذا النوع معقدا . جافى اللفظ والتركيب . . . إلى آخر ما قيل .

وليس يعنينا سرد ما قيل فى شعره . ولكن المهم هو وقوع شىء من هذا فى كلامه ، فحسب أن نشير إلى اليسير من ذلك بالتمثيل . للموازنة بين شقى الموضوع .

ولعلنا نوفق فى ترتيب نقط هذا الشق على النحو الآتى :

(١) وورود الألفاظ غير العربية فى شعره .

(٢) تكرار اللفظ مرارا فى البيت .

(٣) الإكثار من ذكر اسم الإشارة (ذا) .

(٤) التعقيد المعنوى ، أو التراكيب المعقدة .

(٥) الركاكة والسفسفة بألفاظ السوقة ومعانيهم ، أو الهجاء المقذع بالألفاظ المكشوفة .

(٦) العسف فى اللغة والإعراب .

وهاك شيئا من الأمثلة التى توضح هذه النقط :

(١) عاش أبو الطيب فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى . وهو عصر الانحطاط السياسى ، وعصر الولاة المستعجمين ، الذين تقسموا رقعة ذلك الملك الواسع ، دويلات صغيرة . تحوطها دائرة الإسلام ، وتربطها رابطة التوحيد

(وتفرقوا شيعا ، فكل محلة) فيها أمـــير المؤمنين ومنبر

وقد أم شاعرنا كثيراً من هؤلاء الولاة ومدحهم . فلا بدع أن ينزل فى عبارته أحيانا إلى مستواهم ، فيجاملهم وحاشيتهم . بإنشاء ما يسيغ عقولهم من العبارة ؛ ولو التزم البدوية لأثقل على سامعيه وممدوحيه .

لهذا لم يكن بد من أن ترى فى ثنايا قصائده بعض ألفاظ معجمة ، وعبارات أعجمية ، من أسماء البلدان الأعجمية ، وأسماء ممدوحيه ، كما ترى تراكيب معقدة ، أو ألفاظا مبتذلة ، إلى غير ذلك مما تراه فيما يلى :

من ذلك قوله فى قصيدته التى يمدح بها عضد الدولة أبا شجاع فنا خسرو سنة ٣٥٤ هـ وهى السنة التى قتل فيها :

ا ــ أوهِ بَدِيلٌ مِنْ قَوْلَتِى وَاهَا ؛ لِمَنْ نَأَتْ ، وَالْبَدِيلُ ذِكْرَاهَا
أوهِ مِنَ الأَ أَرَى مَحَاسِنَهَا ! وَأَصْلُ وَاهاً وَأوهِ مَرْآهَا

فأنت ترى فى هذا المطلع تكرار لفظ أوه وواها ؛ وهما اسما صوت يفهمهما الأعجمى مثل العربى ، وهذا يؤيد ما رأينا من أنه كان يتكلف التنزل عن متانة العبارة ورصانتها ، مجاملة للممدوح المستعجم ، ولو أنه بدأ القصيدة بالغزل . ولعلك تسايرنى فى أن هذين البيتين ، مهما حملا من معانى ألم الفراق ، فان التعقيد واضح فيهما . ولولا أن الموضوع غزل ، لكان جديرا بما يستحق . ألست ترى المعنى سخيفا فى حد ذاته ؟

ب ــ كُلُّ مَهَاةٍ كَأَنَّ مُقْلَتَهَا تَقُولُ : إِيَّاكُمُ وَإِيَّاهَا

حتى فى هذا البيت البدوى الفكرة ، تراه يدخل الصناعة اللفظية فى إياكم وإياها ، فيدعو الإنسان للتفكير فى عود الضمير .

جـ ــ أَبَا شُجَاعٍ بِفَارِسٍ ، عَضُدَ الدَّ م وْلَةِ ، فَنَّا خُسْرُو ، شَهَنْشَاهَا (١)

على الرغم مما قال أبو الفتح فى هذا البيت : على أنه قصير الوزن ، قد جمع فيه كنية الممدوح وبلده واسمه ولقبه ، وسماه بملك الملوك (شاهنشاها) . وهو من أحسن الجمع والمدح ـ فإنى أراه يؤيد نظريتى من أنه كان يتكلف العجمة فى كلامه ، حتى ذكر اسمه ولقبه بالفارسية . ويخيل إلىّ أنه كان ينفخ شدقيه ، عند النطق بهذه الأسماء و يوقعها توقيعا فارسيا .

ومن ذلك قوله من قصيدة يمدح بها عضد الدولة وولديه :

ا ــ مَنَازِلُ لَمْ يَزَلْ مِنْهَا خَيَالٌ يُشَيِّعُنِى إِلَى النُّوبَنْدَجَانِ (٢)

---

(١) فى بعض نسخ الديوان (شاهنشاها) بألف بعد الشين الأولى ، والوزن يأباها.

(٢) النوبندجان : موضع فى طريقه ، أو هو بلد بفارس .

ب ـ فما يُسْمِى كَفَنَّا خسرُ و مُسْمٍ ... وَلا يَكْنِى كَفَنَّاخُسْرُ و كَانِى [1]

جـ ـ أُرُوضُ النَّاسِ مِنْ تُرْبٍ وخَوْفٍ ... وَأَرْضُ أَبِي شُجَاعٍ مِنْ أَمَانِ

وترى أنه جمع الأرض على أروض ، وقد صرح سيبويه بأن العرب امتنعت من تكسير أرض ، استغناء عنه بأرضين وأرضات .

ء ـ ومن الغريب قوله فى نفس القصيدة :

كَأَنَّ دَمَ الْجَمَاجِمِ فِى الْعَنَاصِى ... كَسَا الْبُلْدَانَ رِيشَ الْحَيْقُطَانِ [2]

فلم يفته فى هذه القصيدة ، أن يذكرنا بغريبه والحيوان وبداوته !

ومن هذا القبيل قوله يمدح أبا بكر على بن صالح الكاتب بدمشق :

لَيْسَ كُلُّ السَّرَاةِ بِالرُّوذْبَارِ م ىٍّ، وَلاَ كُلُّ مَايَطِيرُ بِبازِ ! [3]

فارِسِيٌّ ، لَهُ مِنَ الْمَجْدِ تَاجٌ ... كَانَ مِنْ جَوْهَرٍ عَلَى أَبْرَوَازِ ! [4]

فَكَأَنَّ الْفَرِيدَ وَالدُّرَّ وَالْيَا ... قُوتَ مِنْ لَفْظِهِ ، وَسَامَ الرِّكَازِ ! [5]

تَقْضَمُ الْجَمْرَ وَالْحَدِيدَ الْأَعَادِى ... دُونَهُ ، قَضْمَ سُكَّرِ الْأَهْوَازِ ! [6]

وهذه الأبيات غنية عن التعليق ، فنى كل بيت لفظة فارسية ، وإن عرب بعضها ، إلا أن المستعجم يعرفها فى لغة فارس .

(٢) لنا أيام الصبا ، عبارات محفوظة ، متقاربة الألفاظ . كنا نلهو أو نستعجز

---

(١) الواو من (خسرو) هنا تحذف فى النطق ، ويصح فتح الراء .

(٢) العناصى : جمع عنصوة وهو الشعر المتفرق فى جانبى الرأس . الحيقطان . ذكر الدراج ، وريشه ألوان .

(٣) روذبار : بلدة من بلاد العجم .

(٤) أبروار : هو أبرويز ، أحد ملوك العجم .

(٥) الفريد : كبار اللؤلؤ . واحدته فريدة . السام : عروق الذهب . الركاز : الذهب فى معدنه .

(٦) الأهواز : كورة بين البصرة وفارس .

بترديدها، طلبا لوضع لفظ مكان آخر، فتكون مسخرة. مثل «وبربرى بنى منبر، وبربرى برمه بنى منبر، طلع منبر بربرى برمه، أحسن من منبر بربرى منبار».

لم يعجز المتنبى ـ وقد طرق أبوابا وضروبا من الافتنان فى شعره ـ أن أتى على هذا الضرب فى شعره. أو ما يقرب منه. وأعنى به ترديد اللفظ أو تكريره، وكأنى به يقول معجبا بقدرته: إنى أحق من الكلمة لواحدة عدة معان. وهى هى، لا يتغير معناها، وفى ظنى أنه يريد بذلك أن يشغل السامع بالتأمل فى تتبع المعنى، ليصرفه عن غثاثة اللفظ، أو تكرهه من تكراره. والأمثلة فى هذا الباب كثيرة، أريد الاقتصار على قليل منها.

من ذلك قوله من قصيدة قالها فى صباه:

ا ـ وَمِنْ جَاهِلٍ بِى وَهْوَ يَجْهَلُ جَهْلَهُ وَيَجْهَلُ عِلْمِى أَنَّهُ بِى جَاهِلُ

ب ـ فَقَلْقَلْتُ بِالْهَمِّ الَّذِى قَلْقَلَ الْحَشَا قَلَاقِلَ عِيسٍ كُلُّهُنَّ قَلَاقِلُ

جـ ـ غَثَاثَةُ عَيْشِى أَنْ تَغَثَّ كَرَامَتِى وَلَيْسَ بِغَثٍّ أَنْ تَغَثَّ الْمَآكِلُ

وقوله من قصيدة يمدح أبا الفرج أحمد بن الحسين القاضى:

ولا الضَّعْفَ حَتَّى يَبْلُغَ الضَّعْفُ ضِعْفَهُ وَلَا ضِعْفَ ضِعْفِ الضَّعْفِ بَلْ مِثْلَهُ أَلْفُ

وقوله يمدح على بن منصور الحاجب:

أُسْدٌ فَرَائِسُهَا الْأُسُودُ، يَقُودُهَا أَسَدٌ، تَكُونُ لَهُ الْأُسُودُ ثَعَالِبَا

وربما كان هذا المثل الأخير أخف الأمثلة، وأوضحها معنى قريبا.

فتراه كرر لفظ جهل خمس مرات فى البيت الأول، ولفظ قلقل أربعا فى الثانى، ولفظ غث كذلك فى الثالث، ولفظ الضعف ست مرات فى الرابع؛ ولفظ الأسد أربعا فى البيت الأخير.

(٣) أما كثرة الإشارة، فقد ذكر الجرجانى فى الوساطة، أنه أكثر الشعراء استعمالا لذا التى هى للإشارة. وهى ضعيفة فى صنعة الشعر، دالة على التكلف. قال: وربما وافقت موضعا يليق فاكتسبت قبولا، وقد يكون استعمالها سخافة

وضعها. (كما تراه في مثلي د. هـ). ونحن ذاكرون لك مثلا منها.

ا — قد رأيت البيت:

أبا المسكِ ذا الوجهُ الذي كنتُ تائقاً إليهِ وذا الوقتُ الذي كنتُ راجيا

ب — قوله من قصيدة يمدح أبا أحمد عبيد الله بن يحيي البحتري:

أذا الغُصْنُ؟ أمْ ذا الدِّعْصُ؟ أمْ أنتِ فِتْنَةٌ

وَذَيَّا الذي قَبَّلْتُهُ الْبَرْقُ، أمْ ثَغْرُ؟

الدعص: قطعة من الرمل مستديرة.

حـ — قوله من قصيدة يمدح علي بن أحمد بن عامر الأنطاكي:

لِسَاني وعَيْني والفُؤادَ وهِمَّتي أوُدُّ اللواتي ذا اسمُها منكَ والشَّطْرُ

وما أنا وحْدي قلتُ ذا الشِّعْرَ كُلَّهُ ولكنْ لِشِعْري فيكَ مِنْ نفسِهِ شِعْرُ

وماذا الذي فيهِ مِنَ الحُسْنِ رَوْنَقاً ولكنْ بَدا في وجْهِهِ نحوَكَ البِشْرُ

د — قوله عند أبي محمد بن طغج:

قَدْ بَلَغْتَ الذي أرَدْتَ مِنَ البِرِّ ومِنْ حَقِّ ذا الشَّريفِ عَلَيْكَا

وإذا لَمْ تَسِرْ إلى الدّارِ في وقْتِكَ ذا، خِفْتُ أنْ تَسيرَ إلَيْكا

هـ — قوله من قصيدة يمدح أبا علي هرون بن عبد العزيز الأوراجي الكاتب:

لَوْ لَمْ تَكُنْ مِنْ ذا الوَرَى اللّذْ مِنْكَ هُوْ عَقِمَتْ بِمَوْلِدِ نَسْلِها حَوّاءُ

ولقد يعطي على عيب اسم الإشارة، في هذا البيت، لفظ «اللذ» يريد الذي، ولو استعملها شاعر غيره، لأخرجوه من زمرة الشعراء.

و — قوله من قصيدة يمدح أبا الفضل محمد بن الحسين بن العميد مهنئا بالنيروز:

نَحْنُ في أرْضِ فارِسٍ في سُرُورٍ ذا الصَّباحُ الذي يُرَى ميلادُهْ!

كُلَّمَا قَالَ نَائِلٌ : أَنَا مِنْهُ سَرَفٌ، قَالَ آخَرٌ : ذَا اقْتِصَادُهْ !

ز — قوله من قصيدة يمدح عضد الدولة :

حَلَفَتْ لِذَا بَرَكَاتُ غُرَّةِ ذَا فِي الْمَهْدِ : أَنْ لَا فَاتَهُمْ أَمَلُ

والباب واسع فارجع إليه فى شعره. وفى كتاب الوساطة ص ٨١ - ٨٣

(٤) الذى يظهر أن أبا الطيب كان كحاطب ليل. يمثر الانسان فى شعره على شتى العجائب، كما رأيت فى الأبواب السابقة. وكأنه أراد - لشرهه الشعرى - أن يستحوذ من الشعر حتى على أمثلة الغرابة والتعقيد لفظا ومعنى. ولسنا من المتعصبين له أو عليه. ولكننا نريد أن ندرس جانبا من شعره دراسة مجردة عن التحدى أو المحاباة. وما إن فكرت فى هذه النقطة حتى ورد إلى ذهنى ذلك البيت الذى تعرض له علماء البلاغة مثلا للغرابة والتعقيد :

جَفَخَتْ، وَهُمْ لَا يَجْفَخُونَ بِهَا، بِهِمْ شِيَمٌ عَلَى الْحَسَبِ الْأَغَرِّ دَلَائِلُ

الجفخ : التكبر والفخر.

ومن هذا الباب قوله فى مطلع قصيدة، يمدح بدر بن عمار :

بَقَائِى شَاءَ، لَيْسَ هُمُ ارْتِحَالاَ وَحُسْنَ الصَّبْرِ زَمُّوا، لَا الْجِمَالاَ[1]

وكل ما فيه - على ما أرى - أنه مطلع معقد قليلا. ولكنه لا يستحق أن يقول فيه أبو الحسن بن لنكك البصرى : هل رأيتم أشد تعقيدا، وأظهر تكلفا، وأسوأ ترتيبا من هذا الكلام ؟ ولا أن يقول : هذا المصراع يسقط دواوين عدة شعراء.

ومن ذلك أنه مدح ابن العميد بالقصيدة التى مطلعها :

« بَادٍ هَوَاكَ صَبَرْتَ أَمْ لَمْ تَصْبِرَا »، فجاء فيها البيت الآتى :

فَتَرَى الْفَضِيلَةَ لَا تَرُدُّ فَضِيلَةً الشَّمْسَ تُشْرِقُ وَالسَّحَابَ كَنَهْوَرَا[2]

---

(١) زموا الجمال : خطموها بالأزمة. وزموا أيضا : تقدموا فى السير، من المعنى السابق.

(٢) الكنهور : العظيم المتكاثف.

وقد تنازع ندماء ابن العميد فى هذا البيت، فقال: أثبتوه حتى أتامله. ثم أثبت البيت ووضع بين يديه، فأطرق مليا يفكر فيه، ثم قال: هذا يعطلنا عن المهم، وماكان الرجل يدرى ما يقول.

(ارجع إلى شرح البيت والأقوال الكثيرة فيه ص ٣٨٢ ج ١ من العكبرى طبع المطبعة الشرفية).

ولقد أثبت لك فى هذا الباب شيئا من الآراء، معتقدا أن ما جاء فى شعر أبى الطيب من التعقيد لا يستحق كل هذا التحامل، ولكل جواد كبوة.

(٥) من فنون الشعر العربى الهجاء. وأنت تراه قديما كان مقبولا؛ ومهما هجا الهجاءون لم يفحشوا كما فعل المتنبي. ولكن اختلاط العرب بالفرس، جعل من هجاء أبى الطيب نوعا مكشوفا، عديم الحياء، تراه يذكر من الألفاظ ما ينبو عنه الذوق، ويمنعه الأدب، أو كما يقول بعضهم: أساء إلى الأدب.

ولو كنت أعلم أن هذه الصحيفة تخرج عن أيدى الأساتذة والطلبة المهذبين، لأمسكت عن التعرض لهذا الباب، ولكن الدراسة تقضى علينا أن نلم بطرف من بذاءة لسان المتنبي، مستعيذين بالله منها.

قال فى قصيدة يهجو إسحق بن إبراهيم الأعور، ابن كيغلغ سنة ٣٣٦ هـ وقد أخذ عليه طريقه رغبة فى استبقائه ليمدحه:

يَحْمى ابْنُ كَيْغَلَغَ الطَّرِيقَ، وَعِرْسُهُ ... مَا بَيْنَ رِجْلَيْهَا الطَّرِيقُ الْأَعْظَمُ

أَقِمِ الْمَسَالِحَ فَوْقَ شَفْرِ سُكَيْنَةٍ ... إِنَّ الْمَنِيَّ بِحَلْقَتَيْهَا خِضْرِمُ [1]

وَارْفُقْ بِنَفْسِكَ، إِنَّ خَلْقَكَ نَاقِصٌ ... وَاسْتُرْ أَبَاكَ، فَإِنَّ أَصْلَكَ مُظْلِمُ

وَاحْذَرْ مُنَاوَأَةَ الرِّجَالِ، فَإِنَّمَا ... تَقْوَى عَلَى كَمَرِ الْعَبِيدِ وَتُقْدِمُ [2]

وَغِنَاكَ مَسْأَلَةٌ، وَطَيْشُكَ نَفْخَةٌ ... وَرِضَاكَ فَيْشَلَةٌ، وَرَبُّكَ دِرْهَمُ [3]

(١) الخضرم: البحر الكثير الماء.

(٢) الكمر: جمع كمرة، وهى الحشفة.

(٣) الفيشلة: هى ...

وَمِنَ البليّةِ عذلُ مَنْ لا يَرْعوى عَنْ غيِّهِ ، وَخِطَابُ مَنْ لا يَفْهَمُ
يَمْشِي بأرْبَعَـةٍ عَلَى أعْقابِهِ تحْتَ العُلُوجِ . وَمِنْ وَرَاءِ يُلْجَمُ (١)

وفيها قوله :

أتَرَى القِيادةَ في سِواكَ تَكَسُّباً يابْنَ الأعَيْرِ . وَهْيَ فيكَ تكَرُّمُ (٢)

(تجد القصيدة مشروحة فى ص ٣٥٧ ج ٢ من العكبرى طبعة المطبعة الشرقية)

ومن هذا القبيل قصيدته التى يهجو بها ضبة بن يزيد العتبي ، وأولها :

مَا أنْصَفَ القَوْمُ ضبّهْ وَأمَّــهُ الطَّرْطُبَّهْ (٣)

وقد أفحش أبو الطيب (!) أيما إفحاش فى الألفاظ المكشوفة التى وردت فى هذه القصيدة . والظاهر أنه كان يكيل لكل إنسان بالمكيال الذى يناسبه . فإن ضبة هذا كان جاهلا ، لا يفهمه التعريض . شأنه فى ذلك شأن ابن كيغلغ وإن كان ضبة يفوقه فى الغباء كثيراً ، فجاءت قصيدته أصرح من قصيدة ابن كيغلغ .

ولا يفوتنا أن نشير إلى تكنيته كافورا بقوله : أبا المتن ، بعد أن كان .

أبا كلِّ طيبٍ لا أبَا المِسْكِ وَحْدَهُ .

(٦) والنقطة الأخيرة من هذا الشق هى عسفة فى اللغة والإعراب ، وكنا نود أن نضرب عنها صفحاً ، لولا ظهور ذلك فى كلامه ؛ لأنه كان يستخف بقواعد اللغة . ويغرم بغير المشهور منها . ولعله كان يتلاعب بالألفاظ أحيانا ، لإشعار منافسيه علوّ كعبه فى الصناعة . أو أنه كان يستجهل القوم فيصوغ لهم من الألفاظ مالا يهتم بتصحيحه . مكتفيا بأنه كان يستر عيوبه ببيت من الحكم أو الأمثال يذكره عقب كل فقرة من قصائده .

---

(١) العلوج : جمع علج ، وهو الرجل العجمى .

(٢) الأعير : تصغير أعور .

(٣) الطرطبة : القصيرة الضخمة ، أو المسترخية الثديين ، الطويلتهما .

وربما كان من دواعى ما سبق كله . أنه كان يرتجل أحيانا . حتى إنك لتحس فى لبيت أو الأبيات روح التأمل فى التكوين والتركيب فى أثناء الارتحال . كما نشاهد بعض الخطباء أو الشعراء عند ارتجالهم عبارات يعلكونها علكا عند إلقائها . فتراهم يكونون الجملة يمطونها مطا . ويرصون كلمها رصا ؛ ولعل هذا – مع ما ذكرناه من تكلفه التنزل فى عبارته كما يفعل بعض الخدم الذين يحاطون سادتهم المستعربين الآن – من أسباب ما نشأ فى شعر أبى الطيب من علائم العجمة .

وإلا فبماذا نوجه نطقه بلفظ الاسم هكذا : السُّمُ فى قوله فى صباه :

أشارُوا بتَسْليمٍ ، فَجُدْنَا بأنْفُسٍ   تَسيلُ مِنَ الآماقِ وَالسُّمُ أدْمُعُ .

ولعل الموقف وشدته ، والفراق وأثره لعثم لسانه فى ذلك .

وكذلك نطقه بلفظ التراب هكذا : التوارب ، فى قوله :

أيَفطِمُهُ التَّوْرَابُ قَبْلَ فِطَامِهِ ؟

وجمعه أرض على أرُوض ، ودار على أدْوُر فى قوله من قصيدة يمدح أبا العشائر :

أحِبُّـهُ وَالهَوَى وَأدْوُرَهُ   وَكُلُّ حُبٍّ صَبَابَةٌ وَوَلَهْ .

وكذلك جمع الكوب ، وهو الكوز الذى لا عروة له ، على أكوب ، فى قوله ارتجالا ، لبعض الكلابيين ، وهم على شراب :

لِأحِبَّتِي أنْ يَمْلَئُوا   بالصَّافِيَاتِ الأكْوُبَا

وَعَلَيْهِمُ أنْ يَبْذُلُوا   وَعَلَيَّ ألَّا أشْرَبَا

وربما كان له عذر الارتجال ، وخجل الموقف من رفض الشراب فى وقت قل أن تسعف فيه قوة الإرادة صاحبها .

***

ومن هذا الباب حذف أنْ الناصبة مع نصب الفعل أو بدونه :

كقوله من قصيدة يمدح القاضى أبا الفضل أحمد بن عبد الله الأنطاكى :

يَدْرِى بِمَا بِكَ قبلَ تُظْهِرُهُ لَهُ   مِنْ ذِهْنِه ، وَيُجيب قبلَ تُسَائِلُ

وقوله من قصيدة يمدح بدر بن عمار :

أُشْفِقُ عِنْدَ اتِّقَادِ فِكْرَتِهِ   عَلَيْهِ مِنْهَا ؛ أَخَافُ يَشْتَعِلُ

وقوله من قصيدة ، قالها فى صباه يمدح محمد بن عبد الله العلوى :

أَقَرَّ جِلْدِى بِهَا عَلَىَّ ، فَلَا   أَقْدِرُ حَتَّى المَمَاتِ أَجْحَدُهَا

وقوله يمدح بدر بن عمار :

وَتَوَقَّدَتْ أَنْفَاسُنَا ، حَتَّى لَقَدْ   أُشْفِقْتُ تَحْتَرِقُ العَوَاذِلُ بَيْنَنَا

وقوله من قصيدة يمدح ابن زُرَيق الطرطوسى :

بَيْضَاء ، يَمْنَعُهَا تَكَلَّمَ دَلُّهَا   تِيهًا ، وَيَمْنَعُهَا الحياء تَمِيسَا

وكذلك حذف نون (من) قبل الاسم المعرف بأل (وهذا كثير فى العربية)
كقوله من قصيدة يمدح بها عبد الرحمن بن المبارك الأنطاكى :

نَحْنُ رَكْبٌ مِ الجِنِّ فِى زِىِّ نَاسٍ   فَوْقَ طَيْرٍ لَهَا شُخُوصُ الْجِمَالِ

وقوله من قصيدة يمدح بها احمد بن عبد الله الأنطاكى :

وَلَدَيْهِ مِ الْعِقْيَانِ وَالأَدَبِ الْمُفَا   دِ ، وَمِ الحياة ، وَمِ الْمَمَاتِ مَنَاهِلُ

ومن هذا القبيل ، إضافة الضمير للمصدر ، وإدخال إلا على الضمير المتصل
كما فى قوله ، يخاطب أبا محمد ، بعد أن عاتبه على ترك مدحه :

تَرْكُ مَدْحِيكَ كَالْهِجَاءِ لِنَفْسِى   وَقَلِيلٌ لَكَ الْمَدِيحُ الْكَثِيرُ !

وقوله ، وقد سقاه بدر ، ولم يكن له رغبة فى الشراب :

لَمْ تَرَ مَنْ نَادَمْتُ إِلاَّكَا   لَا لِسِوَى وُدِّكَ لِى ذَاكَا

وَلَا لِحُبِّيهَا ، وَلَكِنَّنِى   أَمْسَيْتُ أَرْجُوكَ وَأَخْشَاكَا .

ومن هذا أيضا حذف نون جمع المذكر السالم فى قوله يمدح الحسن بن إسحق التنوخى :

أَطَعْنَاكَ طَوْعَ الدَّهْرِ، يَابْنَ ابنِ يُوسُفٍ بِشَهْوَتِنَا، وَالْحَاسِدُو لَكَ بِالرَّغْمِ

حذف نون (الحاسدون) لأنه شبهه بالاسم الموصول . أو أنها مثل لا أبالك :

هذا ؛ ولا يفوتنا أن نختم مقالنا هذه ، بإبداء رأينا الخاص فى شعر المتنبى على الرغم مما جمع بين البداوة والعجمة :

إنى أعتقد أن الحظ الذى أصاب المتنبى فى شعره . لم يكن لقيمته فى نفسه ، وإلا كان مثل البحترى أحق بذلك منه ، ولا لأنه أتى فيه بما لم يأت به الأوائل ، بل ترجع شهرته بين الشعراء إلى شذوذ خاص . فى عبارته ، وعقيدته ، وخلقه ، وآماله ؛ هذا إلى انفراده فى زمن انحطاط سياسى . ورحلته وتطوافه ، وجوبه الآفاق ، فى طلب الرزق الوفير ، والغنى والملك .

فلولا زندقته ، ولولا جنونه ، ولولا تخلقه فى ذلك بمالا يرضى الله والناس - لولا ذلك كله ، لما كان له ذكره هذا . ولضاع شعره مع ما ضاع أو نسى من شعر الشعراء المجيدين ، وحكم الحكماء المفكرين !

وإجمالا : لقد رزق المتنبي الحظ فى شعره . حتى لقد تُعَدّ سيئاته حسنات ، وتعقيده بسطاً ، وإبهامه بيانا ، وشذوذه قياساً ،

سبحان من قسم الحظو ظ ، فلاعتاب ، ولاملامه !

محمد عبد الجواد

الحيوية فى شعر المتنبى

بقلم محمود البشبيشى

المدرس بدار العلوم

يجمل بنا قبل البحث فى صميم الموضوع ، أن نقدم له بكلمة عامة فى الحيوية الشعرية : إن من الشعر ما يكون باقياً على الدهر ، يتنافس الرواة فى حفظه ونقله ، وتلهج الألسنة بترديده والتمثل به ، ولا يزداد على تمادى الأيام الا جدة وقوة : ذلك النوع من الشعر هو مايعبر عنه بالشعر الحى ، يساير الحياة ، ويجرى مع الحضارات المتعاقبة ، ولا يشعر الناس على اختلاف أجيالهم أنه مرتبط بزمن دون آخر ؛ ويضرب فى نواحى الحياة المتباينة فيكون منطقه فصلا ، وحكمه نافذاً ، لايسأم الانسان من تكراره ، ولا تنفر الآذان من سماعه ، ولا تعلق به شائبة الوهن ؛ حتى كأنما يعيش صاحبه فى جميع الأزمان ، ومختلف البيئات ؛ وإنك لتقرأ لبعض الشعراء الجاهليين ، ومن تلاهم من الإسلاميين ، وغيرهم ، كلاماً يتفاوت قوة وضعفاً ، ويختلف وقعه فى النفس ، وجرسه فى الأذن ؛ فلا تلبث أن تميز الخبيث من الطيب ، فتنفى الواهن الردىء ، وتستبقى القوى الجيد ، ولا تزال تعاوده رواية ، ويعاودك إشراقاً وإمتاعاً : بل إنك لتستعين به فيما تحاول من نظم ونثر ، وتتصور أنك تجالس قائله ، وتناقله القول ، وتبادله الرأى ؛ ذلك بأن فى النوع الأول فتوراً وانحلالا ، لايسمحان له بالخلود ، ولا يكفلان له البقاء فى مختلف الجواء ومهاب العصور ، وفى الثانى قوة وطرافة وجدة ، تشق به طرق الحياة ، وتنهج به السهل والوعر ، وتدخل به على القلوب بلا إذن ، وتقهر النفس على العناية به ، وتفرض خلوده على الدهر فرضاً ؛ وذلك كله إنما يرجع إلى قوة الموضوع ، وحسن الصياغة ، وقوة روح الشاعر ، ونباهة ما يتناول من المعانى .

هذا امرؤ القيس ، على نباهة شأنه فى الشعر ، تختلف آثاره الشعرية قوة

وضعفاً ، ولا يعلق من مطولته كلها بالنفس إلا القليل . لما انبثّ فيه من عواطف قوية . وما صيغ فيه من قوالب مصقولة مهذبة ، وما يثيره فى النفس من وجدان شريف ؛ بل إن النفس لتطرب ببعض شعره فى غير المعلقة ، أكثر من طربها بأروع مافى تلك المعلقة ؛ استمع إليه يقول :

بكى صاحبي لما رأى الدّربَ دونه   وأيقن أنا لاحقان بقيصرا
فقلت له : لا تبكِ عينُك ، إنما   نحاول ملكا ، أو نموتَ فنُعذرا

ألا ترى أن قوله هذا أبلغ فى النفس أثراً ، وأبقى على الدهر معنى ، وأثبت فى الحياة قدماً ، من قوله فى معلقته :

تقول ، وقد مال الغبيط بنا معاً :   عقَرتَ بعيرى ياامرأ القيس ، فانزلِ !
فقلت لها : سيرى ، وأرخِى زمامه ،   ولا تحرمينى من جناك المعلَّلِ !

ولن يشفع لهذين البيتين أنهما من عيون معلقته وأجراها على الألسنه ، وبخاصة ألسنة المجّان (الأبيقوريين) !

وهذا عنترة ، وله من قوة الشاعرية ماتشهد به مطولته ، لاتتساوق الحياة الشعرية فى كل مايروى عنه : فمن المعلقة أبيات هي أبعد مدى وأعمق أثراً مما عداها : فهي على ألسنة الرواة أجرَى ، وفى نفوسهم أرسخ وأقوى ؛ استمع إلى قوله فى المعلقة :

ومدجّجٍ كرِهَ الكماة نِزالهُ   لا مُمعنٍ هرَباً ، ولا مُستَسلِمِ
سبقت يدَاىَ له بعاجل طعنة   بمثقّفٍ صَدْقِ الكعوب مقوّمِ
فشككت بالرمح الأصمّ ثيابه   ليس الكريمُ على القنا بمحرّمِ !

ألا ترى أن هذه الأبيات لها من الخلود ماليس لغيرها من المعلقة ؟ أوَلا ترى أن سر ذلك الخلود ما انطوت عليه من تصوير صادق ، وعاطفة شريفة ؟ لاسيما عاطفة الأنصاف لقرنه ، والتقدير لمنازله ؛ تلك العاطفة التى تتراءى من خلال البيت الثالث ، بل من الشطر الثانى لذلك البيت ؟ وليس أقل منها قوة وحياة قوله الآخر فى تلك المعلقة :

وأرى مغانم لو أشاء حويتُها فيصدنى عنها الحيا وتكرُّمى
ولقد أبيتُ على الطَّوَى وأظله حتى أنال به كريمَ المغنمِ

فان له من قوة الأثر فى النفس ما يوثق صلتهما بالحياة ، وإن لم يبلغا فى اعتقادى مدى الحياة التى للأبيات السابقة .

ولقد يقل مايروى للشاعر قلة تكاد تسقطه من ثبت الشعراء ، ولكن لايحول ذلك دون تدفق الحياة الشعرية فى بعض مايروى عنه على قلته ، حتى لتعجب النفس لتلك الحيوية الدافقة فى ذلك الشاعر القليل الآثر . وتذهب النفس فى تعليل ذلك مذاهب شتى . ولا ينفى لذلك إقرارها بما لذلك الشعر من عوامل البقاء ، وعناصر الخلود : هذا عمرو بن قميئة أحد المعمرين فى الجاهلية ، لا يروى له إلا القليل من الشعر ، وإن النفس لتفيض إعجاباً ، وتمتلىء ارتياحا لبعض ذلك المروى ، ومن منا لايطرب من رصانة الشعر ورونق الديباجة ، وتموج العاطفة ، فى قول ذلك الشاعر المقل : يشكو أحداث الزمان . ويئن من طول الحياة :

رمتنى بناتُ الدهر من حيث لا أرى فكيف بمن يُرمى وليس برام ؟
ولو أنها نَبلٌ إذاً لاتقيتُها ولكننى أرمى بغير سهام

فالحياة الشعرية ليست حبسا على غزارة مادة الشاعر ، ولا هى رهن بمقدار ما يروى عنه ، وإنما هى سر من أسرار النفس الشاعرة ، يودعه الشاعر قوله ، فيضمن له على الدهر الخلود .

وإن من الشعر ما تزداد فيه الحيوية ، حتى لا تقف به عن حد الخلود ، بل إنه ليضفى الحياة على ما يمسه من الموضوعات ، ويكاد يبعث من طواهم الثرى من الناس ، بعثا يختلف قوة وضعفا ، ويتباين سعادة وشقاء . فمن لا يذكر سيف الدولة كلما ذكر المتنبى ؟ ومن لا يذكر كافورا كلما تناول شعر أبى الطيب ؟ ومن لا يذكر حرب البسوس كلما جال بخاطره رثاء مهلهل لأخيه كليب ؟ ومن لايمثل[1]

(١) امثله . تصوره فتمثل هو أى تصور

مالك بن نويرة كلما قرأ شعر أخيه متمم ؟ ومن لا يرثى لمقتل صخر كلما سمع نُواح الخنساء فيه ؟ ومن لا تذوب نفسه أسى كلما ذكر قصيدة أمير الشعراء (شوقى) طيب الله ثراه فى رثاء (مقدونية) إثر وقوعها فى يد المغيرين من جيوش البلقان :

يا أخت أندلسٍ عليكِ سلام هوتِ الخلافة عنك والإسلام !

ولقد يكون من الشعر ما يقوى عناصر الحياة حتى فى الحقائق العلمية والاجتماعية . ومن حكم المتنبى ما هو أصدق شاهد على ما أقول . وليس بأقل منه قول (شوقى) فى قصيدته (نهج البردة) يدفع عن الإسلام دعوى أنه قام على أعضاد السيوف :

قالوا : غزوتَ، ورسلُ الله مابُعثوا بقتل نفس . ولاجاءوا اسفكِ دم
جهلٌ، وتضليلُ أحلامٍ، وسفسطةٌ فتحتَ بالسيف بعد الفتح بالقلم !

ولا قول البوصيرى فى هوى النفس ووجوب قمعه :

النفس كالطفل ، إن تتركه شب على حب الرّضاع . وإن تفطمه ينفطم

لعلى بذلك قد أوضحت الحياة الشعرية ، وأشرت إلى عناصرها إجمالا ، وبينت مكانها من الشعر . فلننتقل إذاً إلى ما قصدنا إليه من تقدير الحيوية الشعرية فى شعر أبى الطيب ، وتعرّف أسباب تلك الحيوية :

إن العالم العربى منذ القرن الرابع الهجرى ما شغل بشاعر أكثر مما شغل بالمتنبي ، وما تأثر بشعر أكثر من تأثره بشعره ، وإن فيما تداوله النقاد من شعره تحسينا وتقبيحا . وما ألفوه فى ذلك من شروح ضافية ، وآراء متباينة . لأقوى دليلٍ على نباهة شأنه . وذيوع صيته ، وعلو قدره .

ولعل من الحديث المعاد أن نطيل فى إثبات مكانة المتنبي . ولعل من تحصيل الحاصل أن نسوق على هذا دليلا ؟ وهل كان قيام العالم العربى فى هذا العام بإحياء ذكراه الألفية على صور شتى ، إلا الدليلَ الناصع ، على خلود المتنبي وقوة الحياة فى شعره . ومن منا لا يعترف بفضل المتنبي عليه فى تثقيف عقله ، ورياضة قلبه ، وإنضاج الشاعرية فى نفسه ، إذا كان شاعرا ، ورحم الله أبا الطيب إذ يقول :

وليْسَ يصحُّ في الأذْهَانِ شيْءٌ إذَا احْتَاجَ النَّهارُ إلى دَليلِ .

فسبيلنا الآن أن نبحث في شعر المتنبي عن عناصر حياته الشعرية الرائعة ، وأن نسوق لذلك أمثلة قليلة تدل على مقدار الحيوية في ذلك الشعر ، وفي ديوانه الحافل غنًى عن الإطالة :

تتكون الحيوية الشعرية في شعر المتنبي من عناصر شتى ، في كل واحد منها حياة قوية متدفقة . ويمكن إجمال هذه العناصر وبيان آثارها فيما يأتي :

١ - كان أبو الطيب نفسه عظيما . قوى الروح ، جياش العاطفة ، متين الرجولة ، بعيد مدى الآمال ، طموحا ، واسع الرغبة في الغلبة وذيوع الصيت ، ولقد وجهته هذه العظمة ، وما يلابسها نحو المثل العليا من الشعر ، ودفعته دفعا إلى التجويد فيه لفظا ومعنى ، وساقته سوقا إلى ملابسة أروع المعاني وأقوى الموضوعات ، وأشدها تأثيرا في الحياة ؛ ولا غرو في ذلك ؛ فإن الشعر مظهر العواطف الإنسانية ، يتشكل بأشكال النفس قوة وضعفا ؛ وما يصدر عن الشاعر العظيم لا بد أن يترك في النفوس آثارا عظيمة ؛ وما يصدر عن الشاعر الماجن الواهن الضعيف النفس ، المستهتر بالملاهي ، لابد أن يحمل في طيته عناصر فنائه ، وإن اغتر به صاحبه ، وتناقلته أفواه الرواة الماجنين ، وتغناه ذوو الخلاعة والفتور حينا من الدهر . إن النفس تطرب للنثر البليغ ، فهي بالشعر الجيد أشد طربا ، وكأني بالمتنبي كان يدرك ما في عنصر العظمة في نفسه من تأثير في حياة شعره ، فكان به تياها ، وكان بنفسه مزهوا ، معرضا عن سخافات الحاقدين ، عالما بأن البقاء رهن القوة ، وأن الدهر كفيل ببقاء الأصلح ، وإن عابه العيابون ، واشتط في نقده الحاسدون ، فهو من أجل ذلك يقول :

أنامُ مِلْءَ جُفُوني عَنْ شَوَارِدِهَا وَيَسْهَرُ الْخَلْقُ جَرَّاهَا وَيَخْتَصِمُ [(١)]

ويقول :

وَمَا الدَّهْرُ إلاَّ مِنْ رُوَاةِ قَصَائِدِي إذَا قُلْتُ شِعْرًا أَصْبَحَ الدَّهْرُ مُنْشِدَا

(١) جراها أي من جرائها .

و لقد كان من افتتان أبى الطيب بالعظمة أن كثرت مغامراته ، واشتمل شعره ـ تبعا لذلك ـ على الكثير من أخبار هذه المغامرات . ونجمت فيه روح الصراع والمجالدة ، وتراءت فيه صور الفوز والخيبة . فأصبح قوياً مغريا يبعث النفوس على قراءته ، ويدفع الناس إلى روايته ، كما يتدافع الناس إلى معرفة أخبار الأبطال وأحوال الحروب ، ونتائج الصراع الإنسانى ، مسوقين إلى ذلك بالغريزة الإنسانية التى تفتتن بالقوة ، وتتلمس مظاهر العظمة ، وتميل إلى ما يشبع نهمها من هذه الناحية : إذ الناس كانوا (وما يزالون) على ما وصفهم به أبو الطيب إذ يقول :

مَنْ أَطَاقَ الْتِمَاسَ شَيْءٍ غِلاَبَاً وَاقْتِسَاراً ، لَمْ يَلْتَمِسْهُ سُؤَالاَ

كُلُّ سَاعٍ لِحَاجَةٍ يَتَمَنَّى أَنْ يَكُونَ الْغَضَنْفَرَ الرِّئْبَالاَ

هذا العنصر فى اعتقادى هو أقوى عناصر الحيوية العجيبة فى شعر المتنبى ، وإنى لأعتقد أن عواطف الشاعر كالباعث الكهربائى ؛ كلما كانت قوية جياشة ، كان أثرها فيما تقع عليه أبلغ ؛ ولا يستطيع منصف أن ينفى عن المتنبى قوة العاطفة ، فى كل ما زاول من الأغراض وتناول من الموضوعات .

(٢) كانت ثقافة المتنبى قوية واسعة المدى ، أخذ الشىء الكثير من علوم العرب واليونان . ونشأ فى عصر هضمت فيه العلوم العقلية ، والفلسفية هضما ، ووجد نفسه فى جيل يقتضيه أن يدفع بنفسه فى غمار الحياة ، وكان فى نفسه ذكاء عجيب ، وطموح بالغ المدى . وتقلبت به أحوال فى ألوان الحياة المختلفة ، فذاق الحلو والمر ، وخبر الناس ـ عن كثب ومخالطة ـ خبرةَ الذكى الواسع الإدراك ، فتكون له بذلك كله معرفة واسعة تحيط بكل ألوان الحياة ، وتدرك ما خفى من أسرارها ، وتصل منها إلى أعماقها ، فغزرت تجاربه ، وأصبح من حكماء الدنيا وأرباب النظر فيها ، وصار من ذوى الآراء السديدة فى فهم الحياة ، وبحث مشكلاتها ، ولذلك جرى على لسانه كثير من الحكم الجامعة ، والأمثال السائرة ، وتناول كثيراً من مظاهر الصراع الإنسانى بالبحث العميق ، والتحليل العجيب ؛ فلا تكاد قصيدة له تخلو من حكمة صائبة ، أو مثل سائر ؛ ولا تكاد تقف له على

شعر لا يعنى بالعويص من مشكلات الحياة ؛ فلا عجب أن يكون لشعره من هذه الثقافة مدد لا ينقطع ؛ ولا عجب بعد ذلك أن يتوفر الناس على شعره دراسة واستيعابا ، وشرحا ونقداً ، ومعارضة واقتباسا ، ولهم فى كل ذلك ما يشبع نهم النفوس : من رأى سديد ، أو حكمة بالغة . أو مثل سائر ، أو تجربة لا تخلو من العظات : فهو حتى فى أحرج أوقاته كلف بالحكمة ، مغرم بالبحث ، معنىٌّ بإرسال المثل ، تأبى عليه ثقافته الواسعة إلا أن تقذف به دائماً فى لجة الفلسفة يغوص على أدق المعنى ، وينظر فى كل الأمور نظرة المحقق المجرب الحكيم . استمع إليه إذ يقول فى قصيدة يمدح بها (أبا على هرونَ بنَ عبد الله الكاتب) :

وشَكِيَّتِى فَقْدُ السَّقَامِ، لأنَّهُ ... قَدْ كَانَ لمَّا كَانَ لِى أعْضَاءُ

وإذ يقول فى ذم طبقة من الشعراء :

أرَى الْمُتَشَاعِرِينَ غَرُوا بِذَمِّى ... وَمَنْ ذَا يَحْمَدُ الدَّاءَ الْعُضَالاَ ؟[1]

(وَمَنْ يَكُ ذَا فَمٍ مُرٍّ مَرِيضٍ ... يَجِدْ مُرًّا بِهِ الْمَاءَ الزُّلاَلاَ)

ويقول فى ذم أمثالهم :

أفى كُلِّ يَوْمٍ تَحْتَ ضِبْنِى شُوَيْعِرٌ ؟ ... ضَعِيفٌ يُقَاوِينِى، قَصِيرٌ يُطَاوِلُ![2]

لِسَانِى بِنُطْقِى صَامِتٌ عَنْهُ عَادِلٌ ... وَقَلْبِى بِصَمْتِى ضَاحِكٌ مِنْهُ هَازِلُ

(وَأتْعَبُ مَنْ نَادَاكَ مَنْ لاَ تُجِيبُهُ ... وَأغْيَظُ مَنْ عَادَاكَ مَنْ لاَ تُشَاكِلُ)

إلى غير هذا مما يفيض به ديوانه . فالرجل كما ترى مملوء حكمة وتجارب ، وهو من ذلك كالبحر الذى جاشت غواربه يفيض برغمه على ساحليه .

ولا شك أن شعراً ينبع من ذلك المنهل المتدفق ، يكون له من الخلود وبعد المدى ماليس لغيره ، مما يصدره الأغرار والمتشاعرون ، ومن قلت تجاربهم ، ومن ينظرون إلى الموضوعات نظراً سطحياً لا يصل منها إلى الصميم .

(١) غرى بالشىء كرضى غرآء ، وغراء : أولع به .
(٢) الضبن بكسر فسكون : مابين الإبط والكشح .

(٣) كان المتنبي كما أسلفنا غزير مادة العقل ، واسع مدى التجاريب ، وفيه من قوة الروح ماعلمت : فهو إذا تكلم لاينطق إلا عن علم وبينة ، وإذا تناول معنى لايزال به يقلبه على جميع نواحيه ، حتى لايدع لغيره مزيداً عليه ؛ فهو من أجل ذلك واضح الفكر ، بيِّن الغرض ، لاينتهى القارىء من معنى يراه فى شعره إلا ملماً به ، مستريح النفس إليه . والنفس بما تهضم من المعانى أشد تعلقاً : والمعانى متى اشتد وضوحها تكون في النفوس أرسخ ؛ وإنا لندرك ذلك فيما نقرأ من كتب ، وما كنا نتلقى من دروس ، فلا يعلق بنفس القارىء والدارس إلا أكثرها وضوحاً فى نفس المؤلف والمدرس ؛ وقد يتكلف بعض الناس من الموضوعات والمعانى مالايسمح به استعداده وفطرته ، فيجىء كلامه - وإن طال - غثا سمجاً ، كلما ازداد طولا زادت منه النفوس تقززاً ونفوراً .

أما أبو الطيب فهو المجلّى فى كل ما يتناول من الأغراض . انظر إلى هذه الصور التى رسمها لممدوحه فى هذه الأبيات :

مَلِكٌ سِنَانُ قَنَاتِهِ وَبَنَانُه يَتَبَارَيَانِ دَماً ، وَعُرْفاً سَاكِبَا

يَسْتَصْغِرُ الخطَرَ الكَبِيرَ لِرِفْدِهِ وَيَظُنُّ دِجْلَةَ لَيْسَ تَكْفِى شَارِبَا

(كَالْبَدْرِ مِنْ حَيْثُ الْتَفَتَّ رَأَيْتَهُ يُهْدِى إِلَى عَيْنَيْكَ نُوراً ثَاقِبَا)

(كَالشَّمْسِ فِى كَبِدِ السَّمَاءِ، وَضَوْءُها يَغْشَى الْبِلَادَ مَشَارِقاً وَمَغَارِبَا)

(كَالْبَحْرِ يَقْذِفُ لِلْقَرِيبِ جَوَاهِراً جُوداً ، وَيَبْعَثُ لِلْبَعِيدِ سَحَائِبَا)

وانظر مافى كل صورة من الوضوح ، وكيف أن الشاعر الفحل أراد أن يصف الممدوح ببسطة النوال ، فضرب له ثلاثة أمثال . نعم قد يكون فى عبارة أبى الطيب أحياناً شىء من التعقيد اللفظى ، ولكن معانيه دائماً واضحة مستوفاة ، متى أدركها القارىء أدركها وافية شاملة واضحة ، لا تبرح ذهنه ولا تفارق خياله .

(٤) لقوة الشاعرية فى أبى الطيب ، ولغزارة مادته ، وسعة ثقافته ، وسلامة منطقه - أثر بعيد الغور فى سلامة تفكيره ، وجنوحه إلى الأسلوب المنطقى ، وسوق

القضايا فى مساق الاستدلال كلما زاول معنى من المعانى . فهو لا يكتفى باللمحة العجلى يرسلها على المعنى فيجىء غامضا فاترا ، أو يصل إلى النفوس قلقا مضطربا . ودائما يفكر ثم ينظم ، فاذا قرأت له شعرا رأيت لونا واضحا من الفكرة يسود القصيدة كلها ، أو ينصبّ على كل معنى من معانيها . ومتى وصلت الحقائق والأخيلة إلى النفس على تلك الصورة المنطقية المحكمة ، وراضها بيان طيع ، وصاغها شاعر ملهم ، كان لها فى النفس مستقر ومقام فلا تبرحها .

وإنك لتدرك ذلك من نفسك فيما يقع لك من شعر بعض المعاصرين . فقد تقرع أذنك قصيدة أخاذة المظهر ، رائعة العنوان ؛ فلا تجد لها عاضدا من فكرة متحدة ، ولا ضابطا من منطق متماسك . فلا تنتهى منها حتى تصير عرَضا لفظيا يذهب مع الهواء ، ولايجد إلى نفسك مدخلا . وقد تقع لك أبيات قليلة أو قصيرة ، فيها فكرة وفيها تماسك ، فتحل من نفسك فى الضمير . ولا يُعْيِيك أن تحتفظ بمعناها ، بل لايستعصى عليك (متى شئت) استظهارها .

وللمتنبى فى هذه الناحية الشواهد الجمة ، وإنما نذكر منها قوله فى قصيدته التى يعاتب بها سيف الدولة :

مَالِى أُكَتِّمُ حُبًّا قَدْ بَرَى جَسَدِى ... وَتَدَّعِى حُبَّ سَيْفِ الدَّوْلَةِ الْأُمَمُ ؟

إِنْ كَانَ يَجْمَعُنَا حُبٌّ لِغُرَّتِهِ ... فَلَيْتَ أَنَّا بِقَدْرِ الْحُبِّ نَقْتَسِمُ !

(قَدْ زُرْتُهُ ، وَسُيُوفُ الْهِنْدِ مُغْمَدَةٌ ... وَقَدْ نَظَرْتُ إِلَيْهِ ، وَالسُّيُوفُ دَمُ)

(فَكَانَ أَحْسَنَ خَلْقِ اللهِ كُلِّهِمُ ... وَكَانَ أَحْسَنَ مَافِى الْأَحْسَنِ الشِّيَمُ)

انظر إليه وقد ادعى لنفسه الفضل على غيره فى حب سيف الدولة ، ثم لم يدع هذه الدعوى تمضى بلا دليل ، فساق لها البيت الثالث ، يدل به على بواعث هذا الإفراط فى الحب : فهو ما أحب سيف الدولة عبثا ، وإنما أحبه لسمو خلاله ، وكمال نفسه ـ أحبه بعد أن اختبره فى السلم والحرب ، ورآه فى الرضا والغضب ، فكان أحسن الناس فى حاليه ، وكان أشرف مافيه أخلاقه ؛ فالشاعر كلف بالاستدلال ، حتى فى إثبات العاطفة التى ربما لايحتاج غيره فيها إلى استدلال ، وخاصة متى عرفته

صلته بممدوحه ، وعرفت أنه ظل مغمورا بفضله أمدا طويلا . هـذا الأسلوب المطلق هو سر من أسرار الحيوية الشعرية فيما فاضت به شاعرية أبى الطيب .

(٥) كان أبو الطيب يندفع وراء غاياته بقوة الطموح المشتعلة فى نفسه . فاذا لاح له غرض من الأغراض . جرى فى أثره حثيثا ، واستهان فى سبيله بكل ما يعترضه من العقبات ، حتى لكأنه المعنىّ بقول الشاعر :

إذا همّ ألقى بـين عينيه عزمـــه وأعرض عن ذكر العواقب جانبا
ولم يستشر فى أمره غير نفسه ولم يرض إلا قائم السيف صاحبا

ومن كان ذلك دأبه ، كان شديد الاقتناع بصواب ما يتخذه لإدراك الغاية من وسائل ، فاذا قال فى ذلك شعرا جاء شعره متدفقا عنيفا ، كقوة الباعث النفسى وعنفه ، ولعل المتنبي كان يخالف فى مسلكه عقيدته أحيانا ، ولكنه مسبغ على شعره فى مثل هذه الحال لونا من التجويد والبراعة ، حتى ليحسبه القارىء صادرا من صميم النفس ، ويشعر فيه بالقوة التى تكون للشعر الذى يفيض عن النفس ويصدر عن العقيدة ، بل لعل أبا الطيب فى مثل هذه الحال كان يغالى فى كتمان عقيدته ، ويجهد نفسه فى إقناع قارئه ، فيأتى شعره متساوق المعانى جيد الأساليب؛ وقد يكون عجب الناس من هذه البراعة فى مثل هذه المواضع سببا للإشادة بها ، وطول التحدث عنها ، فتكون سببا لخلود الشعر ، وعنصرا فى حياته ؛ ومن ذلك النوع مدائحه البديعة فى (كافور) أيام طمع المتنبي فيه . على أن من الحق أن شعره بعد فى هجاء كافور جاء أروع من مديحه معنى . وأبلغ فى النفوس أثرا ، إذ كان صادرا عن اعتقاد راسخ ، وعاطفة جياشة ؛ فاذا اجتمع لشعره شدة الاقتناع . والصدور عن النفس ، فقد بلغ الغاية . وذلك دأبه فى أكثر ما قال .

وصفوة القول أن أبا الطيب كان من البراعة والتجويد ، وتملّك ناصية الشعر . بحيث يجيد حتى فى المواضع التى لا تلتقى فيها عاطفته وعقله ، وأن سبب ذلك هو اقتناعه بصواب المسلك ، ونجاح الوسيلة ، وأن مخالفة العاطفة للعقل عنده أحيانا لم تحل دون حياة شعره وخلود أثره ، وأن مرد ذلك إلى البراعة الفائقة ، والشاعرية الفذة . ومن أمثال ذلك قوله فى مدح كافور :

أبا كلِّ طيبٍ ، لا أبا المسكِ وحدهُ   وكلَّ سحابٍ ، لا أخصُّ الغواديا

وقوله فى تلك القصيدة :

قواصدُ كافورٍ ، توارِكُ غيرِهِ   ومَنْ طلبَ البحرَ استقلَّ السواقيا

(٦) كان المتنبي بارعا كل البراعة فى الغوص على المعانى . والتقاط دررها ، وفى اقتناص الشوارد والتلطف لأبيّها . وفى إبراز التشبيهات الرائعة المحكمة . وأنت خبير بما للتشبيه الجيد من أثر بليغ فى نفوس القراء ، فما التشبيه البارع إلا صورة فنية ناب فيها البيان عن ريشة المصور ، وقد يؤدى التشبيه البارع من المعانى الروحية والعواطف النفسية ما يقصر دونه جهد المصورين . ولا شك أن شعرا ذلك شأنه ، حرى بأن تحرص عليه النفوس حرصها على المشاهد الرائعة من مشاهد الفن الجميل ، ولا شك أن شعر المتنبي ـ وهو غنى بتشبيهاته ومعانيه الرائعة ـ جدير بالحياة والخلود .

وإليك طائفة من روائع التشبيهات فى شعر أبى الطيب ، وما هى إلا صبابة من فيض عميم ؛ لتدرك مبلغ أثرها فى حياة شعره ، وتعرف مقدار عذر الناس فى الافتتان به . والتوفر على درسه . ووضعه فى الهامة من عباقرة الشعر . قال أبو الطيب فى وصف معركة :

والطعنُ شزْرٌ ، والأرضُ واجفةٌ   كأنما فى فؤادها وَهَلُ

قد صبغتْ خدَّها الدماءُ ، كما   يصبغُ خدَّ الخريدةِ الخجلُ

والخيلُ تبكى جلودُها عرقًا   بأدمعٍ ما تسحُّها مُقَلُ

وقال يصف الخيل إثر معركة :

خرجْنَ من النقعِ فى عارضٍ   ومن عرقِ الركضِ فى وابلِ

وقال يصف كريماً فى مجلس شرابه :

رأيتُ الْحُمَيَّا فِى الزُّجَاجِ بِكَفِّهِ فَشَبَّهْتُهَا بِالشَّمْسِ، فِى الْبَدْرِ، فى الْبَحْرِ

وقال فى الغزل (وعجيب أن يجود الغزل من ذلك الشاعر المتكبر، على أنه لا يخلو من مظاهر القوة، ولا يتحله روح الضنى والخنوع)

سَفَرَتْ، وَبَرْقَعَهَا الحَيَاءُ بِصُفْرَةٍ سَتَرَتْ محَاسِنَهَا، وَلَمْ تَكُ بُرْقُعَا

فَكَأَنَّه ـ وَالدَّمْعُ يَقْطُرُ فَوْقَهَا ـ ذَهَبٌ بِسِمْطَىْ لُؤْلُؤٍ قَدْ رُصِّعَا

نَشَرَتْ ثَلاثَ ذَوَائِبٍ مِنْ شَعْرِهَا فى لَيْلَةٍ، فَأَرَتْ لَيَالِىَ أَرْبَعَا

وَاسْتَقْبَلَتْ قَمَرَ السَّمَاءِ بِوَجْهِهَا فَأَرَتْنِىَ الْقَمَرَيْنِ فى وَقْتٍ مَعَا

وقال يصف خصر غادة هيفاء:

وخصرٍ تَثْبُتُ الأَبْصَارُ فيهِ كأَنَّ عَلَيْهِ مِنْ حَدَقٍ نِطَاقَا

وقال فى وصف الأسد:

يَطَأُ الثَّرَى مُتَرَفِّقًا مِنْ تِيهِهِ فَكَأَنَّهُ آسٍ يَجُسّ عَلِيلاَ

وقال فى المدح:

تُشْرِقُ تِيجَانُهُ بِغُرَّتِهِ إِشْرَاقَ أَلْفَاظِهِ بِمَعْنَاهَا

إلى غير هذا مما فاض به ديوانه . فليراجعه هنالك من أراد .

(٧) المتنبي قوى النفس، واسع المعرفة بأسرار اللغة؛ ومن كان مثله لا يتناول فى الأغلب إلا المعانى القوية، ثم لا يعييه إبرازها فيما يلائمها من الألفاظ الجزلة القوية، ولذلك غلب على شعره وصف الجزالة ومظهر القوة، حتى فى الغزل والنسيب؛ والشعر الجزل العبارة، القوى الأسلوب والفكرة، يكون أفعل فى النفس من غيره، ويكون تأثرها به أكثر. وهذا من عوامل الخلود فى شعر المتنبي: وإليك أمثلة لذلك: قال أبو الطيب يصف عظيما لقيه بعد أن سمع

بفضله ، فلما رآه طابق الخُبْرُ الخبرَ :

وَمَازِلْتُ،حَتَّى قادَنِى الشَّوْقُ نَحْوَهُ   يُسَايِرُنِى فى كُلِّ رَكْبٍ لَهُ ذِكْرُ

وَأَسْتَكْبِرُ الأَخْبارَ قَبْلَ لِقائِهِ   فَلَمَّا الْتَقَيْنَا صَدَّقَ الْخَبَرَ الْخُبْرُ

وقال مں قصيدته التى يودع فيها مصر ، فارا من وجه كافور :

لَمْ يَتْرُكِ الدَّهْرُ مِنْ قَلْبِي وَلاَ كَبِدِى   شَيْئًا تُتَيِّمُهُ عَيْنٌ وَلاَ جِيدُ

يَاسَاقِيَيَّ ، أَخَمْرٌ فى كُئُوسِكُمَا ؟   أَمْ فى كُئُوسِكُمَا هَمٌّ وَتَسْهِيدُ ؟

أَصَخْرَةٌ أَنَا ؟ مَالِي لاتُحَرِّكُنِى   هٰذِى الْمُدَامُ وَلاَ تِلْكَ الأَغارِيدُ ؛

إِذَا طَلَبْتُ كُمَيْتَ اللَّوْنِ صافِيَةً   وَجَدْتُهَا وَحَبِيبُ النَّفْسِ مَفْقُودُ !

وأنت ترى أن البيت الرابع بمنزلة العلة عما سبقه .

وقال فى الوداع :

النَّاسُ ـ مَالَمْ يَرَوْكَ ـ أَشْبَاهُ   وَالدَّهْرُ لَفْظٌ ، وَأَنْتَ مَعْنَاهُ

والْجُودُ عَيْنٌ ، وَأَنْتَ نَاظِرُهُ   والبَأْسُ بَاعٌ ، وَأَنْتَ يُمْنَاهُ

يَا رَاحِلاً كُلُّ مَنْ يُوَدِّعُهُ   مُوَدِّعٌ دِينَـــهُ وَدُنْيَاهُ ؛

إِنْ كَانَ فِيمَا تَرَاهُ مِنْ كَرَمٍ   فِيكَ مَزِيدٌ فَزَادَكَ اللهُ !

وقال فى رثاء أخت سيف الدولة ، وقد بلغه نعيها وهو بالعراق إثر عودته من مصر :

طَوَى الْجَزِيرَةَ حَتَّى جَاءَنِى خَبَرٌ   فَزِعْتُ مِنْه بِآمَالِى إِلَى الْكَذِبِ

حَتَّى إِذَا لَمْ يَدَعْ لِى صِدْقُهُ أَمَلاً   شَرِقْتُ بِالدَّمْعِ ،حَتَّى كَادَ يَشْرَقُ بِى

وقال فى الرثاء :

وَقَدْ فَارَقَ النَّاسُ الْأَحِبَّةَ قَبْلَنَا   وَأَعْيَا دَوَاءُ الْمَوْتِ كُلَّ طَبِيبِ

سبقنا إلى الدُّنيا ، فلو عاش أهلُها   مُنِعْنا بها من جَيئةٍ وذُهوبِ
تملّكها الآتى تملُّكَ سالبٍ   وفارقها الماضى فراقَ سليبِ

إلى غير هذا . وما أكثره فى شعر أبى الطيب ! ولعل فى هذا عبرة لمن همهم من الشعر ذلك الضعف المزرى والأساليب النائحة الواهية .

(٨) فى المتنبى - مع وقاره وعظمته - لون من الفكاهة اللاذعة ، يظهرها أحيانا على مرآة شعره تهكما لاذعاً ، وهجوا مقذعا ، أخاذا ، فيكون فعلها فى النفس بعيد المدى ، عميق الأثر . ومن الذى لا تعجبه فكاهة المتنبى ، إذ يهجو كافورا بقوله :

وأسودُ مِشْفَرُهُ نصفُهُ   يُقالُ له أنتَ بدرُ الدُّجَى

وإذ يقول :

لقد كنتُ أحسِبُ قبلَ الخَصِىِّ (م) أنّ الرؤوسَ مقرُّ النُّهَى
فلمّا نظرْتُ إلى عقلِهِ   رأيتُ النُّهَى كلَّها فى الخُصَى

وإذ يقول فى هجاء (إسحق بن ابراهيم بن كَيَغْلَغ) :

وإذا أشارَ مُحدِّثًا فكأنّهُ   قِردٌ يُقهقِهُ ، أو عَجوزٌ تلطِمُ

(٩) كان أبو الطيب خبيراً بفن الشعر ، يعرف ما يصلح لكل معنى من البحور والألفاظ والقوافى . فيضع كلا فى القالب الذى يلائمه ، فيجرى معناه البديع ، ولفظه المطابق ، وخياله الرائع فى سنن واحد مع موسيقية الشعر والقافية ؛ وإذا اجتمعت هذه الصفات فى شعر كان فى الذروة من الشعر . فليس عجيبا أن يحيا وتستفيض روايته .

انظر إليه كيف اختار بحر المتقارب ، الكثير المقاطع ، السريع الاضطراب ، ليصب فيه معانى رحلته الشاقة ، حين ترك مصر فارا من وجه كافور . وهى معان لا شك كثيرة الاضطراب ، متقلبة الخواطر ، فياضة بالمزعجات ، فكأنما يسمعنا حداء الحادى ، ويرينا وَخْدَ الرواحل ، ويقفنا على اختلاج القلوب ، إذ يقول :

ألا كُلُّ ماشيةِ الخيزلى فِدَا كُلُّ ماشيةِ الهيدبى

بل انظر إليه كيف اهتدى إلى بحر البسيط . الفسيح الجنبات ، الهادى المقاطع . ليصب فيه عواطفه الحزينة ، ويأسه البعيد المدى ، يوم ودّع مصر فى يوم العيد . وخيبة الأمل تحز فى نفسه ، فجاء بتلك القصيدة الرائعة ، ذات اللفظ الحزين . والقافية الهادئة ، وهى التى مطلعها :

عيدٌ ، بأيّةِ حالٍ عُدْتَ يا عيدُ ؟ بما مَضَى ، أم لأمرٍ فيكَ تجديدُ ؟

أمّا الأحِبّةُ فالبَيْداءُ دُونَهُمُ فَلَيْتَ دُونَكَ بِيداً دُونَها بِيدُ !

لَوْلا الهَوَى لم تَجُبْ بِي ما أجُوبُ بِها وَجْناءُ حَرْفٌ ، وَلا جَرْداءُ قَيْدُودُ

وكان أطيبَ مِن سَيْفِي مُضاجَعَةً أمْثالُ رَوْنَقِهِ الغِيدُ الأماليدُ

وإن المتأمل فى كل قصائد المتنبى ، لا يخالفنا فى أنه موفّق جد التوفيق ، فى اختيار البحور والقوافى ، والألفاظ والأساليب ، وأن هذا من عناصر الحيوية الشعرية فى شعره .

١٠ — لعله لا يكون عجبا أن أرى أن إغراب المتنبي وتعقيده الألفاظ والمعانى أحيانا ، كان سببا من أسباب خلود شعره ، فإن المتنبي شاعر تيّاه ، كثير التجنّى على منافسيه وحسّاده ، فهم من أجل ذلك يتربصون به الدوائر ، ويتسقطون غلطه ، ويتلمسون هنواته ، فإذا جاء — قاصدا أو غير قاصد — ببيت فيه تعقيد أو مخالفة للقواعد المشهورة عندهم ، أصبح عرضة لسهام نقدهم ، ولما كان هؤلاء المنافسون من أولى الجاه والمنزلة الأدبية والعلمية ، وقد أطالوا فى نقده ما شاء لهم بغضهم للشاعر ، وحرصهم على الإزراء به — تناقل الناس ذلك النقد ، وتناقلوا معه موضوعه ، فاشتهر من كلام المتنبي جميع شعره ، حتى ما كان محل نقد ، وما كان فيه مغامز ، وما لم تتوافر فيه عناصر الحياة الشعرية الحقة التى أسلفنا الكلام عليها .

ومن ذلك قوله :

أنّى يكُونُ أبا البَرِيّةِ آدمٌ وأبُوكَ — والثَّقلانِ أنتَ — محمّدُ

وقد خرجه النحاة على أن المراد (كيف يكون آدم أبا البرايا ، وأبوك محمد ، وأنت الثقلان ؟)

وقوله :

فِدًى مَنْ عَلَى الْغَبْرَاءِ (أَوَّلُهُمْ أنا) لِهٰذَا الأَبِيِّ الْمَاجِدِ الْجَائِدِ الْقَرْمِ

وقوله :

لَعَمْرِي لَأَنْتَ السَّيْفُ ، لا مَا سَلَلْتَهُ لِضَرْبٍ ، وَ مِمَّا الْغِمْدُ مِنْهُ لَكَ الْغِمْدُ

ولعله ما كان يصل إلينا شيء من هذا الكلام وأشباهه ، فيستنفد من الطلاب والمدرسين مجهوداً كبيراً ، لولا كراهية بعض العلماء لأبي الطيب المتنبي ؛ فأبو الطيب مجدود حتى فى ناحية الضعف من شعره .

محمود البشبيشى
المدرس بدار العلوم



غزل المتنبي

ونصيب الخيال والفلسفة فيه

بقلم السباعي بيومي

المدرس بدار العلوم العليا

فتح المتنبي عينيه على الوجود فى مبدأ القرن الثالث الهجرى، قرن انحلال الدولة العباسية، وانتشار الفتن والاضطرابات. وطمع كل ذى نفوذ وسلطان أن يستبد عليا بما فى يده من أرضين، مادامت الخلافة قد هان أمرها على الناس. وما دام الخلفاء قد أصبحوا ألعوبة فى أيدى الخدم الأتراك ببغداد: يعزلونهم ويولونهم. ويمعنون فيهم تعذيبا، تنكيلا، وقتلا وتمثيلا: دون أن يُنالوا بسوء. أو يؤخذوا بقصاص، كما قال يزيد المهلبي من رثائه المتوكل على الله، أول خليفة فُتح به هذا العدوان، عدوان القتل:

لايدفع النـاس صبحا بعد ليلتهم   إذ لا تمد إلى الجانى عليك يد

وقد جاء تفتيح عينه هـذا فى الكوفة. القريبة من مرجل الاضطراب، والمشاهدة عن كثَب تنازع المطامع والأهواء: والتى كانت هى نفسها مهد فتنة، ومطمع ثوار، منذ أيام الزنج وغير الزنج بسواد العراق: فنشأ لذلك ثائرا، لايهدأ له بال، ولا يقر منه قرار، يريد لنفسه مايريد أولئك الثائرون، ويطمع من هذا الملك الممزق فى أمثال ما يطمعون. وكان أن انتقل به أبوه من العراق إلى الشام. فاذا القرامطة يملئون بواديها، ويروّعون أهلها: وإذا المتنبي يرى مثل مايرون، ويهيء لنفسه خروجا وإن كان لم يصل فيه إلى نجاح. هو خروجه للملك لا لنبوّة كما يدعون.

نقول هـذا عن نشأة المتنبي، غير مقصود لذاته، وإلا أطلناه وفصلناه: إنما نقوله تمهيدا للموضوع الذى عَنْوَنّاه. ووجه التمهيد به هو تكوين المتنبي بحكم

نشأته ، بعيدا عن مواطن اللهو بالنساء و بغير النساء ، بقدر اقترابه بل انغماسه فى مواطن الجد وخطيرات الأمور ، وهل أشغل له عن تلك ، وأهم فى هذه ، من أن يكون طالب ملك و سلطان ؟ قيل له وهو صبي فى المكتب : ما أحسن هذه الوفرة ! فقال :

لا تَحْسُنُ الوَفْرَةُ ، حَتَّى تُرَى مَنْشُورَةَ الضَّفْرَيْنِ يَوْمَ القِتَالْ
عَلَى فَتًى مُعْتَقِلٍ صَعْدَةً يَعُلُّهَا مِنْ كُلِّ وَافِى السِّبَالْ

وطلب إليه مرة أن يشرب على بطيخة رمى بها إليه ، فقال :

ما أنا وَالخمرُ وَبِطِّيخَةً سوداءَ فِي قِشْرٍ مِنَ الخَيْزُرَانْ؟
يَشْغَلُنِي عَنْهَا وَعَنْ غَيْرِهَا تَوْطِينِيَ النَّفْسَ لِيَوْمِ الطِّعَانْ
وَكُلُّ نَجْلاءَ لَهَا صَائِكٌ يَخْضِبُ مَا بَيْنَ يَدِي وَالسِّنَانْ

وأشعاره الناطقة بشغلته عن الخمر بالقتال ، تسود كثيرا من صفحات الديوان ؛ فاسمع إليه يقول :

لِأَحِبَّتِي أَنْ يَمْلَئُوا بِالصَّافِيَاتِ الأَكْوُبَا
وَعَلَيْهِمُ أَنْ يَبْذُلُوا وَعَلَيَّ أَلَّا أَشْرَبَا
حتى تَكُونَ البَاتِرَا تُ المُسْمِعَاتِ فأطْرَبَا !

واسمع إليه يبين نوع المعاقرة الذى يهواه :

أُفَكِّرُ فى مُعَاقَرَةِ المَنَايَا وَقَوْدِ الخَيْلِ مُشْرِفَةَ الهَوَادِى
زَعِيمٌ لِلْقَنَا الخَطِّيِّ عَزْمِى بِسَفْكِ دَمِ الحَوَاضِرِ وَالبَوَادِى !

ثم اسمع إليه يبين رأيه فى خضرة العيش ، ونُعمى الحياة :

مُحِبِّي قِيَامِى ، مَا لِذَلِكُمُ النَّصْلِ بَرِيئًا مِنَ الجَرْحَى ، سَلِيمًا مِنَ القَتْلِ ؟

أرى بن فرندى قطعة فى فرنده وجودة ضرب الهام فى جودة الصقل
وخضرة ثوب العيش فى الخضرة التى أرتك احمرار الموت فى مدرج النمل!

وكما أبعدته تلك النشأة الطامعة فى الملك بالحرب والقتال ، عن لهو الخمر بالمعاقرة والمنادمة ، أبعدته كذلك عن اللهو بالنساء ، وأبعدت النساء عن أن يرين فيه خليلا يُحب ، أو صديقا يُهوى ، فتركه وتركهن ، وأحس ذلك من نفسه إحساسا عميقا ، فاض على لسانه فى كثير من أشعاره : قال فى نغضة الملاح إياه ، وفقدانه لذة الحب لجده :

وترى المروءة والفتوة والأبو م ة فى كل مليحة ضراتها
هن الثلاث المانعاتى لذتى فى خلوتى ، لا الخوف من تبعاتها

وقال يرى همه فى بسمات الأسياف ، لا بسمات الثغور :

ومبتسمات هيجاوات عصر عن الأسياف ، ليس عن الثغور
ركبت مشمرا قدمى إليها وكل عذافر قلق الضفور

ثم قال يذكر سلوانه عن حبيب كان فى تعذيبه وتسهيده كما قال :

يا من تحكم فى نفسى ، فعذبنى ومن فؤادى على قتلى يضافره
بعودة الدولة الغراء ثانية سلوت عنك ، ونام الليل ساهره
من بعد ما كان ليلى لا صباح له كأن أول يوم الحشر آخره

لهذا ما كان المتنبى عاشقا ، ولا خلق ليكون غزلا ؛ ولكن ماذا يصنع ، وقد جرت عادة العرب أن تبتدىء قصيدها بالغزل والنسيب ، فى كثير من أغراض الشعر ، ولا سيما المديح ؟ وهو عربى يفخر بعربيته ، ولا يرضى من هذه العربية إلا أن يكون بدويا يحب البادية ، ويتعشق صفات أهلها ، اللهم لا مندوحة له ولا مناص أن يبدأ قصائده بالغزل ، كما كانت تبدأ العرب ، فيقف على

الطلول باكيا، ويذكر المرأة واصفا وناسبا. ومن هنا كان المتنبى غزل وكان له نسيب، يحوله أحيانا إلى صفات من يمدح، لا إلى صفات الغوانى، كما يقول:

إذا كَانَ مَدْحٌ، فَالنَّسِيبُ الْمُقَدَّمُ أَكُلُّ فصيح قال شعراً مُتَيَّمُ ؟

لَحُبُّ ابنِ عَبدِ اللهِ أَولَى، فَإِنَّهُ به يُبدَأُ الذِّكْرُ الجميلُ ويختمُ

أطمعتُ الغوانى قبلَ مطمح ناظرى إلى مَنظرٍ يصغُرْنَ عنهُ ويعظمُ

على أن المتنبى - وهو الغنى الوصف، الخصب الخيال، الجبار العقل - وإن قصر النسيب والغزل على مطالع قصائده، ولم يختصه بقصيدة مطلقا، ولا بمقطعة إلا يسيرا - لم يكن ليقنع منه بغير الجيد الكثير فى كل ماطرقه الشعراء الغزلون، وإن وقع فى أشياء لم يكن ليقع فيها هؤلاء المدعوون إلى الغزل عن قصد واختيار.

هذا وإنا لمتناولون ما تناوله المتنبى فى الغزل، تحت عناوين جزئية تسهيلا لعرضه، وحصرا لما نريد أن نقول؛ لأنه صدر عنه فى ناحيتى الحس والمعنى متشعب النواحى ذا سعة وطول.

١ - وصفه لآيات الحسن والجمال

أفاض المتنبى فى هذه الناحية وأجاد، فلم يدع شيئا من محاسن المرأة إلا تناوله، كاشفا عن وجه الحسن فيه، وجاعلا لعقله وخياله من هذا الكشف نصيبا أى نصيب.

فمن مظاهر الحسن التى راقته وأعجبته: إضاءة الوجه وإشراقه، فى سواد الشعر وحلوكته، لأنه يرى فى الجمع بين الأضداد زيادة فى الفتنة، وقوة فى الألم: قال يصور هذا، ضاما إليه عجبه من قامة كالغصن النابت على رملتى فلاة:

غُصْنٌ عَلَى نَقَوَىْ فَلَاةٍ نَابِتٌ شمسُ النهار تُقِلُّ لَيلاً مُظْلِمَا

لم تُجْمَعِ الأضدادُ فى مُتَشابِهٍ إلاَّ لتجعلَنى لغُرْمى مَغْنَمَا

وقال ينسب ظلم هذا المظهر له ، كظلم متنيها لخصرها :

ظلومٌ كمتنيها لصبٍّ كخصرها ضعيفِ القوى من فعلها يتظلمُ
بفرعٍ بعيدٍ لليلِ والصبحِ نيّرٌ ووجهٍ يعيدُ الصبحَ والليلُ مظلمُ

وقال ينسب إلى العواذل الاعتراف بهذا الحسن :

رأت وجه من أهوى بليلٍ عواذلى فقلن : نرى شمسًا ، وماطلع الفجرُ

وقال وقد تصور تعدد الليل بتعدد ذوائبها ، وتعدد القمر بوجهها :

نشرتْ ثلاثَ ذوائبٍ من شعرها فى ليلةٍ ، فأرتْ ليالىَ أربعا
واستقبلتْ قمرَ السماء بوجهها فأرتنيَ القمرينِ فى وقتٍ معا

وقال وقد تصور الوجه بدر تمام أعطاه السقم محاقا ، وهدى النوق بغير أزمة :

وقد أخذ التمامَ البدرُ فيهمْ وأعطانى من السقمِ المحاقا
وبينَ الفرعِ والقدمينِ نورٌ يقود بلا أزمّتها النياقا

وعلى هذا التصور يقول زائدا عليه تصوره المحبوبة فى الخدر على العيس نورا فى الكمائم :

سقاكِ وحيّانا بكِ اللهُ ، إنما على العيسِ نورٌ ، والخدورُ كمائمُه
وماحاجةُ الأظعانِ حولكِ فى الدجى إلى قمرٍ ما واجدٌ لكِ عادمُه ؟
إذا ظفرتْ منكِ العيونُ بنظرةٍ أثابَ بها مُعيي المطىِّ ورازمُه

على أنه قد يفرد الوجه عن الشعر ولكنه يقرن به بديلا يزيده فتنة وجمالا ، كأن يتصور عليه قناعا يحد من ضوئه كحد الغمام الرقيق من ضوء البدر ، ولكنه يستفيد منه فيقول :

كأنَّ نقابها غيمٌ رقيقٌ يُضيء بمنعِه البدرَ الطلوعا

عمرك الله ! هل رأيت بدوراً طلعت في براقع وعقود؟

كما قد يفرد الشعر عن الوجه ويقرنه كذلك ببديل كتضمخه بالطيب مثلا إذ يقول :

ذات فرع كأنما ضرب العنـــبر فيه بماء وردٍ وعودِ
حالكٍ كالغداف جثل دجوجيّ م أثيث جعد بلا تجعيد
تحمل المسك من غدائرها الريــــح وتفتر عن شتيت برود

وإنه لجميل منه أن يشتق - من ذلك الضوء الباهر وهذا العنبر الفاضح - اطمئنان الرقباء إلى عدم زيارتها ليلا فيقول :

أمن ازديارك في الدجى الرقباء إذ حيث كنت من الظلام ضياء
قلق المليحة - وهي مسك - هتكها ومسيرها في الليل ، وهي ذكاء

وهذه الزيادة في المعاني أبدا دأبه ، كما رأيت فيما تقدم وفي غيره مما يقنع فيه سواه بغير المزيد ، فكثير من الشعراء يتصور محبوبته في الخدر قمرا ، وفي الستائر شمسا ، ثم يقف عند هذا متعجبا من المخالفة بينها وبين القمر والشمس في متعة الناس بهما سافرين ، وعدم استمرار حجابهما . أما المتنبي فيرى ستر محبوبته على العيس عصمة من أن يضل الركب إذا ظهرت فيقول :

أملت ساعة ساروا كشف معصمها ليلبث الحي دون السير حيرانا
ولو بدت لأتاهتهم ؛ فحجبها صون عقولهم من لحظها صانا
بالواخدات وحاديها وبي قمر يظل من وخدها في الخدر خشيانا

ويرى في سترها بالحجال عجبا في تأثير الشمس فيها - وهي مستورة - بالسمرة تلقيها على شفتيها لمى كأنها قبلتها ، كما يتأثر هو بها إذ تصحبه على الفلاة ظاهرا ، ويزيد أنها تسقمه أكثر من ذلك فيقول :

صَحِبَتْنِى عَلَى الفَلاةِ فَتَاةٌ　　عَادَةَ اللَّوْنِ عندَهَا التَّبْدِيلُ

سَتَرَتْكَ الحِجَالُ عَنْهَا، ولكنْ　　بكِ مِنهَا مِنَ اللَّمَى تقبيلُ

مِثْلُهَا أنتِ، لوَّحَتْنِى وَأسْقَمْـــتِ، وَزَادَتْ أَبْهَاكُمَا العُطْبُولُ

وأحيانا يقف عند البياض الظاهر، يردفه بما يغرى بمستوره، ويطمع فيه، ثم يجعل هذا الطمع بعيد التحقيق، كأن يقول:

بيضاءُ تُطْمِعُ فيما تحتَ حُلَّتِها　　وَعزَّ ذَلِكَ مطلوبًا إذا طُلِبا!

كأنَّهَا الشمسُ يُعْيِى كفَّ قابضِهِ　　شُعاعُهَا، وَيَراهُ الطرْفُ مُقْتَرِبَا

وكم كان المتنبى مخترعا ومبدعا، فى تصويره إشراق البياض، وقد خالطته صفرة الحياء، بقرن الشمس يخالط القمر، وبالذهب يصبغ الفضة، ممهدا لذلك باصفرار نفسه إذ يقول:

قَالَتْ، وقدرأتِ اصْفِرَارِى: مَنْ بهِ؟　　وَتَنَهَّدَتْ، فأَجَبْتُهَا: المُتَنَهِّدُ

فمضَتْ وقَدْ صبَغَ الحَيَاءُ بَيَاضَهَا　　لَوْنِى، كما صبغَ اللُّجَيْنَ العسْجَدُ

فرأيْتُ لَوْنَ الشَّمْسِ فِى قَمَرِ الدُّجَى　　مُتَأَوِّدًا غُصْنٌ بِهِ يتأوَّدُ

وكذلك يقول فى صفرة الفراق وقد قطر عليها الدمع:

سَفرتْ، وبَرْقَعَهَا الفِراقُ بِصُفْرَةٍ　　سترَتْ محاجرَها ولم تَكُ بُرْقُعَا

فكأنَّها ـ والدَّمْعُ يقطُرُ فوقَها ـ　　ذهبٌ بِسِمْطَىْ لؤلؤٍ قَدْ رُصِّعَا

ومن المناظر التى استهوته، فحركت خياله إلى الهيام بها، والتحدث عنها، سحر العيون وأثره فيه وفى الحبيبة نفسها. قال يذكر قتلى العيون، ذاكرا قبلها بياض النحور وحمرة الخدود:

كَمْ قتيلٍ كما قَتلتِ شهيدِ　　لِبَيَاضِ الطُّلَى، وَوَرْدِ الخُدودِ

وعُيُونِ المَهَا ، ولا كَعُيُونٍ فَتَكَتْ بِالْمُتَيَّمِ الْمَعْمُودِ
رَامياتٍ بِأَسْهُمٍ رِيشُها الهُدْ بُ تَشُقُّ القلوبَ قبلَ الجلودِ
حمّتْ بينَ جسْمِ أحمدَ والسُّقْــــمِ ، وبيْنَ الجُفُونِ والتّسْهيدِ

وقال يفدى عينيها بما لقى منهما : وما كان ممن يعشقون لولا رؤيتها :

لِعَيْنَيْكِ ما يَلْقَى الفُؤَادُ وَمَا لَقِي وللحُبِّ ما لَمْ يبْقَ مِنِّي وما بَقِي
وَما كُنْتُ مِمَّنْ يَدْخُلُ العِشْقُ قَلْبَهُ وَلٰكِنَّ مَنْ يُبْصِرْ جُفُونَكِ يَعْشَقِ
وَبَيْنَ الرِّضَا والسُّخْطِ والقُرْبِ والنَّوى مَجَالٌ لِدَمْعِ الْمُقْلَةِ المُتَرقْرِقِ

وقال يذكر سيوف ألحاظها وحمرة ظباها من دمه :

رَأَيْنَ الَّتِي للسِّحْرِ فِى لَحَظَاتِها سيُوفٌ ، ظُبَاهَا مِنْ دَمِى أبدًا حُمْرُ
تَنَاهَى سُكُونُ الحُسْنِ فى حَرَكَاتِها فلَيْسَ لِرَائِى وَجْهِهَا لَمْ يَمُتْ عُذْرُ

ولم يقف خياله بالحمرة عند طبا سيوفها بل نقلها إلى وجهها . فجعل حمرة الخدود منه [illegible] ذ يقول:

ما بالُهُ ؟ لاحظتُهُ فتض[illegible]تْ وَجَنَاتُهُ ، وَفُؤَادِىَ المَجْرُوحُ
وَرَمَى ، وَمَا رَمَتَا يَدَاهُ ، فَصَابَنِى سَهْمٌ يُعَذِّبُ ، والسِّهَامُ تُرِيحُ

كما جعل القلادة كذلك فقال :

إنَّ الَّتى سفَكَتْ دَمِى بجُفُونِها لمْ تَدْرِ أنَّ دَمِى الَّذِى تتقلَّد

ثم لايعيب عنه أن يصور اتساع العين بصورة الجراح التى تحدثها فى حشاه نجلاء. فيقول:

مَثَّلْتِ عَيْنَكِ في حَشَاىَ جِرَاحَةً فتَشَابَهَا ، كِلْتَاهُمَا نَجْلاءُ
نَفَذَتْ عَلَىَّ السَّابِرِىَّ ، وَرُبَّمَا تَنْدَقُّ فِيهِ الصَّعْدَةُ السَّمْرَاءُ

كُلُّ جَرِيحٍ تُرْجَى سَلامَتُهُ إلاَّ فُؤاداً رَمَتْهُ عَيْنَاهَا

ولكنه لا ينسى أن يرى الشفاء فى يد الرامية نفسها اذا أرادته فيقول:

وفتّانةَ العينَيْن قتّالةَ الهوَى إذا نفحتْ شيخًا روائحُها شبا

ولم يفته وصف العيون، وما تتركه فى نفوس المودعين يوم الفراق، فيقول مبدعا:

ولَمْ أرَ كالألحاظِ يومَ رحيلهمْ بَعثْنَ بكلِّ القتلِ مِنْ كلِّ مُشفِقِ

أدَرْنَ عُيُونًا حائراتٍ، كأنَّها مُرَكَّبةٌ أحْداقُها فوقَ زئبقِ

عَشيَّةَ يَعْدُونا عَنِ النَّظرِ البُكا وَعَنْ لذةِ التوْديعِ خَوْفُ التفرُّقِ

وقد سبح به الخيال وراء حسبانه العيون سيوفا إلى حسن التعليل لتسمية أغطيتها جفونا، فقال:

مِنْ طَاعِنِي ثُغَرِ الرِّجَالِ جآذِرٌ وَمِنَ الرِّمَاحِ دَمالِجٌ وَخَلاخِلُ

وَلِذَا اسْمُ أغطيةِ العُيونِ جُفُونُهَا مِنْ أنَّها عَمَلَ السُّيُوفِ عَوامِلُ

ومما استهواه فأحسن التصرف فى نعته وأبدع التخيل فيه: الثغر. وما به من أسنان وريقة، ومايصدرعنه من نكهة وكلام. قال يذكره من هذه النواحى متعجبا من إعقاب برودة الريق حرارةَ وجد فى الفؤاد:

تَرَشَّفْتُ فاهَا سُحْرَةً، فَكأنَّنِى تَرَشَّفْتُ حَرَّ الوَجْدِ من بَارِدِ الظَّلْمِ

فَتَاةٌ، تَسَاوَى عِقْدُهَا وَكَلامُهَا وَمَبْسِمُهَا الدُّرِّىُّ فى الحُسْنِ والنَّظْمِ

ونَكْهتُهَا، والمَنْدَلِىُّ، وقَرْقَفٌ مُعَتَّقَةٌ صَهْبَاءُ فى الرِّيحِ وَالطَّعْمِ

وقال يذكر الذى منه تعجب فى الأبيات السابقة ومعه غيره من أوجه المشابهات التى عميت عليه:

أريقُكِ، أم ماءُ الغمامةِ، أم خمرُ؟ بفيَّ برودٌ، وهوَ في كبدي جمرُ
أذا الغصنُ أم ذا الدعصُ أم أنتِ فتنةٌ؟ وذيّا الذي قبّلتُهُ البرقُ، أم ثغرُ؟

وعلى ذكر البرق فى هذا البيت الثانى، نراه يتصور أن إمطار عينيه على خديه إنما هو من برق ثناياها، فيقول:

تبلُّ خدّيَّ كلّما ابتسمتْ من مطرٍ برقُهُ ثناياها

بل انظره يتصور أسنانها بردا، فيمتنع عن الدنو منها حتى لا تذوب من حر أنفاسه:

وبسمنَ عن بردٍ خشيتُ أذيبُهُ من حرِّ أنفاسى فكنتُ الذائبا

وأحيانا يتصورها درا، فيعقد بينها وبين القلائد شبها فيقول:

ويبسمنَ عن درٍّ تقلّدنَ مثلَهُ كأنَّ التراقى وُشّحتْ بالمباسمِ

وقد يشط به الخيال فيجعل بشرتها من بشر الدر الذى قلدته، فكان على نحرها المشرق كالشهب على البدر فيقول:

لها بشرُ الدُّرِّ الذى قُلِّدتْ بهِ ولَمْ أرَ بدراً قبلها قُلِّدَ الشُّهُبا

ثم هو لفرط ما يتصوره فى الثغر من حلاوة طعم وطيب نكهة، يتصور أن المطاعم تشكو هجره إياها. وأن سؤرها الباقى يعود عليه من حسنها ما يعود، فيقول:

تشكو المطاعمُ طولَ هجرتِها وصُدُودَها. ومَنِ الذى تَصِلُ؟
ما أسأرتْ فى القعبِ مِنْ لبنٍ تركتْهُ وَهْوَ المسكُ والعسلُ

وهو يجعل لكلامها قوة جاذبية تستهوى الطير إليها فيقول:

مُنعَّمةٌ، مُمَنَّعةٌ، رَدَاحٌ يُكلِّفُ لفظُها الطيرَ الوقوعا

وقد يضن بريقها أن يكون ضربا حين يظلم قدها إذا شبهه غصنا كما يقول:

مظلومةُ القدِّ فى تشبيهِهِ غُصُنًا مظلومةُ الرِّيقِ فى تشبيهِهِ ضَرَبا

وهناك من المحاسن الحسية غير ما ذكرنا كثير ، استدعاه أن يقول فكان حسنا ماقال ؛ قال يعلو بجبينته عن الشمس طلعة . وعن قضيب البان ميسا . ويعجب كيف يضيق عليها الخلخال ، ويغطى هودجها الديباج . وهى ظبية وما عهد هذا فى الظباء :

خَرِيدَةٌ،لَوْ رَأَتْهَا الشَّمْسُ مَا طَلَعَتْ وَلَوْ رَآهَا قَضِيبُ الْبَانِ لَمْ يَمِسِ
مَا ضَاقَ قَبْلَكِ خَلْخَالٌ عَلَى رَشَأٍ وَلاَ سَمِعْتُ بِدِيبَاجٍ عَلَى كُنُسِ

وقال يشبه قدها وقد انفتلت . بسكران من خمر طرفها ، ويتبع ذلك بمجموعة محاسن هى داؤه :

كأنما قدُّها إذا انفتلَتْ سَكْرَانُ مِنْ خَمْرِ طَرْفِهَا ثَمِلُ
الثَّغْرُ وَالنَّحْرُ وَالْمُخَلْخَلُ وَالْمِعْـــصَمُ دَاْئِى ، والْفَاحِمُ الرَّجِلُ

وفى مثل هذه الزحمة من المحاسن يقول :

لَوْلاَ ظِبَاءُ عَدِىٍّ مَا شُغِفْتُ بِهِمْ وَلاَ بِرَبْرَبِهِـمْ ، لَوْلاَ جَآذِرُهُ
مِنْ كُلِّ أَحْوَرَ فى أَنْيَابِهِ شَنَبٌ خَمْرٌ يُخَامِرُهَا ، مِسْكٌ تُخَامِرُهُ
نُعْجٍ مَحَاجِرُهُ ، دُعْجٍ نَوَاظِرُهُ حُمْرٍ غَفَائِرُهُ سُودٍ غَـدَائِرُهُ

ويقول فى أكثر منها:

بِأَبِى الشُّمُوسُ الْجَانِحَاتُ غَوَارِبَا اللاَّبِسَاتُ مِنَ الْحَرِيرِ جَلاَبِبَا
الْمُنْهِبَاتُ عُقُولَنَـا وَقُلُوبَنَـا وَجَنَاتِهِـنَّ النَّاهِبَاتِ النَّاهِبَا
النَّاعِسَاتُ ، الْقَاتِلاَتُ ، الْمُحْيِيَا تُ ، الْمُبْدِيَاتُ مِنَ الدَّلاَلِ غَرَائِبَا

وفى مثل هذا من الجمع بين الشىء وضده يقول :

كُلُّ خُمْصَانَةٍ أَرَقُّ مِنَ الْخَمْـــرِ ، بِقَلْبٍ أَقْسَى مِنَ الْجُلْمُودِ

ويقول فيه كذلك بعد زحمة من المحاسن أيضا :

بَدَتْ قَمَرًا ، وَمَالَتْ خُوطَ بَانٍ ، وَفَاحَتْ عَنْبَرًا ، وَرَنَتْ غَزَالَا

وَجَارَتْ فِى الْحُكُومَةِ ثُمَّ أَبْدَتْ لَنَا مِنْ حُسْنِ قَامَتِهَا اعْتِدَالَا

وقال ينفى عن محبوباته لبسهن الوشى للتجمل ، وتضفيرهن الغدائر للحسن ، ويثبت أن ذلك فى الأول لستر الجمال ، وفى الثانى خشية الضلال ، وما أبدع ذلك حسن تعليل :

لَبِسْنَ الْوَشْىَ لَا مُتَجَمِّلَاتٍ وَلٰكِنْ كَىْ يَصُنَّ بِهِ الْجَمَالَا

وَضَفَّرْنَ الْغَدَائِرَ لَا لِحُسْنٍ وَلٰكِنْ خِفْنَ فِى الشَّعْرِ الضَّلَالَا

بل تجاوز تجريد الملابس أن تكون زينة ، إلى أنها تتزين بهن ، فاذا خلعنها خلت من كل حسن ، وعلى نحو من هذا فعل بالمسك ؛ فقال :

أَمَّا الثِّيَابُ فَتَعْرَى مِنْ مَحَاسِنِهِ إِذَا نَضَاهَا ، وَيُكْسَى الْحُسْنَ عُرْيَانَا

يَضُمُّهُ الْمِسْكُ ضَمَّ الْمُسْتَهَامِ بِهِ حَتَّى يَصِيرَ عَلَى الْأَعْكَانِ أَعْكَانَا

على أنه قد ينسب إلى الوشى إساءة التأثير فى أجسامهن النواعم ، إذ ينقش بها مثله فيقول :

حِسَانُ التَّثَنِّى يَنْقُشُ الْوَشْىُ مِثْلَهُ ـ إِذَا مِسْنَ ـ فِى أَجْسَامِهِنَّ النَّوَاعِمِ

ولم يفته أن يصف من معشوقته حسن حركتها آمنة وخائفة . فيقول فى الأولى :

تُشَبَّهُ الْخَفِرَاتُ الْآنِسَاتُ بِهَا فِى مَشْيِهَا فَيَنَلْنَ الْحُسْنَ بِالْحِيَلِ

ويقول فى الثانية :

نَفُورٌ ، عَرَتْهَا نَفْرَةٌ فَتَجَاذَبَتْ سَوَالِفُهَا وَالْحَلْىُ ، وَالْخَصْرُ وَالرِّدْفُ

وَخَيَّلَ مِنْهَا مِرْطُهَا فَكَأَنَّمَا تَثَنَّى لَنَا خُوطٌ ، وَلَاحَظَنَا خِشْفُ

ولم يـنس الحسنُ الحسى صاحبنا أن يتغزل فى الحسن المعنوى ، فجعله متعة

العاقل العفيف ، وقال يذكر هواه فيه :

وأَغْيَدَ ، يَهْوَى نَفْسَهُ كُلُّ عاقِلٍ … عَفِيفٍ ، وَيَهْوَى جِسْمَهُ كُلُّ فاسِقِ

أديبٌ ، إذا ماجَسَّ أَوْتارَ مِزْهَرٍ … بَلاَ كُلُّ سَمْعٍ عَنْ سِوَاهَا بِعَائِقِ

يُحَدِّثُ عَمَّا بَيْنَ عادٍ وَبَيْنَهُ … وَصُدْغَاهُ فى خَدَّىْ غُلامٍ مُرَاهِقِ

وَمَا الْحُسْنُ فى وَجْهِ الْفَتَى شَرَفاً له … إذَا لَمْ يَكُنْ فِى فِعْلِهِ وَالْخَلاَئِقِ

ومن ذلك كان المتنبي عفيفا ، يفخر بعفته ، ويغالى بها ، فيقول أيضا :

وَمَا كُلُّ مَنْ يَهْوَى يَعِفُّ إذا خَلاَ … عَفَافِى ، وَيُرضى الْحُبَّ والخيلُ تلتقى

وأَحْلَى الْهَوَى مَاشَكَّ فى الوصلِ رَبُّهُ … وَفى الْهَجْرِ ، فهْوَ الدَّهْرَ يَرْجُو وَيَتَّقى

وهو إذا أطلق الحسن أراده من الناحيتين معا ، ثم أعزه بما يحول دون التمتع به من رماح ، كما يقول :

حَبِيبٌ ، كأَنَّ الْحُسْنَ كَانَ يُحِبُّهُ … فَآثَرَهُ ، أَوْ جَارَ فى الْحُسْنِ قَاسِمُهْ

تَحُولُ رِمَاحُ الْخَطِّ دُونَ سِبَائِهِ … وَتُسْبَى لَهُ مِنْ كُلِّ حَيٍّ كَرَائِمُهْ

وَيُضْحِى غُبَارُ الْخَيْلِ أَدْنَى سُتُورِهِ … وَآخِرُهَا نَشْرُ الْكِبَاءِ الْمُلاَزِمُهْ

وكما يقول فى هذا على أنه من محاسن محبوبته :

عَدَوِيَّةٌ ، بَدَوِيَّةٌ ، مِنْ دُونِهَا … سَلْبُ النُّفُوسِ ، وَنَارُ حَرْبٍ تُوقَدُ

وَهَوَاجِلٌ ، وَصَوَاهِلٌ ، وَمَنَاصِلٌ … وَذَوَابِلٌ ، وَتَوَعُّدٌ ، وَتَهَدُّدُ

وكما يقول أيضا :

دِيَارُ اللَّوَاتِى دَارُهُنَّ عَزِيزَةٌ … بِطُولَى الْقَنَا يُحْفَظْنَ لاَ بِالتَّمَائِمِ

ثم يبالغ فى هذا المعنى فيقول :

كُلُّ مَهَاةٍ كأَنَّ مُقْلَتَهَا … تَقُولُ : إِيَّاكُمُ وَإِيَّاهَا

فِيِهِنَّ مَنْ تَقْطُرُ السُّيُوفُ دَمًا إذَا لِسَانُ المُحِبِّ سَمَّاهَا !

وكان يستعذب العذاب ويستلذه فى هذه المنعة المانعة، والعزة الآبية. فيترك مهجته لدى حبيبته تفعل فى عذابها ما تشاء:

هَذِهِ مُهْجَتِى لَدَيْكِ لِحَيْنِى فَانْقُصِى مِنْ عَذَابِهَا، أوْ فَزِيدِى
شَيْبُ رَأْسِى، وَذِلَّتِى، وَنُحُولِى وَدُمُوعِى عَلَى هَوَاكِ شُهُودِى

بل يطلب منها الزيادة فى العذاب ليزيدها هوى، فيقول:

زِيدِى أذَى مُهْجَتِى، أزِدْكِ هَوًى فَأجْهَلُ النَّاسِ عَاشِقٌ حَاقِدْ

وإذ كانت هذه الصفات فى الأعرابيات، وكان الحسن فيهن غير مصنوع، وهو لكلا الأمرين عاشق - فقد جعل هواه للبدويات دون الحضريات؛ وهذه بائيته التى مطلعها:

مَنِ الجَآذِرُ فِى زِىِّ الأعَارِيبِ حُمْرُ الحِلَى، وَالمَطَايَا وَالجَلَابِيبِ؟

قد شرح فى مطلعها ما يتعشق من جمال طبعى، وبعد منال؛ فكان مما قال:

مَا أوْجُهُ الحَضَرِ المُسْتَحْسَنَاتُ بِهِ كَأوْجُهِ البَدَوِيَّاتِ الرَّعَابِيبِ
حُسْنُ الحَضَارَةِ مَجْلُوبٌ بِتَطْرِيَةٍ وَفِى البَدَاوَةِ حُسْنٌ غَيْرُ مَجْلُوبِ
أفْدِى ظِبَاءَ فَلَاةٍ، مَا عَرَفْنَ بِهَا مَضْغَ الكَلَامِ، وَلَا صَبْغَ الحَوَاجِيبِ
سَوَائِرٌ، رُبَّمَا سَارَتْ هَوَادِجُهَا مَنِيعَةً، بَيْنَ مَطْعُونٍ وَمَضْرُوبِ
وَرُبَّمَا وَخَدَتْ أيْدِى المَطِىِّ بِهَا عَلَى نَجِيعٍ مِنَ الفُرْسَانِ مَصْبُوبِ
فُؤَادُ كُلِّ مُحِبٍّ فِى بُيُوتِهِمُ وَمَالُ كُلِّ أخِيذِ المَالِ مَحْرُوبِ
وَمِنْ هَوَى كُلِّ مَنْ لَيْسَتْ مُمَوِّهَةً تَرَكْتُ لَوْنَ مَشِيبِى غَيْرَ مَخْضُوبِ

* * *

٢ ـ موقفه إزاء الوداع والفراق ووقوفه على الأطلال والديار:

لعل أشد ما استرعى المتنبى فى هذين الموقفين البكاء والدمع وما اتسق معهما مما يحدثه فراق الأحبة، والوقوف على طلال ديارهم بعد الرحيل. فقد افتن فى ذلك افتنانا بديعا.

فتارة يجعل الدمع نفوسا سائلة ردا على التسليم فى موقف وداع يتقلب فيه الحشا على جمر الهوى، وترتع منه العين فى روض الحسن فيقول:

أَشَارُوا بِتَسْلِيمٍ فَجُدْنَا بِأَنْفُسٍ ... تَسِيلُ مِنَ الآمَاقِ، وَالسمُ أَدْمُعُ

حَشَاىَ عَلَى جَمْرٍ ذَكِىٍّ مِنَ الْهَوَى ... وَعَيْنَاىَ فِى رَوْضٍ مِنَ الْحُسْنِ تَرْتَعُ

ويقول فى ذلك وقد مهد له بما يجلوه الوداع من محاسن حين تقطع النفس لتقطع الحمول:

لَمَّا تَقَطَّعَتِ الحُمُولُ تَقَطَّعَتْ ... نَفْسِى أَسًى، وَكَأَنَّهُنَّ طُلُوحُ

وَجَلاَ الوَدَاعُ مِنَ الْحَبِيبِ مَحَاسِنًا ... حسَنُ الْعَزَاءِ ـ وَقَدْ جُلِينَ ـ قَبِيحُ

فَيَدٌ مُسَلِّمَةٌ، وَطَرْفٌ شَاخِصٌ ... وَحَشًا يَذُوبُ، وَمَدْمَعٌ مَسْفُوحُ

وتارة يطلب من عينيه أن تسعداه بالبكاء، عادا هذا وفاء من عاشق كل عاشق يرى من يلومه على بكائه عاقا لا يعرف الهوى معرفة أهله فيقول:

وَفَاؤُكُمَا كَالرَّبْعِ أَشْجَاهُ طَاسِمُهْ ... بِأَنْ تُسْعِدَا، والدَّمْعُ أَشْفَاهُ سَاجِمُهْ

وَمَا أَنَا إِلاَّ عَاشِقٌ كُلُّ عَاشِقٍ ... أَعَقُّ خَلِيلَيْهِ الصَّفِيَّيْنِ لاَئِمُهْ

وَقَدْ يَتَزَيَّا بِالْهَوَى غَيْرُ أَهْلِهِ ... وَيَسْتَصْحِبُ الإِنْسَانُ مَنْ لاَ يُلاَئِمُهْ

وتارة يرى فى الدمع وشاية، فيعده من الواشين، لأنه لا يحفظ سرا؛ ولذا لا يسحه إلا فى غفلة الرقيب كما يقول:

نَرَى عِظَمًا بِالْبَيْنِ، وَالصَّدُّ أَعْظَمُ ... وَنَتَّهِمُ الوَاشِينَ، والدَّمْعُ مِنْهُمُ

وَمَنْ لُبُّهُ مَعْ غَيْرِهِ، كَيْفَ حَالُهُ ؟ وَمَنْ سِرُّهُ فِي جَفْنِهِ، كَيْفَ يُكْتَمُ ؟

ولمَّا الْتقَيْنَا ـ وَالنَّوَى وَرَقِيبُنا غَفُولانِ عَنَّا ـ ظَلْتُ أَبْكِى وتَبْسِمُ

فلمْ أرَ بَدْراً ضَاحِكا قبْلَ وَجْهِهَا ولمْ ترَ قَبْلِى مَيِّتاً يَتَكَلَّمُ

فإذا أحدق به الرقباء وغلبه الدمع كما يقول:

حَاشَى الرَّقِيبَ، فَخَانَتْهُ ضَمَائِرُهُ وَغَيَّضَ الدَّمْعَ، فَانْهَلَّتْ بَوَادِرُهُ

وَكاتِمُ الْحُبِّ يَوْمَ الْبَيْنِ مُنْهَتِكٌ وَصَاحِبُ الدَّمْعِ لاَ تَخْفَى سَرَائِرُهُ

سح ماء الشئون فى أكمامه وعجب ـ وهذا الماء روحه ـ كيف عاش بعد انهماله.
فيقول:

مُتَلاَحِظَيْنِ، نَسُحُّ مَاءَ شُئُونِنَا حذراً مِن الرُّقبَاءِ ـ فِى الأَكْمَامِ

أَرْوَاحُنَا انْهَمَلَتْ، وعِشْنَا بَعْدَهَا مِنْ بَعْدِ مَا قَطَرَتْ عَلَى الأَقْدَامِ!

على أن البكاء كان عليه غلابا لا يبقى من الحياء ما يمنعه، فيتفجر الدمع من كل شىء فيه، ويفضح غزالته ويصرعه كما يقول:

قَدْ كَانَ يَمْنَعُنِى الحَيَاءُ مِنَ الْبُكَا فَالْيَوْمَ يَمْنَعُهُ الْبُكَا أَنْ يَمْنَعَا

حَتَّى كَأَنَّ لِكُلِّ عَظْمٍ رَنَّةً فِى جِلْدِهِ، ولِكُلِّ عِرْقٍ مَدْمَعَا

وكَفَى بِمَنْ فضحَ الجَدَايَةَ فاضِحًا لِمُحِبِّهِ، وَبِمَصْرَعِى ذَا مَصْرَعا

وتارة يعقد بين الدمع والبين نسبا فيقول وقد كان يشفق على البصر من الدمع، فهان عليه بالفراق كل عزيز:

قَدْ عَلَّمَ الْبَيْنُ مِنَّا الْبَيْنَ أَجْفَانَا تَدْمَى، وَأَلَّفَ فِى ذَا الْقَلْبِ أَحْزَانَا

قَدْ كُنْتُ أُشْفِقُ مِنْ دَمْعِى عَلَى بَصَرِى فَالْيَوْمَ كُلُّ عَزِيزٍ بَعْدَكُمْ هَانَا

ويقول وقد جعل دمعه مطرا، ولكنه يزيد الخدود محولا، وعهده بالمطر يولى الأرض خصبا ونماء:

فى الخدِّ أنْ عزَمَ الخليطُ رحيلا   مطرٌ تزيدُ بهِ الخُدُودُ مُحُولا

ويقول وقد جعل للنوى مع أثرها فى الدمع أثراً فى الشوق والقلب وحيرة دونها حيرة الضب:

فياشوْقُ ما أبقَى، وَيالِى مِنَ النَّوى   وَيَادَمْعُ ماأجْرَى،وَياقلْبُ ماأصْبَى

لقدْ لعبَ البَيْنُ المُشتُ بها وَبى   وَزَوَّدَنِى فى السَّيْرِ مَازَوَّدَ الضَّبَّا

وقد يعقد هذا النسب بين الدمع والعيس. فيجعله ينطلق بانطلاقها كأنها كانت مناخات فوق الجفون فيقول:

فكانَ مسيرُ عيسِهِمُ ذميلاً   وَسَيْرُ الدَّمْعِ إثْرَهُمُ انهِمَالاَ

كأنَّ العِيسَ كانَتْ فوْقَ جفْنِى   مُناخَاتٍ، فلَمَّا ثُرْنَ سالاَ

ويقول يعرض على حبيته إن كانت ظاعنة مدامعه لملء المزاد وإرواء العيس:

إن كُنْتِ ظَاعِنَةً فإنَّ مَدامِعى   تَكْفِى مَزَادَكُمُ،وَتُرْوِى العِيسَا

وكثيراً ما كان يعقد هذا النسب بين الدمع والربع. فيقول له وقد هيجه للبكاء عاتبا عليه اتخاذه رئم الفلا بدل رئم ذويه:

بكيتُ يا رَبْعُ حتَّى كِدْتُ أُبْكِيكَا   وَجُدْتُ بِى وَبدَمْعِى فى مَغَانيكَا

فعِمْ صَبَاحاً، لقَدْ هيَّجْتَ لى طَرَباً   وَارْدُدْ تحِيَّتَنَا؛ إنَّا مُحَيُّوكَا

بأىِّ حُكْمِ زَمَانٍ صِرْتَ مُتَّخِذاً   رِئْمَ الفَلاَ بَدَلاً مِنْ رِئْمِ أَهْلِيكَا؟

ويقول عنه متسائلا: أيعرف الربع أى دمع كالدم أراق. ويتسلى بلقاء القلوب مع تنائى الأجسام:

أيَدْرِى الرَّبْعُ أىَّ دَمٍ أرَاقَا   وَأىَّ قُلُوبِ هَذَا الرَّكْبِ شَاقَا؟

لَنَا وَلِأهْلِهِ أبداً قُلُوبٌ   تلاقَى، فى جُسُومٍ مَا تَلاقَى

وَما عفت الرِّياحُ لَهُ مَحَلاًّ عَفَاهُ مَنْ حَدَا بِهِمُ وَسَاقَا
فليْتَ هوَى الأحِبَّةِ كَانَ عَدْلاً فَحَمَّلَ كُلَّ قَلْبٍ ما أطاقا!
نظَرْتُ إليْهِمُ وَالعَيْنُ شكرَى فَصارَتْ كُلُّهَا لِلدَّمْعِ مَاقا

ويقول عنه أيضا، وقد جرى فيه دمعه فقضى ما وجب لأهله. ولكنه لم يشفه ولا قارب الشفاء:

دَمْعٌ جَرَى، فقضى في الرَّبْعِ مَاوَجَبَا لِأهْلِهِ وَشفَى، أنّى وَلاَ كَرَبا؟
عُجْنا، فأذهَبَ مَا أبْقَى الفرَاقُ لنَا مِنَ العُقُولِ، وَمَا رَدَّ الذي ذَهَبَا
سَقَيْتُهُ عَبَرَاتٍ ظَنَّهَا مَطَراً سَوَائِلاً مِنْ جُفُونٍ ظَنَّهَا سُحُبَا

وأنت تراه في بيته الأخير قد عقد نسبا جديداً بين الدمع والمطر بهذه المشابهة التي ذكرها فيه، ولكنه لم يقم عليها، فلم يلبث أن حاد عنها إلى جعل دمعه من الدم لا من الماء، حيث يقول عن دار الحبيب:

بَلِيتُ بِهَا رُدْنَيَّ، وَالغَيْمُ مُسْعِدِي وَعَبْرَتُهُ صِرفٌ، وَفي عَبْرَتي دَمُ
وَلوْ لَمْ يَكُنْ مَا انْهلَّ في الخَدِّ مِنْ دَمِي لَمَا كَانَ مُحْمَرّاً يَسِيلُ فَأسْقَمُ

على أنه مع ذلك يرى سح السحاب بها بكاء عاشق معمود، فيقول:

وَكَأنَّ كُلَّ سَحَابَةٍ وَقَفَتْ بِهَا تَبْكِي بِعَيْنَيْ عُرْوَةَ بْنِ حِزَامِ

ولكنه لا يستغني بها عن دموعه التي تسقي ثراها وإن جفت بلوعة أنفاسه، كما يقول مخاطبا ظبية الوحش:

أظَبْيَةَ الوَحْشِ، لَوْلاَ ظَبْيَةُ الأنَسِ لَمَا غَدَوْتُ بِجَدٍّ في الهَوَى تَعِسِ!
وَلاَ سَقَيْتُ الثَّرَى، وَالمُزْنُ مُخْلِفَةٌ، دَمْعاً يُنَشِّفُهُ مِنْ لَوْعَةٍ نَفَسِي
وَلاَ وَقَفْتُ بِجِسْمٍ مُسْيَ ثَالِثَةٍ ذِي أرْسُمٍ دُرُسٍ في الأرْسُمِ الدُّرُسِ

وقد يطلب إلى الطلل أن يسعده وهو يبكى والإبل تحن تحته، ولكنه يجيب عنه لخرسه: بأنه ليس مشوقا كشوقه، فيقول له معاتبا:

أَثْلِثْ، فَإِنَّا أَيُّهَا الطَّلَلُ   نَبْكِى وَتُرْزِمُ تَحْتَنَا الإِبِلُ

أَوْ لاَ، فَلاَ عَتْبٌ عَلَى طَلَلٍ   إِنَّ الطُّلُولَ لِمِثْلِهَا فُعُلُ

لَوْ كُنْتَ تَنْطِقُ قُلْتَ مُعْتَذِراً:   بِى غَيْرُ مَابِكَ أَيُّهَا الرَّجُلُ!

أَبْكَاكَ أَنَّكَ بَعْضُ مَنْ شَغَفُوا   لَمْ أَبْكِ أَنِّى بَعْضُ مَنْ قَتَلُوا

ومع اعتذاره هذا عن الطلل وما للمنازل عنده من منزلة كما يقول:

لَكِ يَامَنَازِلُ فِى الْقُلُوبِ مَنَازِلُ   أَقْفَرْتِ أَنْتِ، وَهُنَّ مِنْكِ أَوَاهِلُ

يَعْلَمْنَ ذَاكِ وَمَا عَلِمْتِ، وَإِنَّمَا   أَوْلاَ كُمَا يُبْكَى عَلَيْهِ الْعَاقِلُ

ـ حمله صمتها عن أن ترد له جوابا، أن يلح فى خصومتها ويذم حاضرها بما فيها على غير ما يجب أن يكون فيقول:

مُلِثَّ الْقَطْرِ أَعْطِشْهَا رُبُوعَا   وَإِلاَّ، فَاسْقِهَا السُّمَّ النَّقِيعَا

أُسَائِلُهَا عَنِ الْمُتَدَيِّرِيهَا   فَلاَ تَدْرِى، وَلاَ تُذْرِى دُمُوعَا

لَحَاهَا اللهُ، إِلاَّ مَاضِيَيْهَا: زَمَانَ اللَّهْوِ، وَالْخَوْدَ الشَّمُوعَا

على أنا بهذه الإساءة منه إلى الربع لا ننسى له تفديته إياه وتكرمته له إذ يقول:

فَدَيْنَاكَ مِنْ رَبْعٍ، وَإِنْ زِدْتَنَا كَرْبَا   فَإِنَّكَ كُنْتَ الشَّرْقَ لِلشَّمْسِ وَالْغَرْبَا

نَزَلْنَا عَنِ الأَكْوَارِ نَمْشِى كَرَامَةً   لِمَنْ بَانَ عَنْهُ، أَنْ نُلِمَّ بِهِ رَكْبَا

وَكَيْفَ عَرَفْنَا رَسْمَ مَنْ لَمْ تَدَعْ لَنَا   فُؤَاداً لِعِرْفَانِ الرُّسُومِ وَلاَ لُبَّا

نَذُمُّ السَّحَابَ الْغُرَّ فِى فِعْلِهَا بِهِ   وَنُعْرِضُ عَنْهَا كُلَّمَا هَطَلَتْ عَتْبَا

ذَكَرْتُ بِهِ وَصْلاً كَأَنْ لَمْ أَفُزْ بِهِ وَعَيْشاً كَأَنِّى كُنْتُ أَقْطَعُهُ وَثْبَا

بل لا ننسى له دعاءه على نفسه ببلى كبلى أطلاله إن لم يقف عليها حيث يقول :

بَلِيتُ بِلَى الأطْلاَلِ، إنْ لَمْ أقِفْ بِهَا وُقُوفَ شَحِيحٍ ضَاعَ فِى التُّرْبِ خَاتَمُهْ!

كَئِيباً تَوَقَّانِى العَوَاذِلُ فِى الْهَوَى كَمَا يَتَوَقَّى رَيِّضَ الْخَيْلِ حَازِمُهْ

عود إلى الدمع لنقول : إن المتنبي كان يعنى أكثر ما يعنى، بدمع المحب الدنف الباكى . أما المحبوب فقلما كان يتعرض لدمعه ، وإذا تعرض لم يقف عند حد البكاء، بل أضاف شيئاً يجعله من محاسن الحبيب ، كأن يتصوره وهو يمسحه بأصابعه عن خده - طلا فوق ورد يزيحه العنم ، غير معتقد أنه نتيجة احتراق فى الحشا كما هو فيه ، وإلا أذهب الحسن وأتى بالسقم فيقول :

تَرْنُو إلَىَّ بِعَيْنِ الظَّبْىِ مُجْهِشَةً وَتَمْسَحُ الطَّلَّ فَوْقَ الْوَرْدِ بِالْعَنَمِ

رُوَيْدَ حُكْمِكِ فِينَا غَيْرَ مُنْصِفَةٍ بِالنَّاسِ كُلِّهِمُ أَفْدِيكِ مِنْ حَكَمِ

أَبْدَيْتِ مِثْلَ الذى أَبْدَيْتُ مِنْ جَزَعٍ وَلَمْ تُجِنِّى الَّذِى أَجْنَنْتُ مِنْ أَلَمِ

إذَنْ لَبَزَّكِ ثَوْبَ الْحُسْنِ أَصْغَرُهُ وَصِرْتِ مِثْلِى فِى ثَوْبَيْنِ مِنْ سَقَمِ

لَيْسَ التَّعَلُّلُ بِالآمَالِ مِنْ أَرَبِى وَلاَ الْقَنَاعَةُ بِالإقْلاَلِ مِنْ شِيَمِى

وكأنه يتصوره وقد قرح الاجفان أزال حمرة الخدود، فرد شقائقها بهاراً إذ يقول غير ناس أنه المشوق والحبيب الشائق :

وَقَفْنَا ، وَمِمَّا زَادَ بَثًّا وُقُوفُنَا فَرِيقَىْ هَوًى : مِنَّا مَشُوقٌ وَشَائِقُ

وَقَدْ صَارَتِ الأَجْفَانُ قَرْحَى مِنَ الْبُكَا وَصَارَتْ بَهَاراً فِى الْخُدُودِ الشَّقَائِقُ

على أنه أحيانا كان يعتقد أن الحبيبة تبادله حبا بحب ودمعاً بدمع كأن يقول :

تَنَفَّسَتْ عَنْ وَفَاءٍ غَيْرِ مُنْصَدِعٍ يَوْمَ الرَّحِيلِ ، وَشَعْبٍ غَيْرِ مُلْتَئِمِ

قبَّلتُها وَدُمُوعى مزجُ أدْمُعِهَا وَقبّلتنى على خوفٍ فماً لِفمِ

وللمتنبى فى كل من فراق الأحبة والوقوف بالأطلال مجال فى غير ناحية الدمع والبكاء، فهو يرى فى الفراق تمكينا للوجد ومحلبة للحنين فيقول :

أحْيَا ؛ وَأيْسَرُ ما قاسيتُ ما قتلا وَالبينُ جارَ على ضعفى وما عدلا !

والوَجْدُ يقوى، كما تقوَى النوَى أبداً والصَّبْرُ يَنْحَلُ فى جسْمِى كما نحلا

لَوْلاَ مُفارَقَةُ الأحْبابِ ماوَجدَتْ لها المَنَايا إلى أرْوَاحِنَا سُبلا

ويقول لائما نفسه وقد كان يهزأ بالفراق :

قدْ كُنت تَهْزَأُ بالفِرَاقِ مجانَةً وَتجرُّ ذَيلَىْ شِرَّةٍ وَعُرَامِ

ليْسَ القِبَابُ عَلَى الرِّكَابِ، وإنمَا هُنَّ الحيَاةُ تَرَحَّلتْ بِسَلاَمِ

لَيْتَ الذى خَلَقَ النَّوَى جَعَلَ الحصَى لِخفَافِهِنَّ مفاصِلِى وَعِظَامِى

ويقول متمنيا أن يرى التوديع مرة ثانية ولو أنه يتبعه أنفاسه :

مَازلتُ أحْذَرُ مِنْ وَدَاعِكَ جَاهِداً حَتَّى اغتَدَى أسَفِى عَلَى التَّوْدِيعِ

رَحَلَ العَزَاءُ بِرِحْلَتِى، فَكأنّمَا أتبعْتُهُ الأنفَاسَ لِلتّشْيِيعِ

ويقول فى مرارة الفراق ونيرانه وإغرائها لصبابة وقتلها للمحب :

فَوَاحَسْرَتَا ! مَا أمَرَّ الفِرَاقَ وَأعْلَقَ نِيرَانَهُ بِالكُبُودِ !

وَأغرَى الصَّبَابَةَ بِالعَاشِقِينَ وَأقْتَلَهَا لِلمُحِبِّ العَمِيدِ !

وَألهَجَ نَفْسِى ـ لِغَيْرِ الخَنَا ـ بِحُبِّ ذَوَاتِ اللَّمَى وَالنُّهُودِ !

ويقول معلنا أن وجوده هو الراحل إذا ارتحلوا، وأن حسن صبره هو المزموم لا الجمال، وكأن البين وقد تولوا بغتة تهيبه فاغتاله :

بقَائِى شاءَ ـ لَيسَ هُمُ ـ ارْتِحَالاَ وَحُسْنَ الصَّبْرِ زَمُّوا، لاَ الجِمَالاَ

تَوَلَّوْا بَغْتَةً ، فَكَأَنَّ بَيْناً تَهَيَّبَنِى ، فَفَاجَأَنِى اغْتِيَالاً !

وهو لاعتقاده أن الفراق مجلبة للموت . يطلب دائماً التزود بنظرة قبل الرحيل، فيقول لحادي العيس :

يَاحَادِيَىْ عِيسِهَا ، وأَحْسَبُنِى أُوجَدُ مَيْتاً قُبَيْلَ أَفْقِدُهَا !

قِفَا قَلِيلاً بِهَا عَلَىَّ ، فَلاَ أَقَلَّ مِنْ نَظْرَةٍ أُزَوَّدُهَا !

فَفِى فُؤَادِ الْمُحِبِّ نَارُ جَوًى أَحَرُّ نَارِ الْجَحِيمِ أَبْرَدُهَا ... !

ثم يدعو على العيس أمر دعاء وأحره ، لأنها عماد الرحله وآلة البعاد . ويتحرق إذ كانت تتوهم زفرات أنينه زجرا يستاقها . فتجد فى السير و كأنها شجر جناه الموت حيث يقول :

لاَ سِرْتِ مِن إِبِلٍ الَوْ أَنِّى فَوْقَهَا لَمَحَتْ حَرَارَةُ مَدْمَعَىَّ سِمَاتِهَا

وَحَمَلتُ مَا حُمِّلْتِ مِنْ هَذِى الْمَهَا وَحَمَلْتِ مَا حُمِّلْتُ من حَسَرَاتِهَا !

يَسْتَاقُ عِيسَهُمُ أَنِينِى خَلْفَهَا تَتَوَهَّمُ الزَّفَرَاتِ زَجْرَ حُدَاتِهَا

وَكَأَنَّهَا شَجَرٌ بَدَتْ ، لَكِنَّهَا شَجَرٌ جَنَيْتُ الْمَوْتَ مِنْ ثَمَرَاتِهَا

وهو يعتب على البين لمواصلته وصله للكيد له ، فيقول مردداً ويله ولهفه فى غير جدوى :

أَكَيْداً لَنَا يَا بَيْنُ وَاصَلْتَ وَصْلَنَا ؟ فَلاَ دَارُنَا تَدْنُو ، ولاَ عَيْشُنَا يَصْفُو !

أُرَدِّدُ : وَيْلِى ، لَوْ قَضَى الْوَيْلُ حَاجَةً وَأُكْثِرُ : لَهْفِى . لَوْ شَفَى غُلَّةً لَهْفُ

ضَنًى فى الْهَوَى كَالسُّمِّ فى الشَّهْدِ كَامِناً لَذِذْتُ بِهِ جَهْلاً ، وفى اللَّذَّةِ الْحَتْفُ !

ثم يعود فيعتذر عن النوى ، ويرى ملامتها ظلما . لأنها تحسده على أحبائه وتغار منه وبها ما به من سقم فيقول :

مَلاَمِى النَّوَى فى ظُلْمِهَا غَايَةُ الظُّلْمِ لَعَلَّ بِهَا مِثْلَ الَّذِى بِى مِنَ السُّقْمِ

فَلَوْ لَمْ تَعَزَّ لَمْ تَزْوِ عَنِّى لِقَاءَكُمْ ... وَلَوْ لَمْ تُرِدْكُمْ لَمْ تَكُنْ فِيكُمْ خَصْمِى

بل يعود فلا يستغرب من الفراق شيئا يراه ، فيقول :

وَمَا اسْتَغْرَبَتْ عَيْنِى فِرَاقًا رَأَيْتُهُ ... وَلاَ عَلَّمَتْنِى غَيْرَ مَا الْقَلْبُ عَالِمُهْ

فَلاَ يَتَّهِمْنِى الْكَاشِحُونَ ؛ فَإِنَّنِى ... رَعَيْتُ الرَّدَى حَتَّى حَلَتْ لِى عَلاَقِمُهْ

وأخيراً يعود إلى التصبر مطمئنا إلى أن هذا شأن الوجود فيقول :

عَلَى ذَا مَضَى النَّاسُ اجْتِمَاعٌ وَفُرْقَةٌ ، ... وَمَيْتٌ وَمَوْلُودٌ ، وَقَالٍ وَوَامِقُ

تَغَيَّرَ حَالِى ، وَاللَّيَالِى بِحَالِهَا ... وَشِبْتُ ، وَمَا شَابَ الزَّمَانُ الْغُرَانِقُ

أما وقوفه على الأطلال من غير بكاء فله فيه خيال بديع : فهو يطلب إلى نفسه الوقوف على الدمن يتصورها خالا ، فى طلول كأنهن النجوم ، وعراص كأنهن الليالى ، ولا ينسى أن يتصور النؤى عليها خداما فيقول :

قِفْ عَلَى الدِّمْنَتَيْنِ بِالدَّوِّ مِنْ رَيَّا ... كَخَالٍ فِى وَجْنَةٍ جَنْبَ خَالِ

بِطُلُولٍ كَأَنَّهُنَّ نُجُومٌ ... فِى عِرَاصٍ كَأَنَّهُنَّ لَيَالِ

وَنُؤِىٍّ كَأَنَّهُنَّ عَلَيْهِنَّ ... خِدَامٌ خُرْسٌ بِسُوقٍ خِدَالِ

وهو يرى فى ذكر صباه بالديار جلبا لحمامه قبل أوانه ، ويستحلى ما كان له مع كعابها من عتاب فيقول :

ذِكْرُ الصِّبَا وَمَرَاتِعِ الآرَامِ ... جَلَبَتْ حِمَامِى قَبْلَ وَقْتِ حِمَامِى

دِمَنٌ تَكَاثَرَتِ الْهُمُومُ عَلَىَّ فِى ... عَرَصَاتِهَا كَتَكَاثُرِ اللُّوَّامِ !

وَكَأَنَّ كُلَّ سَحَابَةٍ وَقَفَتْ بِهَا ... تَبْكِى بِعَيْنَىْ عُرْوَةَ بْنِ حِزَامِ

وَلَطَالَمَا أَفْنَيْتُ رِيقَ كَعَابِهَا ... فِيهَا ، وَأَفْنَتْ بِالْعِتَابِ كَلاَمِى

وهو يتمنى لو خلا قلبه خلو دارها منها ، ليخلو من صلى أثافيها وتحول رسومها فيقول:

فَلَوْ كَانَ قَلْبِي دَارَهَا كَانَ خَالِياً وَلَكِنّ جَيْشَ الشَّوْقِ فِيهِ عَرَمْرَمُ

أَثَافٍ بِهَا مَا بِالْفُؤَادِ مِنَ الصَّلَى وَرَسْمٌ كَجِسْمِي نَاحِلٌ مُتَهَدِّمُ

ثم يخاطب أحبته وقد أسفوا على قتل فراقهم للربع ، لأنه تلف بهذا الفراق قبله ، على أنه يحبه لولا خلوه منهم فيقول:

لَا تَحْسَبُوا رَبْعَكُمْ ولاطَلَلَهْ أَوّلَ حَيٍّ فِرَاقُكُمْ قَتَلَهْ

قَدْ تَلِفَتْ قَبْلَهُ النُّفُوسُ بِكُمْ وأَكْثَرَتْ فِى هَوَاكُمُ الْعَذَلَهْ

أُحِبُّهُ ، وَالْهَوَى ، وَأَدْوُرَهُ وكُلُّ حُبٍّ صَبَابَةٌ وَوَلَهْ

يَنْصُرُهَا الغَيْثُ وَهْىَ ظَامِئَةٌ إِلَى سِوَاهُ ، وسُحْبُهَا هَطِلَهْ

واحَرَبا منْكِ يا جَدَايتَهَا مُقِيمةً ـ فاعْلَمِى ـ ومُرْتَحِلَهْ

لَوْ خُلِطَ المِسْكُ والْعَبِيرُ بِهَا وَلَسْتِ فِيهَا لَخِلْتُهَا تَفِلَهْ

وفى النهاية يصف تتيمه وذهوله وهو فى معالم الديار الخالية ، وأنه لو لم يذهل للام نفسه فيقول:

أَنا لائِمِى إِنْ كُنتُ وقْتَ اللَّوَائِمِ عَلِمْتُ بِمَا بِى بَيْنَ تِلْكَ المَعَالِمِ

وَلَكِنَّنِي مِمَّا شُدِهْتُ مُتَيَّمٌ كَسَالٍ ، وَقَلْبِي بَائِحٌ مِثْلُ كَاتِمِ

وَقَفْنَا كَأَنَّا كُلُّ وَجْدِ قُلُوبِنَا تَمَكّنَ مِنْ أَذْوَادِنَا فِى القَوَائِمِ

وَدُسْنَا بِأَخْفَافِ الْمَطِىِّ تُرَابَهَا فَمَا زِلْتُ أَسْتَشْفِى بِلَثْمِ الْمَنَاسِمِ

٣ - تصويره للهجر والسهد والطيف وعدم إصغائه إلى العذل واللوم :

كان المتنبي - شأن العشاق وإن لم يكن عاشقا - لايزال يترضى حبيبته ويطلب إليها أن تصله مستشفعا إليها بها ، ومبديا حاجة وجوده إلى وصالها فيقول :

بِمَا بِجَفْنَيْكِ مِنْ سِحْرٍ صِلِي دَنِفًا يَهْوَى الحَيَاةَ ، وَأَمَّا إِنْ صَدَدْتِ فَلاَ

يَحِنُّ شَوْقًا ، فَلَوْلاَ أَنَّ رَائِحَةً تَزُورُهُ مِنْ رِيَاحِ الشَّرْقِ مَاعَقَلاَ

ويقول طالبا إليها رد الوصال . وداعيا لطلولها بالسقيا . من عارض دائم ممرع ، كان يتمنى أن يكون الوصل مثله :

رُدِّي الوِصَالَ، سَقَى طُلُولَكِ عَارِضٌ لَوْ كَانَ وَصْلُكِ مِثْلَهُ مَا أَقْشَعَا

زَجِلٌ يُرِيكِ الجَوَّ نَارًا وَالمَلاَ كَالبَحْرِ ، وَالتَّلَعَاتِ رَوْضًا مُمْرِعَا

ولكن ماذا يجدى طلب الوصل والحبيبة شديدة الملل إلا من الملل كما يقول :

مَلُولَةٌ مَا يَدُومُ ، لَيْسَ لَهَا - مِنْ مَلَلٍ دَائِمٍ بِهَا - مَلَلُ

بِي حَرُّ شَوْقٍ إِلَى تَرَشُّفِهَا يَنْفَصِلُ الصَّبْرُ حِينَ يَتَّصِلُ

وهى إذا وعدت خانت العهد وبانت ولو كان فى البين موته :

اَلْيَوْمَ عَهْدُكُمُ ، فَأَيْنَ المَوْعِدُ ؟ هَيْهَاتَ ؛ لَيْسَ لِيَوْمِ عَهْدِكُمُ غَدُ

اَلْمَوْتُ أَقْرَبُ مِخْلَبًا مِنْ بَيْنِكُمْ وَالْعَيْشُ أَبْعَدُ مِنْكُمُ ، لاَتَبْعُدُوا

وإذا لم تبن وقرب المزار عزّ المزار إلا بالجنان :

قَرُبَ المَزَارُ، وَلاَ مَزَارَ ، وَإِنَّمَا يَغْدُو الجَنَانُ فَنَلْتَقِي ، وَيَرُوحُ

فإذا أقدم على زيارتها كان إقدامه بغير أمل ، ولكنه يتعمده لأن الهجر أقتل له منه فيقول:

مَتَى تَزُرْ قَوْمَ مَنْ تَهْوَى زِيَارَتَهَا لاَ يُتْحِفُوكَ بِغَيْرِ البِيضِ وَالأَسَلِ

وَمَا صَبَابَةُ مُشْتَاقٍ عَلَى أَمَلٍ مِنَ اللقاءِ ، كَمُشْتَاقٍ بِلاَ أَمَلِ

وَالهجْرُ أَقْتلُ لِى مِمَّا أُرَاقِبُهُ أَنَا الغَرِيقُ ! فَمَاخوفى مِنَ البَلَلِ ؟

قَدْ ذُقْتُ شِدَّةَ أَيَّامِى وَلَذَّتَهَا فَمَا حَصَلْتُ عَلَى صابٍ وَلاَ عسلِ

فهى والأيام عليه حليفا صد وهجران عن طبع يأبى التغيير :

أَوَدُّ مِنَ الأَيَّامِ مَالاَ تَوَدُّهُ وَأَشْكُو إِلَيْهَا بَيْنَنَا وَهْى جُنْدُهُ

يُبَاعِدْنَ حِبًّا يَجْتَمِعْنَ وَوَصْلُهُ فَكَيْفَ بِحُبٍّ يَجْتَمِعْنَ وصدُّهُ ؟

أَبَى خُلُقُ الدُّنْيَا حَبِيباً تُدِيمُهُ فَمَا طَلَبِى مِنْهَا حبيباً تَرُدُّهُ ؟

وَأَسْرَعُ مَفْعُولٍ فَعَلْتَ تَغَيُّراً تَكَلُّفُ شَىْءٍ فى طِبَاعِكَ ضِدُّهُ

وإذن فليبق بالصد فى مرارة الحب . و بسلو الحبيبة عنه وقد الكبد . كما يقول :

وَإِذَا سَحَابَةُ صَدِّ حُبٍّ أَبْرَقَتْ تَرَكَتْ حَلاَوَةَ كُلِّ حُبٍّ عَلْقَمَا

إِنْ كَانَ أَغْنَاهَا السُّلُوُّ ، فَإِنَّنِى أَمْسَيْتُ مِنْ كَبِدِى وَمِنْهَا مُعْدِمَا

ثم ليشغف الحزن بقلبه يصله كلما هجرته :

كَأَنَّ الحُزْنَ مَشْغُوفٌ بِقَلْبِى فَسَاعَةَ هَجْرِهَا يَجِدُ الوِصَالاَ

هذا وكأن المتنبي لقى من وراء الهجر والصد سهدا مبرحا حرمه لذة الرقاد . وكأنه كان إذا أغفى أقلقه طروق الطيف ، فأبدع فى تصوير الحالين أيما إبداع .

قال يصف ألم الأرق والجوى ونارهما التى لا تنطفىء :

أَرَقٌ عَلَى أَرَقٍ ، وَمِثْلِىَ يَأْرَقُ وَجَوًى يَزِيدُ ، وَعَبْرَةٌ تَتَرَقْرَقُ

جُهْدُ الصَّبَابَةِ أَنْ تَكُونَ كَمَا أُرَى: عَيْنٌ مُسَهَّدَةٌ ، وَقَلْبٌ يَخْفِقُ

جَرَّبْتُ مِنْ نَارِ الهَوَى ما تَنْطَفِى نَارُ الغَضَى وَتَكِلُّ عَمَّا يُحْرِقُ

مَا لاَحَ بَرْقٌ أَوْ تَرَنَّمَ طَائِرٌ إِلاَّ انْثَنَيْتُ وَلِى فُؤَادٌ شَيِّقُ

وقال يذكر نفى الشوق لذيذ الهجوع . ويعجب كيف لم يجدوا ملوحة فى الماء مما رقرق من دموعه :

شَوْقِي إِلَيْكِ نَفَى لَذِيذَ هُجُوعِي فَارَقْتِنِي ، وَأَقَامَ بَيْنَ ضُلُوعِي

أَوَمَاوَجَدْتُمْ فِي الصَّرَاةِ مُلُوحَةً مِمَّا أُرَقْرِقُ فِي الْفُرَاتِ دُمُوعِي ؟

وقال يذم الليالى يبيتها ساهدا لمن باتها راقدا ، ويحييها بالدمع تسعده الشئون ويسعد الشئون الظلام :

بِئْسَ اللَّيَالِي سَهِدْتُ مِنْ طَرَبٍ شَوْقًا إِلَى مَنْ يَبِيتُ يَرْقُدُهَا

أَحْيَيْتُهَا وَالدُّمُوعُ تُنْجِدُنِي شُئُونُهَا ، وَالظَّلَامُ يُنْجِدُهَا

وقال يصف الليالى بالطول فوق ظلمتها . ويطلب رد الصباح وإن كان النهار على مقلته ليلا مد لهما :

أَعِيدُوا صَبَاحِي ، فَهْوَ عِنْدَ الْكَوَاعِبِ وَرُدُّوا رُقَادِي ، فَهْوَ لَحْظُ الْحَبَائِبِ

فَإِنَّ نَهَارِي لَيْلَةٌ مُدْلَهِمَّةٌ عَلَى مُقْلَةٍ مِنْ فَقْدِكُمْ فِي غَيَاهِبِ

بَعِيدَةُ مَا بَيْنَ الْجُفُونِ كَأَنَّمَا عَقَدْتُمْ أَعَالِي كُلِّ هُدْبٍ بِحَاجِبِ

وقال لا يرضى عن الليالى ولو أضاءها البدر . لأنه يريد بدرا غيره تخفيه عنه :

لَيَالِيَّ بَعْدَ الظَّاعِنِينَ شُكُولُ طِوَالٌ ، وَلَيْلُ الْعَاشِقِينَ طَوِيلُ

يُبِنَّ لِيَ الْبَدْرَ الَّذِي لَا أُرِيدُهُ وَيُخْفِينَ بَدْرًا مَا إِلَيْهِ سَبِيلُ

وَمَا عِشْتُ مِنْ بَعْدِ الْأَحِبَّةِ سَلْوَةً وَلَكِنَّنِي لِلنَّائِبَاتِ حَمُولُ

وقل يذكر استفاع لونه كالليل وتوقد أنفاسه فيه ، حتى ليخشى احتراق العواذل منه :

بِنَّا وَلَوْ حَيَّلْتَنَا لَمْ تَدْرِ مَا أَلْوَانُنَا مِمَّا اسْتُفِعْنَ تَلَوُّنَا

وَتَوَقَّدَتْ أَنْفَاسُنَا ، حَتَّى لَقَدْ أَشْفَقْتُ تَحْتَرِقُ الْعَوَاذِلُ بَيْنَنَا

وله فى سهاد الليل وهجر الكرى أبيات شوارد منها :

كأنَّ سُهادَ اللَّيلِ يَعشَقُ مُقلَتي فَبينَهُما فى كُلِّ هَجرٍ لنا وَصلُ

ومنها بعد ذكر النوى وما أعقبته من بلى :

أبلى الهَوَى أسَفاً يَوْمَ النَّوَى بَدَني وَفرَّقَ الهَجْرُ بَيْنَ الجَفنِ وَالوَسَنِ

ومنها يتمنى على الحبيب الهاجر له هجر الكرى أن يصله وصل الضنى :

لَيتَ الحَبيبَ الهَاجِرِي هَجْرَ الكَرَى مِنْ غَيْرِ جُرْمٍ ، وَاصِلِي صِلَةَ الضَّنَى

ومنها يعاتبه على جعل حظه منه لحظه فى النوم :

وَجَعلْتَ حَظِّي مِنكَ فِي الكَرَى وَتَرَكْتَنِي لِلفَرْقَدَيْنِ جَلِيسَا

على أنه مع ما يقاسى من ألم السهاد كان يحمد له ما يأتى به من ذكرى يجد فيها المحبوبة ممثلة تنيله ما يرجو من أجله القرب فيقول :

سُهادٌ أتانا منكِ فى العَينِ عِندَنا رُقادٌ ، وَقُلّامٌ رَعَى سَرْبُكُمْ وَرْدُ

مُمَثَّلَةٌ حَتَّى كَأنْ لَمْ تُفَارِقِي وَحَتَّى كَأنَّ اليَأسَ مِنْ وَصْلِكِ الوَعْدُ

وَحَتَّى تَكَادِي تَمْسَحِينَ مَدَامِعِي وَيَعْبَقُ فى ثَوْبَيَّ مِنْ رِيحِكِ النَّدُّ

كما كان يحمد كل ليل نعم فيه بقرب ما يتلذذ بذكراه ، وفى هذا ما يكفيه فيقول :

تذكَّرْتُ مَا بَيْنَ العُذَيبِ وَبَارِقِ مَجَرَّ عَوَالِينَا وَمَجْرَى السَّوَابِقِ

وَلَيْلاً تَوَسَّدْنَا الثَّوِيَّةَ تَحْتَهُ كَأنَّ ثَرَاهَا عَنْبَرٌ فِى المَرَافِقِ

بلادٌ إذَا زَارَ الحِسَانَ بِغَيْرِهَا حَصَا تُرْبِهَا ثَقَّبْنَهُ لِلمَخَانِقِ

سقَتْنِى بِهَا القُطْرُبُلِّيَّ مَلِيحَةٌ عَلَى كَاذِبٍ مِنْ وَعْدِهَا ضَوْءُ صَادِقِ

سُهَادٌ لأجْفَانٍ ، وَشَمْسٌ لِنَاظِرٍ ، وَسُقْمٌ لأبْدَانٍ ، وَمِسْكٌ لِنَاشِقِ

وَجَائِزَةٌ دَعْوَى المَحَبَّةِ وَالهَوَى وَإنْ كَانَ لاَ يَخْفَى كَلامُ المُنَافِقِ

بل كان يذكر ليالى قصرها بالمخدرات المقصورات . ويتمنى لو عاد أبعض أيام تلك الليالى ، وهو يوم الوداع فتراه يقول :

نسيتُ وما أنسَى عِتابًا عَلَى الصَّدِّ ... ولا خَفَرًا زادتْ بِهِ حُمْرَةُ الخَدِّ

ولا ليـــلةً قَصَّرْتُها بقَصِيرةٍ ... أطالَت يَدِى فى جِيدِها صُحبةَ العِقْدِ

وَمَنْ لِى بيومٍ مِثل يومٍ كَرِهْتهُ ... قرُبْتُ بهِ عندَ الوَداعِ مِنَ البُعْدِ

وألا يَخُصَّ الفَقْدُ شيئًا ؛ لأنّنِى ... فقَدْتُ، فلَمْ أفقِدْ دُمُوعِى ولا وَجْدِى

تَمَنٍّ يَلَذُّ المستَهامُ بِذِكْرِه ... وإنْ كانَ لا يُغْنِى فَتِيلاً ولا يُجْدِى

وغَيْظٌ عَلَى الأيّامِ كالنّارِ فى الحَشَا ... ولكنّهُ غَيْظُ الأسِيرِ عَلَى القِدِّ

ولعله لهذا كان لايحقد على ليله الحاضر امتداده ، بل يطيب إليه وقد حكى فرعها طولا أن يظلم فيحكى نواها سوادا إذ يقول:

حَكَيْتَ يَا لَيْلُ فَرْعَهَا الوَارِدْ ... فَاحْكِ نَوَاهَا لِجفْنِىَ السَّاهِدْ

طَالَ بُكَائِى عَلَى تَذَكُّرِهَا ... وَطُلْتَ حَتَّى كِلاَ كُمَا وَاحِدْ

ويكفر عن سيئات الليالى الحواضر بحسنات المواضى كما يقول:

قصَّرتْ مُدَّةَ اللَّيالِى المَوَاضِى ... فَأطالَتْ بهـا اللَّيـالِى البَوَاقِى

وآن أن نترك السهد وما جر إليه ـ إلى الطيف وما كان من تخيل المتنبى فيه .

قال من القصيدة التى انتقينا منها أول ما انتقينا من أبيات السهاد . يفدى صاحبة الطيف الذى خاض إليه الدياجى ، وإن كاد شرد عنه النوم وألاع الفؤاد:

بِمَا بَيْنَ جَنْبَىَّ الَّتِى خَاضَ طَيْفُهَا ... إلَىَّ الدَّيَاجِى وَالخَلِيُّونَ هُجَّعُ

أتَى زائِرًا مَا خَامَرَ الطِّيبُ ثَوْبَهَا ... وكَالمِسْكِ مِنْ أرْدانِها يتَضَوَّعُ

فَمَا جَلَسَتْ حَتَى انثَنَتْ تُوسِعُ الخُطَا ... كَفَاطِمةٍ عَنْ دَرِّها قَبْلَ تُرْضِعُ

فَشَرَّدَ إعْظَامِي لَهَا مَا أَتَى بِهَا   مِنَ النَّوْمِ، والْتَاعَ الفُؤَادُ المُفَجَّعُ
فَيَا لَيْلَةً مَا كَانَ أَطْوَلَ بِتُّهَا   وَسُمُّ الأفَاعِي عَذْبُ مَا أتَجرَّعُ!
تَذَلَّلْ لَهَا وَاخْضَعْ عَلَى القُرْبِ والنَّوَى   فَمَا عَاشِقٌ مَنْ لاَ يَذِلُّ وَيَخْضَعُ...!

وقال يفصل ما أشار إليه من تمنع الخيال:

دَانٍ المُلِمّ لَهَا طَيفٌ تَهَدَّدَنِي   لَيْلاً، فَمَا صَدَقَتْ عَيْنِي وَلا كَذَبَا
أَنَأْيتُهُ فَدَنَا، أَدْنَيْتُهُ فَنَأَى،   جَمَّشْتُهُ فَنَبَا، قَبَّلْتُهُ فَأَبَى!

وقال يصور لنا أن الخيال الذى يزوره ليس خيال حبيبته. وإنما هو خيال خيالها الجاثم فى قلبه لا يفارقه فى يقظته، فإذا ما نام عاوده ماثلا أمامه فى سنته:

لا الحُلْمُ جَادَ بِهِ وَلاَ بِمِثَالِهِ   لولاَ ادِّكَارُ وَدَاعِهِ وَزِيَالِهِ
إنَّ المُعِيدَ لَنَا المَنَامُ خَيَالَهُ   كانتْ إعَادَتُهُ خَيَالَ خَيَالِهِ
بِنْتُم عَنِ العَيْنِ القَرِيحَةِ فِيكُمُ   وَسَكَنْتُمُ طَيَّ الفُؤَادِ الوَالِهِ
فَدَنَوْتُمُ وَدُنُوُّكم مِنْ عِنْدِهِ   وَسَمَحْتُمُ وسَمَاحُكُمْ مِنْ مَالِهِ
بِتْنَا يُبَادِلُنَا المُدَامَ بِكَفِّهِ   مَنْ لَيْسَ يَخْطُرُ أنْ نَرَاهُ بِبَالِهِ
نَجْنِي الكَوَاكِبَ مِنْ قَلاَئِدِ جِيدِهِ   وَنَنَالُ عَيْنَ الشَّمْسِ مِنْ خَلْخَالِهِ

وقال يعتب على الخيال عودته إلى مولاته إذ وجده راقدا، ويطلب إليه أن يزوره ليس كما ظنت، ويذكر أنه على ما بزيارته من تلف لنفسه يحمد له هذا الطواف وإن كان يضحكه هذا الحمد. ويعلل ذلك بأنه لا يجحد فضلا يفعله إذ لم يكن له فاعلة ولا واعدة، وبأنه لا يرى فرقا بين الواقع والخيال ما دام كلاهما نافدا فاسمع إليه:

أزَائِرٌ يَا خَيَالُ أمْ عَائِدْ   أمْ عِنْدَ مَوْلاَكَ أنَّنِي رَاقِدْ
لَيْسَ كَمَا ظَنَّ، غَشْيَةٌ عَرَضَتْ   فَجِئْتَنِي فِي خِلاَلِهَا قَاصِدْ

عُدْ وأعِدْهَا؛ فَحَبَّذَا تَلَفٌ ... أَلْصَقَ ثَدْيَى بِثَدْيِكَ النَّاهِدْ
وَجُدْتَ فِيهِ بِمَا يَشِحُّ بِهِ ... مِنَ الشَّتِيتِ الْمُؤَشَّرِ البَارِدْ
إِذَا خَيَالاتُه أَطَفْنَ بِنَا ... أَضْحَكَهُ أَنَّنِى لَهَا حَامِدْ
لاَأَجْحَدُ الفَضْلَ؛ رُبَّمَا فَعَلَتْ ... مَا لَمْ يَكُنْ فَاعِلاً وَلاَ وَاعِدْ
مَا تَعْرِفُ العَيْنُ فَرْقَ بَيْنِهِمَا ... كُلٌّ خَيَالٌ وِصَالُهُ نَافِدْ

ولم تك معالجته لعدم استماعه للعذل بأقل جودة وتخيلا من معالجة السهد والطيف، مع مايلاقى بهما من عنت . فكان إذا عذل محبوبته ناداها مسدود السمع عما يقال :

إِذَا عَذَلُوا فِيهَا أَجَبْتُ بِأَنَّةٍ ... حُبَيِّبَتَا، قَلْبًا، فُؤَادًا، هَيَا جُمْلُ:
كَأَنَّ رَقِيباً مِنْكِ سَدَّ مَسَامِعِى ... عَنِ العَذْلِ حَتَّى لَيْسَ يَدْخُلُهَا عَذْلُ

وكان يذكر أن سبب العذل حسد يجب أن يقابل بالرفض، على أن الحواسد لو درين عفته ما حسدنه لما جلبنه عليه من سقم فيقول :

عوَاذِلُ ذَاتِ الخَالِ فِىَّ حَوَاسِدُ ... وَإِنَّ ضَجِيعَ الْخَوْدِ مِنِّى لَمَاجِدُ
يَرُدُّ يَدًا عَنْ ثَوْبِهَا وَهْوَ قَادِرٌ ... وَيَعْصِى الْهَوَى فِى طَيْفِهَا وَهْوَ رَاقِدُ
مَتَى يَشْتَفِى مِنْ لاَعِجِ الشَّوْقِ فِى الْحَشَا ... مُحِبٌّ لَهَا فِى قُرْبِهِ، مُتَبَاعِدُ
إِذَا كُنْتَ تَخْشَى الْعَارَ فِى كُلِّ خَلْوَةٍ ... فَلِمْ تَتَصَبَّاكَ الحِسَانُ الْخَرَائِدُ؟
أَلَحَّ عَلَىَّ السُّقْمُ حَتَّى أَلِفْتُهُ ... وَمَلَّ طَبِيبِى جَانِبِى وَالعَوَائِدُ

وكان يعالل عدم إنصاته إلى العذل بأن الهوى فى سويداء القلب، والعذل يقع حوله ولا يدخله فيقول :

عَذْلُ الْعَوَاذِلِ حَوْلَ قَلْبِى التَّائِهِ ... وَهَوَى الْأَحِبَّةِ مِنْهُ فِى سَوْدَائِهِ

كما كان يعلله بأن القلب عليم بدائه ولو قدر أن يصده ليمر جفنه ودموعه لفعل . ولكنه عاجز ، وهو مع ذلك لا يرى قبول اللوم من عذلهن من أعدائه ـ متفقا مع صدق المحبة فيقول :

اَلْقَلْبُ أَعْلَمُ يَا عَذُولُ بِدَائِهِ ... وَأَحَقُّ مِنْكَ بِجَفْنِهِ وَبِمَائِهِ

فَوَمَنْ أُحِبُّ لأَعْصِيَنَّكَ فِى الهَوَى ... قَسَماً بِهِ وَبِحُسْنِهِ وَبَهَائِهِ

أَأُحِبُّهُ وَأُحِبُّ فِيهِ مَلاَمَةً؟ ... إِنَّ المَلاَمَةَ فِيهِ مِنْ أَعْدَائِهِ !

لاَ تَعْذُلِ المُشْتَاقَ فِى أَشْوَاقِهِ ... حَتَّى يَكُونَ حَشَاكَ فِى أَحْشَائِهِ

إِنَّ القَتِيلَ مُضَرَّجاً بِدُمُوعِهِ ... مِثْلُ القَتِيلِ مُضَرَّجاً بِدِمَائِهِ

وكان يرتد فينفى تدخل العقل فيما مصدره القلب فيقول :

إِلاَمَ طَمَاعِيَـــةُ العَاذِلِ ... وَلاَ رَأْىَ فِى الحُبِّ لِلْعَاقِلِ

يُرَادُ مِنَ القَلْبِ نِسْيَانُكُمْ ... وَتَأْبَى الطِّبَاعُ عَلَى النَّاقِلِ

وَهَبْتُ السُّلُوَّ لِمَنْ لاَمَنِى ... وَبِتُّ مِنَ الشَّوْقِ فِى شَاغِلِ

ويعود فينفى عن نفسه التعصب لنفسه ، يقول : إنه كان عاذلا حتى ذاق العشق فعذر العشاق :

وَعَذَلْتُ أَهْلَ العِشْقِ حَتَّى ذُقْتُهُ ... فَعَجِبْتُ كَيْفَ يَمُوتُ مَنْ لاَ يَعْشَقُ

وَعَذَرْتُهُمْ وَعَرَفْتُ ذَنْبِى أَنَّنِى ... عَيَّرْتُهُمْ فَلَقِيتُ مِنْهُ مَا لَقُوا

ثم يصمد لحبيبته نفسها وقد لامته إذ لم تجد فى العاشقين مثله يلومها ويطلب إليها أن تجد مثلها لترى له نظيراً فيقول :

كَدَعْوَاكِ كُلٌّ يَدَّعِى صِحَّةَ العَقْلِ ... وَمَنْ ذَا الَّذِى يَدْرِى بِمَا فِيهِ مِنْ جَهْلِ

لأَنْتِ أَوْلَى لاَئِمٍ بِمَلاَمَـــةٍ ... وَأَحْوَجُ مِمَّنْ تَعْذُلِينَ إِلَى العَذْلِ

تقولين : مافي الناس مثلك عاشقٌ جِدي مِثْلَ مَنْ أَحْبَبْتِه تجدي مِثْلي

وأخيراً يهيب بالعاذل للعاشقين عامة ـ لا له خاصة ـ أن يكف ويدعهم لأنه ليس منهم ولا هم منه فيقول :

يا عَاذِلَ الْعَاشِقِينَ دع فِئَةً أَضَلَّهَا اللهُ ! كَيْفَ تُرْشِدُهَا ؟

لَيْسَ يُحيكُ الْمَلاَمُ فِي هِمَمٍ أَقْرَبُهَا مِنْكَ عَنْكَ أَبْعَدُهَا

٤ — تشخيصه لأثر الحب الكامن والبادى

لم يخل ما سبق أن يكون فى بعضه تصوير صادق لأثر الحب كامنا وباديا، وتشخيص بارز لهذا التصوير يكاد يراه الانسان عيانا غير أن ذلك لم يأت شاملا لهذا الأثر فترك كثيراً منه لم تتقبله تحتها العناوين السالفة . ولهذا رأينا أن نعقد له هذا العنوان لنودع تحته مالم يؤخذ هناك منه ، وبخاصة ماوقع على القلب والكبد خافيا ، وما نال الجسم من ضنى ونحول ظاهراً . فان المتنبي فى الأمرين ماله من تصوير بديع . قال يذكر كيف يكون بدء الهوى بالعين ، وكيف لا يجدى فيه دفاع :

وَأَنَا الَّذِى اجْتَلَبَ الْمَنِيَّةَ طَرْفُهُ فَمَنِ الْمُطَالَبُ وَالْقَتِيلُ الْقَاتِلُ ؟

تَخْلُو الدِّيَارُ مِنَ الظِّبَاءِ وَعِنْدَه مِن كُلِّ تَابِعَةٍ خَيَالٌ خَاذِلُ

اللاءِ أَفْتَكُهَا الجبانُ بِمُهْجَتِى وَأَحَبُّهَا قُرْباً إِلَىَّ الْبَاخِلُ

الرَّامِيَاتُ لَنَا وَهُنَّ نَوَافِرٌ وَالخَاتِلاَتُ لَنَا وَهُنَّ غَوَافِلُ

كَافَأْنَنَا عَنْ شِبْهِهِنَّ مِنَ المَهَا فَلَهُنَّ فِي غَيْرِ التُّرَابِ حَبَائِلُ

وهو يرى أن هذا الرمى لا بد مصيب للدارعين من غير قتال ، وأنه لذلك أصيب على منعة مقاتله فى الوغى من تلك العيون التى لا تخطىء من تريد :

فَدَيْناكَ أهْدَى النَّاسِ سَهْمًا إلى قَلْبِي وَأَقْتَلَهُمْ للدَّارِعِينَ بلاَ حَرْبِ!
وَإِنِّي لَمَمْنُوعُ المقَاتِلِ فِي الوَغَى وإن كُنْتُ مبْذُولَ المقاتِلِ في الحُبِّ
وَمَنْ خُلِقَتْ عَيْنَاكَ بَيْنَ جُفُونِهِ أصَابَ الحَدُورَ السَّهْلَ في المرتَقَى الصَّعْبِ
تفرَّدَ في الأحْكامِ في أهلِهِ الهوَى فأنْتَ جَمِيلُ الخُلْفِ مستحسَنُ الكَذِبِ

ويرى أن الحب إذا جرى فى المفاصل مجرى الدم شغل المحب عن كل ماعداه:

سَبَتْنِي بدلٍّ ذاتُ حُسْنٍ يَزِينُها تَكَحُّلُ عينيْها وليْسَ لها كُحْلُ
جرَى حُبُّها مجرى دمِي في مفاصِلِي فأصبح لي عنْ كُلِّ شُغْلٍ بها شُغْلُ

وأنه إذا خامر القلب كان على مر الزمن فى ازدياد:

وَلَكِنَّ حبًّا خامرَ القلْبَ في الصِّبَا يَزِيدُ عَلَى مَرِّ الزَّمَانِ وَيَشْتَدُّ

ويرى أن لخفوق القلب لهيبا كلهيب جهنم يتحدث عنه لحبيب يعده جنة:

وخُفُوقُ قَلْبٍ لَوْ رَأَيْتِ لَهِيبَهُ يَا جَنَّتِي، لَظَنَنْتِ فِيهِ جَهَنَّمَا

وأن للكبد شيبا كلما خضبه بالسلوة نصل وبان:

إلاَّ يَشِبْ فلَقَدْ شَابَتْ لَهُ كَبِدٌ شَيْبًا إذَا خَضَبَتْهُ سَلْوَةٌ نَصَلاَ

وينعى على الشوق عدم رضاه بكمده، وطمعه أن يجرده من قلبه وكبده:

مَا الشَّوْقُ مُقْتَنِعًا مِنِّي بِذَا الكَمَدِ حَتَّى أَكُونَ بلاَ قَلْبٍ وَلاَ كَبِدِ

ويُعَظِّم من شأن وجده. فيقول لو وجده الحمام لناح معه الأراك:

يَجِدُ الحَمَامُ، وَلَوْ كَوَجْدِي لاَنْبَرَى شَجَرُ الأرَاكِ مَعَ الحَمَامِ يَنُوحُ

وقال يصف فعل النظرات فى القلوب، وإذهابها العقل، وفتكها بالأجسام، ويقدم نفسه شاهدا على ما يقول:

عَزِيزٌ أَسًى مَنْ دَاؤُهُ الْحَدَقُ النُّجْلُ عَياءٌ بِهِ مَاتَ الْمُحِبُّونَ مِنْ قَبْلُ
فَمَنْ شَاءَ فَلْيَنْظُرْ إِلَيَّ فَمَنْظَرِى نَذِيرٌ إِلَى مَنْ ظَنَّ أَنَّ الْهَوَى سَهْلُ
وَمَا هِيَ إِلاَّ لَحْظَةٌ بَعْدَ لَحْظَةٍ إِذَا نَزَلَتْ فِى قَلْبِهِ رَحَلَ الْعَقْلُ
كَأَنَّ لَحَاظَ الْعَيْنِ فِى فَتْكِهِ بِنَا رَقِيبٌ تَعَدَّى أَوْ عَدُوٌّ لَهُ ذَحْلُ
وَمِنْ جَسَدِى لَمْ يَتْرُكِ السُّقْمُ شَعْرَةً فَمَا فَوْقَهَا إِلاَّ وَفِيهَا لَهُ فِعْلُ

وقال يذكر أن الهوى لابد باد بما يفعل فى الحشا وإن كتم الطرف واللسان :

بَادٍ هَوَاكَ صَبَرْتَ أَمْ لَمْ تَصْبِرَا وَبُكَاكَ إِنْ لَمْ يَجْرِ دَمْعُكَ أَوْ جَرَى
كَمْ غَرَّ صَبْرُكَ وَابْتِسَامُكَ صَاحِباً لَمَّا رَآهُ وَ فِى الْحَشَا مَا لاَ يُرَى
أَمَرَ الْفُؤَادُ لِسَانَهُ وَجُفُونَهُ فَكَتَمْنَهُ وَكَفَى بِجِسْمِكَ مُخْبِرَا

وهو لهذا يكذب من ادعى الهوى دون أن يظهر عليه نحول ، فيقول :

تَشْتَكِى مَا اشْتَكَيْتُ مِنْ أَلَمِ الشَّوْ قِ إِلَيْهَا ؛ وَالشَّوْقُ حَيْثُ النُّحُولُ
وَإِذَا خَامَرَ الْهَوَى قَلْبَ صَبٍّ فَعَلَيْهِ لِكُلِّ عَيْنٍ دَلِيلُ

ولقد افتن فى تصوير شدة السَّقام والنحول افتنانا بعيد المدى واسع الخيال. فمرة يتصور نفسه فى جسم كعود الخلال : لولا خطابه ما رآه أحد . ولو أطير عنه الثوب لما بان ، فيقول :

رُوحٌ تَرَدَّدُ فِى مِثْلِ الْخِلاَلِ إِذَا أَطَارَتِ الرِّيحُ عَنْهُ الثَّوْبَ لَمْ يَبِنِ
كَفَى بِجِسْمِى نُحُولاً أَنَّنِى رَجُلٌ لولاَ مُخَاطَبَتِى إِيَّاكَ لَمْ تَرَنِى

ومرة يتصور أن وشاحه لو صار ثقب لؤلؤة لجال فيه جسمه ، وأنه لولا اليقظة لظن نفسه خيالا فيقول :

بِجِسْمِى مَنْ بَرَتْهُ فَلَوْ أَصَارَتْ وِشَاحِى ثَقْبَ لُؤْلُؤَةٍ لَجَالاَ

وَلَوْلاَ أَنَّنِي فِي غَيْرِ نَوْمٍ   لَكُنْتُ أَظُنُّنِي مِنِّي خَيَالاَ

ومرة يرى أن حبيبته ظنت جسمه سلكا، فنظمت فيه لؤلؤا عاقه عن لقاء ترائبها، ويعقب ذلك بأنه لو ألقى فى شق قلم ما غير من خط الكاتب، فيقول:

أَرَاكِ ظَنَنْتِ السِّلْكَ جِسْمِي فَعُقْتِهِ   عَلَيْكِ بِدُرٍّ عَنْ لِقَاءِ التَّرَائِبِ
وَلَوْ قَلَمٌ أُلْقِيتُ فِي شَقِّ رَأْسِهِ   مِنَ السُّقْمِ مَا غَيَّرْتُ مِنْ خَطِّ كَاتِبِ

وهو لذلك يؤمن حبيبته إمكان العناق فيقول:

أَنْتِ مِنَّا، فَتَنْتِ نَفْسَكِ لٰكِنْـ   ـكِ عُوفِيتِ مِنْ ضَنًى وَاشْتِيَاقِ
حُلْتِ دُونَ الْمَزَارِ، فَالْيَوْمَ لَوْ زُرْ   تِ لَحَالَ النُّحُولُ دُونَ الْعِنَاقِ

على أنه أحيانا يتصور حبيبه ناحلا مثله، ويتخيل جسميهما دون العناق كشكلتى نصب أدقها الشاكل مقاربا:

كَمْ وَقْفَةٍ سَجَرَتْكَ شَوْقًا بَعْدَ مَا   غَرِيَ الرَّقِيبُ بِنَا وَلَجَّ الْعَاذِلُ
دُونَ التَّعَانُقِ نَاحِلَيْنِ كَشَكْلَتَيْ   نَصْبٍ أَدَقَّهُمَا وَضَمَّ الشَّاكِلُ

ثم افتن أيضا فى تنحل أسباب النحول، فبلغ فى ذلك مدى ما بلغ فى بيان مقداره؛ فحينا يجعله من صلة الهجر وهجر الوصال فيقول:

صِلَةُ الْهَجْرِ لِي وَهَجْرُ الْوِصَالِ   نَكَسَانِي فِي السُّقْمِ نُكْسَ الْهِلَالِ
فَغَدَا الْجِسْمُ نَاقِصًا، وَالَّذِي يَنْـ   ـقُصُ مِنْهُ يَزِيدُ فِي بَلْبَالِي

وحينا يجعله سقم عينى الحبيب أعاره إياه، على تحميله من الهوى ما يراجح روادفه فيقول:

أَعَارَنِي سُقْمَ عَيْنَيْهِ، وَحَمَّلَنِي   مِنَ الْهَوَى ثِقْلَ مَا تَحْوِي مَآزِرُهُ

وحينا يقصد إلى الهوى قصدا فيجعله السبب المباشر ويقول:

وخيالُ جِسْمٍ لمْ يُخَلِّ لهُ الهوى لَحْماً فيُنْحِلَهُ السَّقامُ وَلا دَما

أو يتخطى إليه عن طريق وجه حبيبته الذى تسبب رؤيته له ضنى فيقول:

يَا وَجْهَ (داهِيَة) الّذى لولاكَ مَا أكَلَ الضَّنى جِسْمى ورَضَّ الأعْظُما

وحينا ينسبه إلى مشاكلته الصبر بحيث ينحل كما نحل فيقول

الوَجْدُ يَقْوَى كَمَا تَقْوَى النَّوَى أبَدًا والصَّبْرُ يَنْحَلُ فى جِسْمِى كَمَا نَحِلا

ثم هو قد يجعل نحوله مصدر مشابهة يحكى حدوثها كما يقول فى المطر يحل رسوم الديار.

مَا زَالَ كُلُّ هَزِيمِ الوَدْقِ يُنْحِلُها والسُّقْمُ يُنْحِلُنِي حتى حكَتْ جَسَدِى

وَكُلَّمَا فاضَ دَمْعِي غاضَ مُصْطَبَرِى كَأنَّ ما سَالَ مِنْ جَفْنَيَّ مِنْ جَلَدِى

أو يعجب إذا لم تحدث - كما يقول - فى الليل :

أَلَمْ يَرَ هذَا اللَّيْلُ عَيْنَيْكِ رُؤْيَتِى فَتَظْهَرَ فِيـــهِ رِقَّةٌ ونُحُولُ !

على أنه يحب هذا النحول من أجل أحبته كما يقول :

وإنِّى لأعْشَقُ مِنْ أجْلِكُمْ نُحُولِى وَكُلَّ امْرِئٍ ناحِلِ

ويأسف أشد الأسف إذ تلاشت أعضاؤه، فلم يبق للنحول عنده مجال، فيقول:

وَشَكِيَّتِى فَقْدُ السَّقَامِ؛ لأنَّهُ قَدْ كَانَ لَمَّا كَانَ لى أعْضَاءُ

ثم يفرق فى التخيل فيقول: إن هذا التلاشى مكنه من كتمان حبه، إذ أصبح لا يظهر فيه النحول:

كَتَمْتُ حُبَّكَ حَتَّى مِنْكَ تَكْرِمَةً ثُمَّ اسْتَوَى فِيهِ إسْرَارِى وإعْلانِى

كَأَنَّهُ زَادَ حَتَّى فَاضَ عَنْ جَسَدِى فَصَارَ سُقْمِي بِهِ فى جِسْمِ كِتْمَانِى

وبعـــد

فتلك لمحة مصورة للنواحى الغزلية التى عالجها المتنبى فى مطالع قصائده؛ وهى لاشك دالة على مقدرته فى هذا الفن من الغزل ، وإن كان لم يخص له ، ولم يقصد إليه لما أسلفنا من أسباب ، أهمها أنه لم يحق المرأة ولم تحاق المرأة له . ولعله لذلك وقع فيما لم يكن يقع فيه معها لو خاق عاشقا غزلا ، يحس مخالطة النساء ، ويكون رقيقا فى الحديث عنهن . وإليك من هذا شيئا :

استباح المتنبى أن يدعو على الخدود بالخد ، وعلى القدود بالقد ، لأنهن أسلن مقلته ، وعذبن قلبه . وهذا غير معهود فى أقوال العشاق ، لأنه شأن الهوى كما ذكر هو فى بيته الأخير ، كأنه يرد على نفسه إذ يقول :

أَيَا خَدَّدَ اللهُ وَرْدَ الخُدُود وقدَّقُدُودَ الحسانِ القُدُود !

فهُنَّ أسلْنَ دَماً مُقْلَتى وعذَّبْنَ قلبى بِطُولِ الصُّدُود

وكَمْ للهَوَى مِنْ فتىً مُدْنَفٍ وكمْ للنَّوى مِنْ قَتِيلٍ شَهِيدِ

واستباح بمثل هذا الجفاء أن يصرح ببغضه طيف من أحب ، وهذا غير جائز فى عرف المغرمين مهما اصطنع له من أسباب ، على أن السبب الذى أورده جاء به من ناحية السلوان لآثار الحب ، ومقابلته بلا له بالعفة عن الهوى والزهد فيه ، فجاء ذلك خروجا ثانيا إذ يقول :

إِنِّى لأُبْغِضُ طيفَ مَنْ أَحْبَبْتُهُ إِذْ كَانَ يَهْجُرُنا زَمَانَ وِصَالِهِ

وَقَدِ استَفَدْتَ مِنَ الهوى ، وَأَذَقْتَهُ مِنْ عِفَّتِى مَاذُقْتُ مِنْ بَلْبَالِهِ

كما استباح أن يطالب للربوع فيما مضى العطش وسقيا السم .

واستباح أن يجرد حبيبته من سياج التمنع الواجب للمرأة ، ويطالب إليها أن تكون طلقة الوجه سماحا بالوصل ، وألا يكون نيلها منقوصا فقال :

حَاشَى لِمِثْلِكِ أَنْ تَكُونَ بَخِيلَةً وَلِمِثْلِ وَجْهِكِ أَنْ يَكُونَ عَبُوسَا

وَلِمِثْلِ وَصْلِكِ أَنْ يَكُونَ مُمَنَّعًا وَلِمِثْلِ نَيْلِكِ أَنْ يَكُونَ خَسِيسَا !

واستباح أن يخرج فى دلك عن خاصته نفسه إلى أهل العشق جميعا ، ينعى عليهم عشقهم ، ويذكر أنهم لو عرفوا الزمن ما عشقوا ، ويضن بفناء عيونهم دمعا وأنفسهم قضاء وراء حسان الوجوه قبيحات الفعال ، ثم ينادى على الحمول : أن تحملوا عنى فلست أخشى بينا ، ويغالى بمهجته أن يكون فى الهوادج ثمن لها إن مات شوقا ؛ وذلك حيث يقول :

مِمَّا أَضرَّ بِأَهْلِ العِشْقِ أَنَّهُمُ هَوُوا وَمَا عَرَفوا الدُّنْيَاوما فَطِنوا

تَفْنَى عُيُونُهُم دَمْعًا وأَنْفُسُهُمْ فِى إثْرِ كُلِّ قَبِيحٍ وَجْهُهُ حَسَنُ

تَحَمَّلُوا ! حَمَلَتْكُمْ كُلُّ نَاجِيَةٍ ! فَكُلُّ بَيْنٍ عَلَىَّ الْيَوْمَ مُؤْتَمَنُ

مَافِي هَوَادِجِكُمْ مِنْ مُهْجَتِى عِوَضٌ إنْ مِتُّ شَوْقًا ، وَلاَ فِيهَا لَهَا ثَمَنُ !

وما القبح الذى يعنيه إلا الطباع المرأة المبغضة إليه ، والتى يحسن تصوير عقيدته فيها إذ يقول :

إِذَا غدَرَتْ حَسْنَاءُ وفَّتْ بِعَهْدِهَا فَمِنْ عَهْدِهَا أَلاَّ يَدُومَ لَهَا عَهْدُ

وَإِنْ عَشِقَتْ كَانَتْ أَشَدَّ صَبَابَةً وإنْ فَرِكَتْ فَاذْهَبْ فَمَا فِرْكُهَا قَصْدُ

وَإِنْ حَقَدَتْ لَمْ يَبْقَ فِى قَلْبِهَا رِضًا وإنْ رَضِيَتْ لَمْ يَبْقَ فِى قلْبِهَا حِقْدُ

كَذَلِكَ أَخْلاَقُ النِّسَاءِ ؛ وَرُبَّمَا يَضِلُّ بِهَا الْهَادِى ، ويَخْفَى بِهَا الرُّشْدُ

فالمتنبى فى غزله لم يكن ليعنى المرأه حقا . إنما هو شىء اضطر إليه على عادة العرب اضطرارا ؛ وكأنه كان يقصد فيه إلى غيره كما يقول :

مُحِبٌّ كَنَى بِالْبِيضِ عَنْ مُرْهَفَاتِهِ وبِالْحُسْنِ فِى أَجْسَامِهِنَّ عَنِ الصَّقْلِ

وبِالسُّمْرِ عَنْ سُمْرِ الْقَنَا ، غَيْرَ أَنَّنِى جَنَاهَا أَحِبَّائِى ، وَأَطْرَافُهَا رُسْلِى

ولعله لهذا كان سيء المطالع معقدها فى نسيبه ، حسنها سهلها إذا افتتح بغير السبب ، كما كان كذلك حسنا سهلا حينما يتخلص من النسيب إلى ما يريد . شأن

المصرف عما يغض إلى ما يحب انقياداً لطبيعة النفس، وإليك فى هذا أمثالا :

فمن مطالعه السيئة فى النسيب وقل منها غير السيء :

كفِىً ، أرَانِي ـ وَيْكِ لومَكِ ـ ألْوَمَا هَمٌّ أقامَ عَلَى فُؤادٍ أنْجَمَا

أحَادٌ أمْ سُدَاسٌ فى أحَادِ لُيَيْلَتُنَا المَنُوطَةِ بِالتَّنَادِى

ولا داعى إلى الاطالة فى هذا وهو كثير .

ومطالعه الحسنة حيث لا يقدم نسيبا كثيرة جدا . منها فى الرثاء :

إنِّى لأعْلَمُ ، واللّبيبُ خَبِيرُ أنَّ الحَيَاةَ (وإنْ حَرَصْتَ) غُرُورُ

نُعِدُّ المَشْرَفِيَّةَ وَالعَوَالِي وَتَقْتُلُنَا المَنُونُ بِلاَ قِتَالِ

الحُزْنُ يُقْلِقُ، والتَّجَمُّلُ يَرْدَعُ وَالدَّمْعُ بَيْنَهُمَا عَصِىٌّ طَيِّعُ

ومنها فى المدح :

يا بَدْرُ، إنَّكَ ـ والحَديثُ شُجُونُ ـ مَنْ لَمْ يَكُنْ لِمِثَالِهِ تَكْوِينُ

عَدُوُّكَ مَذْمُومٌ بِكُلِّ لِسَانِ وَلَوْ كَانَ مِنْ أعْدَائِكَ القَمَرانِ

فِدًى لكَ مَنْ يُقَصِّرُ عنْ نَدَاكَا فَلاَ مَلِكٌ إذَنْ إلا فَدَاكَا

ومنها فى الهجو :

مِنْ أيَّةِ الطُّرْقِ يَأْتِى مِثْلَكَ الكَرَمُ أيْنَ المَحَاجِمُ يا كافُورُ ، والجَلَمُ ؟

قالُوا لَنَا: مَاتَ إسْحَاقٌ، فَقُلْتُ لَهُمْ: هذا الدَّوَاءُ الّذِى يَشْفِى مِنَ الحُمْقِ

إنْ تَكُ طَيِّئٌ كَانَتْ لِئَامًا فَألأمُهَا رَبِيعَةُ أوْ بَنُوهُ

ومنها فى الفخر :

أُطَاعِنُ خَيْلاً مِنْ فَوَارِسِهَا الدَّهْرُ وَحِيداً، وَمَا قَوْلِى كَذَا وَمَعِى الصَّبْرُ !

لا افْتِخَارُ إلاَّ لِمَنْ لاَ يُضَامُ مُدْرِكٍ ، أَوْ مُحَارِبٍ لا يَنَامُ

ومنها فى علو الهمة :

إلى أىّ حِينٍ أنتَ فى زِىّ مُحْرِمٍ وحتَّى متى فى شِقْوَةٍ ، وإلى كَمْ ؟

إذَا غَامَرْتَ فى شَرَفٍ مَرُومٍ فلاَ تَقْنَعْ بِمَا دُونَ النُّجُومِ

ومنها فى شكوى الدهر :

أَفَاضِلُ النَّاسِ أغْرَاضٌ لِذَا الزَّمَنِ يَخْلُو مِنَ الْهَمِّ أَخْلاَهُمْ مِنَ الْفِطَنِ

عِيدٌ ، بأيَّةِ حَالٍ عُدْتَ يا عِيدُ بِمَا مَضَى ، أَمْ لِأَمْرٍ فيكَ تَجْدِيدُ ؟

ومنها فى الإقدام على حرب :

لِهَذَا الْيَوْمِ بَعْدَ غَدٍ أَرِيجُ وَنَارٌ فى الْعَدُوِّ لَهَا أَجِيجُ

ومنها فى العتاب :

وَاحَرَّ قَلْبَاهُ مِمَّنْ قَلْبُهُ شَبِمُ وَمَنْ بِجِسْمِى وَحَالِى عِنْدَهُ سَقَمُ

ومنها فى علة :

إِذَا اعْتَلَّ سَيْفُ الدَّوْلَةِ اعْتَلَّتِ الْأَرْضُ وَمَنْ فَوْقَهَا ، وَالْبَأْسُ وَالْكَرَمُ الْمَحْضُ

ومنها فى شفاء :

الْمَجْدُ عُوفِىَ إِذْ عُوفِيتَ وَالْكَرَمُ وَزَالَ عَنْكَ إِلَى أَعْدَائِكَ السَّقَمُ

ومنها فى كتاب ورد :

فَهِمْتُ الْكِتَابَ أَبَرَّ الْكُتُبْ فَسَمْعًا لِأَمْرِ أَمِيرِ الْعَرَبْ

ومنها فى التهنئة بنيروز :

جَاء نَيْرُوزُنَا وَأَنْتَ مُرَادُهْ وَوَرَتْ بِالَّذِى أَرَادَ زِنَادُهْ

إلى غير ذلك من المطالع الكثيرة التي ليس فيها شيء معيب .

أما تخلصه من النسيب إلى الأغراض الأخرى ، فقد كان يجيده لنشاط النفس إليه ورغبتها فيه ، وهذا بعض منه ينتهي به الموضوع . من ذلك قوله :

قالتْ: عنِ الرِّفدِ طِبْ نفسًا، فقلتُ لها: لا يَصْدُرُ الحُرُّ إلاَّ بعدَ مَوْرِدِهِ

لمْ أعرفِ الخيرَ إلاَّ مُذْ عرفتُ فتًى لمْ يُولَدِ الجُودُ إلاَّ عندَ مَوْلِدِهِ

———

ها فانظري أوْ فظُنِّي بي ترَىْ حُرَقًا مَنْ لمْ يذُقْ طرَفًا منها فقدْ وَأَلا

علَّ الأميرَ يرَى ذُلِّي فيشفعَ لي إلى التي تركتْني في الهوَى مَثَلا

———

أُحِبُّ التي في البدْرِ منها مَشابِهٌ وأشكو إلى منْ لا يُصابُ لهُ شكْلُ

إلى واحدِ الدُّنيا، إلى ابنِ محمَّدٍ شُجاعَ الذي للهِ ثمَّ لهُ الفضْلُ

———

بَرِحْتَ يا مَرَضَ الجفُونِ بِمُمْرَضٍ مَرِضَ الطَّبيبُ لهُ وعِيدَ العُوَّدُ

فلهُ بنُو عبدِ العزيزِ بنِ الرِّضا ولكُلِّ رَكْبٍ عِيسُهُمْ والفَدْفَدُ

———

مرَّتْ بنا بينَ تِرْبَيْها، فقُلْتُ لها: مِنْ أينَ جانَسَ هذا الشادِنُ العرَبا؟

فاستضحكتْ ثمَّ قالتْ: كالمُغِيثِ يُرَى ليْثَ الشَّرَى وهوَ منْ عِجْلٍ إذا انتسبَا

———

ضَنًى في الهوَى كالسُّمِّ في الشَّهْدِ كامِنًا لَذِذْتُ بهِ جهلاً؛ وفي اللَّذَّةِ الحَتْفُ

فأفنَى وما أفنتْهُ نفسِي كأنَّما أبُو الفرَجِ القاضِي لهُ دُونَها كهْفُ

———

أظْمَتْنيَ الدُّنيا، فلمَّا جئْتُها مُسْتَسْقِيًا مَطَرَتْ عليَّ مَصائِبا

حالٌ متَى علِمَ ابنُ منصُورٍ بها جاءَ الزَّمانُ إليَّ منها تائِبا

———

حَدَقُ الحِسَانِ مِنَ الغَوَانِي هِجْنَ لِي يَوْمَ الفِرَاقِ صَبَابَةً وَغَلِيلاَ
حَدَقٌ يُذِمُّ مِنَ القَوَاتِلِ غَيْرَهَا بَدْرُ بْنُ عَمَّارِ بْنِ إِسْمَاعِيلاَ

وُقِيَ الأَمِيرُ هَوَى العُيُونِ؛ فَإِنَّهُ مَا لاَ يَزُولُ بِبَأْسِهِ وَسَخَائِهِ
يَسْتَأْسِرُ البَطَلَ الكَمِيَّ بِنَظْرَةٍ وَيَحُولُ بَيْنَ فُؤَادِهِ وَعَزَائِهِ

وهو مع إكثاره من التخلص فى بيتين لم يك يعييه التخلص ببيت واحد كقوله:

فَأَيْنَ مِنْ زَفَرَاتِي مَنْ كَلِفْتُ بِهِ وَأَيْنَ مِنْكَ، ابْنَ يَحْيَى، صَوْلَةُ الأَسَدِ

نُوَدِّعُهُمْ وَالبَيْنُ فِينَا كَأَنَّهُ قَنَا ابْنِ أَبِي الهَيْجَاءِ فِي قَلْبِ فَيْلَقِ

وَبُهْجَتِي يَا عَاذِلِي المَلِكُ الَّذِي أَسْخَطْتُ أَعْذَلَ مِنْكَ فِي إِرْضَائِهِ

إلى نحو ذلك من التخلصات الكثيرة المنسجمة . التى تدل أوضح دلالة على انسجام نفسه حينما يريد مغادرة الغزل إلى غيره . وإن كان أجاد فيه لمزيد قوته وفضل قدرته ؛ ولولا ذلك لما أغنى فيه شيئا وحاله من النساء وحال النساء منه كما وصفنا .

السباعى بيومى

جاء البيت التالى على غير وجهه فى أول هذا المقال ـ ص ١٣٢ ـ فنعيده هنا مصححا .

لا يدفع الناس ضيما بعد ليلتهم إذ لا تمــد إلى الجانى عليك يد

غزل المتنبي وحبـــه

بقلم على الجندى

المدرس بالمدرسة الخديوية

تمهيد :

الغزل أرقّ فنون الشعر ، وأخفها وقعا على الآذان ، وأكثرها التحاما بالصدور ، وأشدها حوكا فى الطباع ، وأقربها إلى الفطرة الإنسانية ؛ وإنما كان كذلك ، لأنه فى جملته وتفصيله يدور حول (المرأة) شطر الآدمية الثانى ، وريحانة الحياة ، وزينة العيش ، ومجلى البهجة والإيناس . موضوعه شائق خلاب تستشرف إليه النفوس بأصل الجبِلّة ، يستوى فى ذلك الأمير والصعلوك ، والبر والفاجر ، والشريف والوضيع .

وهو - إلى ذلك - ترجمان العواطف ، وصدى المشاعر ، وفيض الوجدانات . وكلُّ ما انبثق من هذا النبع الصافى ، وشع من هذا الروح المتوهج ، انفرجت لبشاشته الصدور الحرجة ، وألقت إليه القلوب بأزمتها ، فخامر شَغافها ، وحل منها فى السواد . ثم هو بعد هذا وذاك ، حديث طلى عن ذلك الطلسم الذى يسمونه (الحب) ، وتصوير بارع لأحداثه ووقائعه ، ورسم دقيق لآلامه وآماله ، فتسفيق الكلام فيه يصادف هوى من نفوس الناس جميعا : يصبو إليه الشجى ، لأنه يترجم له ما ينتزى فى جوانحه ، ويجول فى سرائره ، ويجلّى لعينيه حالات كابد نظائرها ، ومارس أمثالها ، فيذكى بعضُها لوعته ويَشب وجده ، ويُفيض عليه بعضها التعزية والتأساء ، وكلا الأمرين أثير عنده محبب إليه ؛ ويرتاح إليه الخلى ، لأنه فكاهات مستملحة ، وأقاصيص مستعذبة ، ترضى حاسته الفنية ، وترف رفيفا ندياً على عواطفه ، يحرك منها الوتر الحساس ، فهو محب بالقوة إن

فاته أن يكون محبا بالفعل . وأقل ما يفيده منه أنه يجد من الرَّوح والطرب له . مايجده مُشاهد الحوادث الغرامية ، على ستار الخيالة الفضي .

والغزل أول ما تنفح به نوافح القرائح ، وتتفتق عنه أكمام الأذهان . وذلك إبان الحداثة ، إذ الغصن رطيب ، والبرد قشيب ، والعيش طلق المحيا ، مؤتنف الظل ، والنفس فارغة من الهموم لاتلتفت بالاً إلى تيار الحياة الصاخب حولها . والغرائز فى عتو فورتها واحتدامها ، وقد يعوزه فى هذا الطور ، إحكام النسج ودقة الصياغة ، وصفاء الديباجة والغوص على المعانى الثرية ، ولكن يروقك ما يترقرق فيه من ومَضات الشعور الجياش ، وما يرتسم عليه من سمة الصدق ورونق الإخلاص ، ثم لا يزال يقوى ويستحصد ، ويزدهر ويتسق فى رعاية الحب ، وكنف الشباب ، حتى يهرم بهرم قائله . فاذا هو ذكريات ممضة ، وتحسر فاجع ، ونوح مشج ، وأنين موصول !

وهو قسمان : طبيعى وصناعى :

فالأول ما كان مبعثه حُبّ برّح يُنحل الأجساد . ويقرح الأكباد . ويكحل الجفون بالسهاد . ويطلق الألسنة بالشكوى والأنين ! كذلك التراث الضخم الذى خلّفه لنا جميل بثينة ، وقيس لبنى ، ومجنون ليلى ، ومن إليهم من صرعى الهوى العذرى . وهذا النوع يتقمصه روح قوى يسيطر على المشاعر والقلوب . ويهز النفوس من أعماقها هزا عنيفا . لأنه ذوب المهجة وعصارة الكبد وخفق الفؤاد ، ومن ثم كان يبعث الشجن ، ويثير الرحمة و الإشفاق .

وهو قوى فى لين ووداعة ، يبرأ من الزخارف والأفواف والحلىَ اللفظية . لأنه يتفجر من صميم العواطف ، تفجر الماء من الينابيع ، دون تكلف ولاتعمل . ولأن قائليه يشدون به لا قصد الفخر ولا المباهاة ، ولكن ليفثوا لوعة تعتلج فى صدورهم ، وليرضوا عواطفهم قبل أن يرضوا الناس . كالبلابل الصادحة فى ذرا الأيك ، ترسل تغاريدها متوارية عن العيان . فى ظلال الوحدة الشاملة ، لأنها تشعر بحاجتها إلى الغناء ، ولا عليها بعد ذلك أن تتلاشى تلك الأسجاع فى أجواز الفضاء ، أو تلتقطها أذن مستمع فتهيج شجوه ، وتثير طربه . وهو خال من العبث والمحانة :

لأنه يعمس في طوار التصون والطهر . ولذلك لا يسرف في وصف المحبوب بالصفات حسية . التي تصوره عاريا من قمة رأسه إلى أخمص قدمه ، تصويراً ينبه الغرائز لوضيعة . شأن شعراء عجزوا عن رسم عواطفهم : لأنهم لم يجدوا حرقة الحب ، فصاروا إلى الحبيب المسكين يجردونه من الشعار والدثار . ويشرّحونه بمباضعهم الحادة . وإنما هو غزل لطيف الجوهر يشف لك عن قائله : يبث وجده ، ويشكو صبابته ، ويسفح عبراته ، ويعد زفراته . ويصف طول الليل عليه . وفعل الهوى به . وأثر الهجر فيه . ويتغنى بحبه في البعد والقرب ، ووفائه في القطيعة والوصل ، وحبه في السخط والرضا . فإن عن له أن يجلو محاسن المحبوب لم يزد على زهرات ضاحكة . ينثرها هنا وهناك نثرا رفيقا . لا تكسف لونه . ولا تذهب بروحه .

وهذا الغزل الطبيعي ـ لعفة لفظه ، وسمو معناه ، وصدق منزعه . وتمثله من بعض العواطف ـ يصقل الذوق ، ويرهف الاحساس . ويلين العريكة . ويذهب بجساوة الطبع ، وجفاء الخلق . ويفيد النفس رقة الحاشية ولطف الشمائل : وليس فيه من عيب إلا أنه يلذع الأحشاء . ويوقظ الصبوة الهاجعة . لذلك كان بعض القدامى يتحرج من أخذ الصبيان بروايته ، حتى لا يفتح عليهم بابا من البلاء الماحق .

أما الغزل الصناعي ، فينبع من اللسان لا القلب ، ويخضع لسلطان الفكر لا الشعور ، فترى ألفاظه مختارة . وأسلوبه مصنى ، وديباجته مشرقة وهاجة ، وحوكه متينا محكما ، لكثرة ما تأنق الشاعر في صقله وهندمته ، وأكثر من تسليط الخيال عليه ، يكسوه بردا موشيا منمنما . ويسحر عين الناظر ، ويملك على نفسه مذاهبها ، وغالبا تكثر فيه الأفكار الدقيقة . والمعاني الاختراعية البديعة ، وتشيع فيه الليونة والرخاوة ، حتى تصل إلى التهالك والخنوثة في بعض الأحيان ، وهو مع هذا اللألاء والبهاء ، والإطار المذهب المفضض . لا يفعل فعل سابقه . وإن كان المغرمون ـ وبخاصة من لا يقرض الشعر ـ يعجبون به . لأنه يجلو عليهم مباهج المحبوب في أروع صورة ، ويسقطون فيه على معان يحسونها هم في قرارة نفوسهم ، وإن لم يحس بها ناظموه ، والشاعر يصوغ هذا الشعر محاكاة وتقليدا . وقد يعنى نفسه في حبك وشيه ، وتنسيق فرائده . لأنه يعز عليه ـ وهو شاعر ـ ألا يأخذ بنصيب

من هذا اللون المحبوب . وهو يتحدث فيه عن حبيبه أكثر مما يتحدث عن نفسه . فيخلع عليه كل ما عرف من سمات الملاحة . فيخيل إليك أنك أمام صورة زيتية أفرغ فيها حذقه رسام عبقرى الخيال ، صنَع اليد ، وإعجابنا بهذا النوع إعجاب فن لا عاطفة ، وصنعة لا إلهام . كما تأخذ عينك بيتا متين البناء ، رفيع الدعائم ، ماهر النقش ، حسن الطلاء ، فيوحى إليك شعوراً بجلال الفن ودقة الهندسة . ولكنك لا تلمح فيه من الجمال المعنوى ، والبهجة الروحية ، ما تلمح فى المنزل الريفى الساذج النائم فى أحضان المروج النضرة . ولو أننى سئلت عن تعريف الغزل ، لأجبت عفو الخاطر : إنه أناشيد الحب وألحان الغرام ، يهتف بها الصافى والمتصابى تمجيداً لمعنى الحسن ، وإشادة بمكانة الجمال .

وهو قسميه آية ضعف الرجل أمام المرأة ، وخضوعه لتأثير سحرها وفتنتها . فيفخر الرجل ما شاء بقوة الساعد وشدة الأسر ، وسعة الحيلة ، وبسطة الجسم والعقل ، فما ذلك بنافعه : لقد سجلت دواوين الغزل استرقاق بنات حواء أبناء آدم . وللشاعر فضل على المرأة من هذه الناحية لا ينكر ، فقد خلع عليها من خياله حلة سحرية ، وحفها بهالة مؤتلقة فاتنة ، تسمو بها عن الحقيقة درجات ؛ وحسبه أنه خلد محاسنها فى لوح الشعر الخالد .

***

بعد هذا التمهيد الذى لم يكن بدّ من تقدمته بين يدى غزل المتنبى ، لندرسه دراسة يرضاها البحث المنظم ، يجمل بنا أن نسأل هذا السؤال : هل أحب المتنبى ؟ والجواب عن ذلك : أننا إذا أردنا الحب العابر الذى لا يعدو الإعجاب بالحسن ، والطرب إليه ، والذى يمر بالإنسان مرا خفيفا ، فلا ينال منه إلا كما ينال النسيم العليل من الأشجار الضخمة الواشجة الجذور ، يمس أعطافها فتحييه بهزة لينة تشبه هزة الثمل النشوان - لا نستطيع أن نبرىء ساحة المتنبى منه ، بل نقسو عليه إذا حرمناه هذا النصيب الضئيل ، فليس يخلو قلب من صبوة كما يقولون . والمتنبى - وإن تغنى بالصوارم والقنا ، وخضب يده بالدماء - يحمل بين جوانحه قلب شاعر ، يتفطن لمعانى الجمال ويدرك أسراره .

أما ذلك الحب العالى الذى يخترم الجسم ويدلّه العقل ، ويعصف بالأحشاء ويضرمها سعيرا ، ويترك صاحبه مذهوبا به كل مذهب ـ فليس المتنبي منه فى معدى ولا مراح . وبين طبيعته وبين هذا الحب سد منيع لا ترقى إليه الظنون . ونحن لا نلقى الكلام على عواهنه فإليك الأدلة القاطعه :

(١) الحب عاطفة تتفتح وتزدهى فى ميعة الصبا ، حيث يحيط بها نطاق من المرعى الخصيب داخل النفس وخارجها ، تستمد منه غذاءها الصالح ؛ فحينما نفتش عن الحب ، يجب أن نطلبه فى هذا العهد الرخى من العمر ، فان من النادر أن تعلق الإنسان حبائله بعد أن طوى تلك المرحلة سليما معافى منه ؛ وتاريخ المتنبي فى هذه الحقبة يبرأ من الحب براءة تامة ، فتراه صبيا شكس الخليقة ، حمى الأنف ، كثير الاعتداد بنفسه ، بعيد مرامى الهمة ، يهمس بالثورة النازية ، ويتطال إلى معالى الأمور ويتحدث عن آمال جسام ، لو تحدث عنها ولى عهد مملكة لرمى بالهوس والجنون ، وتقرأ شعره فاذا هو مصدق لسيرته :

فمنزلته أرفع المنازل وأسناها :

أَمِطْ عَنْكَ تَشْبِيهِي بِـ(مَا ، وَكَأَنَّهُ) فَمَا أَحَدٌ فَوْقِي وَلاَ أَحَدٌ مِثْلِي

وهمته كهمة الدهر لا تتكاءدها العظائم :

تُحَقِّرُ عِنْدِي هِمَّتِي كُلَّ مَطْلَبٍ وَيَقْصُرُ فِي عَيْنِي الْمَدَى الْمُتَطَاوِلُ

ويجيش صدره بالثورة فيرغى ويزبد :

لَقَدْ تَصَبَّرْتُ حَتَّى لاَتَ مُصْطَبَرٍ فَالْيَوْمَ أُقْحِمُ حَتَّى لاَتَ مُقْتَحَمِ

لأَتْرُكَنَّ وُجُوهَ الْخَيْلِ سَاهِمَةً وَالْحَرْبُ أَقْوَمُ مِنْ سَاقٍ عَلَى قَدَمِ

ويقال له وهو فى المكتب : ما أحسن هذه الوفرة ! (الشعر المجتمع على الرأس) فتنشق من جوابه رائحة الدم ، وتسمع قعقعة السلاح :

لاَ تَحْسُنُ الْوَفْرَةُ حَتَّى تُرَى مَنْشُورَةَ الضَّفْرَيْنِ يَوْمَ الْقِتَالْ

عَلَى فَتًى مُعْتَقِلٍ صَعْدَةً يَعُلُّهَا مِنْ كُلِّ وَافِي السِّبَالْ

إلى غير ذلك من الأبيات التى تبرزه لنا معنًى بجلائل الأعمال ، لا بربات الحجال .

(٢) لانعثر فى غزل المتنبى جميعه على اسم واحد لامرأة تعشقها . وكل ماهنالك أن اسم (جُمْل) ورد فى بيت مهلهل النسج . قلق الألفاظ . وأدنى نظرتين نـ أن هذا الاسم اقتضته ضرورة الوزن . والبيت من قصيدة لامية له وهو :

إذا عَذَلُوا فيها أَجَبْتُ بأنَّةٍ حُبَيِّبَتَا ، قَلْبَا ، فُؤَادَا ، هَيَا جُمْلُ !

ولا نكاد نصدق أن شاعرا صادق الصبابة ، لا يظهر فى فلتات لسانه اسم من يحب . على حين أن مجيرى الشعراء المحبين ، التغنى بأسماء الحبائب تلذذا بذكرهن :

وقد يقال : إن المتنبى لا يرى مذهب من يقول :

فصرح بمن تهوى ، ودعنا من الكنى فلا خير فى اللذات من دونها ستر

فنقول : هناك مذهب آخر كان يمكن أن يسلكه ، وقد عبر عنه الشاعر بقوله .

أكنى بغير اسمها وقد علم اللــه خفيات كل مكتتم

(٣) ليس للمتنبى قصيدة أو مقطوعة غزلية مستقلة ، بل جاء كل غزله تصديرا لمدائحه ، ومن الغريب أن هذا الحكم يسحب على عهد صباه ، فكيف يجود المتنبى على سيف الدولة بثلث شعره ، ويضن على من يهوى بقطعة غزلية يبعثها من قرارة نفسه خالصة لوجه الحب فلا يصلها بأمداحه !

(٤) عاش المتنبى طول حياته متهوسا بالعظمة ، وتحصيل أدوات الرياسة والسؤدد ، والضرب فى مناكب الأرض لكسب الثروة والجاه ، ومثل هذا الطموح الجامح إلى أبعد الغايات يشغل وقت صاحبه وقلبه معا عن الحب والحبيب ، وهو أمر تقره الطباع ، وتؤكده التجارب ، وقد أعرب المتنبى فى شعر كثير عن مثله العليا فى الحياة ، وعن همومه التى أقضت مضجعه وبلبلت فكره ، وحفزته إلى المغامرة وركوب الأخطار ؛ نكتفى منها بهذه الشواهد :

ذَرَانِى وَالْفَلاَةَ بِلاَ دَلِيلٍ وَوَجْهِي وَالْهَجِيرَ بِلاَ لِثَامِ

فإنى أستريح بذى وهذا وأتعب بالإناخة والمقام

ضروب الناس عشاق ضروبا فأعذرهم أشفهم حبيبا

وما سكنى سوى قتل الأعادى فهل من زورة تشفى القلوبا؟

أهم بشىء والليالى كأنها تطاردنى عن كونه وأطارد

وحيد من الخلان فى كل بلدة إذا عظم المطلوب قل المساعد

(٥) كان المتنبي رجل جد وصرامة ، لا يتهالك على اللذة ، ولا يتبنك النعيم والترف ، ولا يستجيب لدواعى العبث واللهو ، ولا يعاقر الشراب إلا على قلة مجاملة لخلصائه من العلية والأشراف . والحب ـ وإن كان وثيق الصلة بالطباع ـ نوع من المجانة على كل حال ، لا تجذب جواذبه القلوب القوية الشكائم ، ولا ينفذ سحره إلى النفوس المفتونة بالمجد والعلا ، وللمتنبي فى ذلك شعر يشبه أن يكون تعجبا من هذا الشذوذ الذى انفرد به ، فيقول عن نفسه العاتية الأبية :

سبحان خالق نفسى كيف لذتها فيما النفوس تراه غاية الألم

ويصور قلبه العصى المتمرد :

وفى الناس من يرضى بميسور عيشه ومركوبه رجلاه ، والثوب جلده

ولكن قلبا بين جنبى ماله مدى ينتهى بى فى مراد أحده

يرى جسمه يكسى شفوفا تربه فيختار أن يكسى دروعا تهده

يكلفنى التهجير فى كل بلدة عليق مراعيه ، وزادى ربده[1]

ويعرف المجد تعريفا يكشف لنا عن نزعته الجبارة :

---

(١) النعام فى لونه غبرة

فَلاَ تحْسَبَنّ المجدَ زِقّاً وقَينَةً فَمَا المَجْدُ إلاَّ السَّيْفُ والفتكَةُ البِكْرُ
وَتَضْرِيبُ أعْنَاقِ المُلوكِ وأن تُرَى لَكَ الهَبَوَاتُ السُّودُ والعَسْكَرُ المَجْرُ
وَتَرْكُكَ فى الدُّنيا دَوِيّاً كَأَنَّمَا تَدَاوَلُ سَمْعَ المَرْءِ أَنْمُلُهُ العَشْرُ

ويذكر تجانفه عن الخمر ، وشغفه بالفروسة :

أَلَذُّ مِنَ المُدَامِ الخَنْدَرِيسِ وَأَحْلَى مِنْ مُعَاطَاةِ الكُئُوسِ
مُعَاطَاةُ الصَّفَائِحِ والعَوَالِي وَإقْحَامِي خَمِيساً فى خَمِيسِ
فَمَوْتِى فى الوَغَى عَيْشِى ؛ لأَنّى رأَيْتُ العَيْشَ فِى أَرَبِ النُّفُوسِ

ويتغنى بجلادته وصبره على شظف العيش :

وإنى لَتُغْنِينى مِنَ الماءِ نُغْبَةٌ وَأَصْبِرُ عَنهُ مِثْلَمَا تصبرُ الرُّبْدُ
وَأَمْضِى كما يَمْضِى السِّنَانُ لِطِيَّتى وأَطْوَى كما تَطْوَى المُجَلَّحَةُ العُقْدُ[1]

ولم يكن جده وتزمته مقصورا على فعله ، بل كان يعم قوله كذلك ، فلم يأت فى شعره ما جرى مجرى العبث إلا قطعتان : إحداهما غزلية يقص فيها مداعبة حدثت له مع فتاة وهى :

لاَعَبْتُ بِالخَاتَمِ إِنْسَانَةً كَمِثْلِ بدرٍ فى الدُّجَى النَّاجِمِ
وَكُلَّمَا حَاوَلْتُ أَخْذِى لَهُ مِنَ البَنَانِ المُتْرَفِ النَّاعِمِ
أَلْقَتْهُ فى فِيهَا فَقُلْتُ انْظُرُوا قد أَخْفَتِ الخَاتَمَ فى الخَاتَمِ

وثانيتهما قالها متهكما وقد مر برجلين قتلا جرذا وأبرزاه يعجبان الناس من كبره ، فجاء هزله أمر من جده :

لَقَدْ أَصْبَحَ الجُرَذُ المُسْتَغِيرُ أَسِيرَ المَنَايَا، صَرِيعَ العَطَبْ

---

(١) الذئاب المصممة وفى أذنابها عقد

رماهُ الكِنانيُّ والعامريُّ وَتَلاّهُ لِلوَجْهِ فِعْلَ العَرَبْ
كِلا الرَّجُلَيْنِ اتَّلى قَتْلَهُ فَأَيُّكُما غَلَّ حُرَّ السَّلَبْ؟
وَأَيُّكُما كَانَ مِنْ خَلْفِهِ فَإِنَّ بِهِ عَضَّةً فِي الذَّنَبْ!

(٦) نثر المتنبي في تضاعيف شعره أبياتا عدة، أبدى لنا فيها صفحته، ونشر مطاويه. ومنها نعلم علم اليقين، أنه لم يحب ولا ينبغي لمثله أن يحب، والمتنبي أحد أفراد قلائل جاء شعرهم صورة صادقة لنفوسهم، ومرآة مجلوة تتراءى فيها نزعاتهم وميولهم، فاذا حدثنا حديثا وجب علينا أن نصدقه، لأنه رجل صريح لايجمجم ولا يوارب، وما قاده إلى البلاء، وألب عليه الأعداء، وحال بينه وبين ما اشتهاه غير هذه الصراحة الصارخة!:

يقول في ذم الدنيا، وعتبه عليها، وعزوفه عن مباهجها وحسانها:

وَمِنْ نَكَدِ الدُّنْيَا عَلَى الحُرِّ أَنْ يَرَى عَدُوًّا لَهُ مَا مِنْ صَدَاقَتِهِ بُدُّ
بِقَلْبِي-وَإِنْ لَمْ أَرْوَ مِنْهَا- مَلالَةٌ وَبِي عَنْ غَوانِيهَا-وَإِنْ وَصَلَتْ- صَدُّ

ويقول في قناعته من الجمال بأيسر نصيب، وزرايته على العشق، وحصانة قلبه، وإبائه على سحر الغانيات:

وَلِلخَوْدِ مِنِّى سَاعَةٌ، ثُمَّ بَيْنَنَا فَلاةٌ إِلَى غَيْرِ اللِّقَاءِ تُجَابُ
وَمَا العِشْقُ إِلاّ غِرَّةٌ وَطَمَاعَةٌ: يُعَرِّضُ قَلْبٌ نَفْسَهُ فَيُصَابُ
وَغَيْرُ فُؤَادِي لِلغَوَانِي رَمِيَّةٌ وَغَيْرُ بَنَانِي لِلزُّجَاجِ رِكَابُ
تَرَكْنَا لأَطْرَافِ القَنَا كُلَّ شَهْوَةٍ فَلَيْسَ لَنَا إِلاّ بِهِنَّ لِعَابُ

وكما ذكر أن شغفه بأطراف الرماح أذهله عن كل شهوة سواها، ذكر كذلك أن السيوف استأثرت بقلبه دون النساء:

تَرُوقُ بَنِي الدُّنْيَا عَجَائِبُهَا، وَلِي فُؤَادٌ بِبِيضِ الهِنْدِ لاَ بِيضِهَا مُغْرَى

ويفصح عن هذا المعنى، ويزيده تأكيداً فى قوله :

لَوْلاَ العُلاَ لم تَجُبْ بِي مَا أَجُوبُ بِهَا   وَجناءُ حَرْفٌ ولاجَرْداءُ قَيْدُودُ (١)

وَكَانَ أَطْيَبَ مِنْ سَيْفِي مُعَانَقةً   أَشباهُ رَوْنَقِهِ البِيضُ الأَماليدُ

لم يَتْرُكِ الدَّهْرُ مِنْ قَلْبِي ولا كَبِدِي   شيئًا تُتَيِّمُهُ عَيْنٌ ولاَ جِيــدُ

ولا يكتفى بالوقوف عند هذه الغاية المتطرفة ، بل يصرح لنا أنه فى غزله يعنى بالبيض ، بيض السيوف ، وبالسمر ، سمر الرماح ، وإنما ساق هذا مساق الكناية ، وذلك حيث يقول :

محبٌّ كَنَى بالبِيضِ عن مُرْهَفَاتِه   وَبالحُسْنِ فى أَجْسَامِهِنَّ عن الصَّقْلِ

وبالسُّمْرِ عن سُمْرِ القَنَا غير أنه   جَنَاهَا أَحِبَّائي وأطرافُها رُسْلِي

عَدِمتُ فؤادًا لم تبتْ فيه فضلةٌ   لِغَيرِ الثَّنَايا الغُرِّ والحَدَقِ النُّجْلِ

ولقائل أن يقول : إن المتنبي بهذه الأبيات ، قد هدم كل ما صاغه من الغزل ، فعزاء ياربات الخدور !

وفى الحق أن المتنبي لم يكن حدبا على النساء ، وما الظن بشاعر يجعلهن فداء للخيل ، فتسمعه يقول :

أَلا كلُّ مَاشِيَةِ الخَيْزَلَى (٢)   فِدَى كلِّ ماشِيَةِ الهَيْدَبَى

وليست هذه أول مخاشناته إياهن ، فحين أراد أن يذم الدنيا لم يجد لها شبيها غير النساء :

شِيَمُ الغانياتِ فِيهَا ، فَلاَ أَدْ   رِى لِذا أَنَّثَ اسْمَهَا النَّاسُ أَمْ لاَ .. ؟

(١) الفرس الطويلة العنق

(٢) الخيزلى مشية للنساء فيها تثاقل وتفكك . والهيدبى ضرب من مشى الخيل فيه جد .

ورماهن بكل آبدة فى قوله :

وَمَنْ خَبِرَ الغوانى فالغوانى ضِياءٌ فى بَواطِنِه ظَلامُ

وتلعّب بهن تلعبًا مفرطا فى هذه الأبيات :

إذا غَدَرتْ حسْناء وفَتْ بِعَهْدِهَا فَمِنْ عَهْدِهَا ألاَّ يَدُومَ لهَا عهْدُ

وإنْ عشِقَت كانتْ أشدَّ صبابةً وإنْ فرِكتْ فاذْهَبْ فما فِرْكُها قصْدُ

وإنْ حَقدتْ لم يبْقَ فى قلبها رضاً وإنْ رضيَتْ لم يبْقَ فى قلبها حقْدُ

كذلكَ أخلاقُ النِّساء، ورُبَّما يَضِلُّ بها الهادِى ويَخفَى بها الرُّشْدُ

بعد ما أسلفناه، يمكننا أن نحكم مطمئنين بأن المتنبى لم يفتح قلبه للحب، وعلى هذا يكون غزله صناعيا بحتا لم يجاوز تراقيه. والآن نولى وجهنا شطر غزله، لندرسه دراسة منطقية معززة بالبراهين من الشعر نفسه، غير متأثرين فى ذلك إلا بنظرتنا الخاصة.

كان حتما على المتنبى - إذ لم يخضع لسلطان الحب - أن يصوغ الغزل الصناعى، ليرضى الفن ويأخذ بأطراف الشعر، على شريطة أن يصدر به مدائحه ترسما لخطا السلف من الشعراء، ولكن المتنبى - وهو الثائر على كل عرف جار وشريعة قائمة - لا يكتم تبرمه بذلك. كأنه يستكثر على غزل لا يخرج من القلب أن يحل هذه المنزلة، فيسمعنا هذه الصيحة الداوية :

إذَا كانَ مدحٌ فالنَّسيبُ المقدَّمُ أكُلُّ فصيحٍ قالَ شِعْراً مُتيَّمُ ؟

ونفهم ضمنا من هذا البيت: أن المتنبى غير متيم، وإن افتن فى النسيب، وأتى بما لم تستطعه الأوائل، وهو دليل آخر على عدم حبه نضمه إلى ما سبق.

ولا ندرى أى الثلاثة أسد رأيا؟ ألمتنبي وهو ينعى على الشعراء افتتاح المديح بهذا النسيب المكذوب، أم شاعر النيل حافظ، لأنه فى رأيه ينافى جلال المدائح الملوكية :

ولا استهل بذكر الغيد مدحته فى موطن بجلال الملك ريان

أم البهاء زهير وهو يخالفهما معا ، فينزله من المديح منزلة النافلة من الفريضة:

مهدت بالغزل الرقيق لمدحه وأردت قبل الفرض أن أتنفلا

ونعود إلى المتنبي فنقول : إنه حين يفتتح قصائده بالغزل ، لا يكثر التلبث به فى عامة أحواله ، ولا يذهب فيه مذاهب بعيدة ، كمن يؤدى واجبا محتوما يكتفى فيه بالقليل الأقل ، ثم يمرق منه مروق السهم إلى الغرض الذى انتحاه : من فخر بنفسه ، أو مدح لغيره ، والغرض الأول يعجله عن التخلص الحسن ، فيأتى انتقاله اقتضابا لا نغفره لشاعر مثله ، وذلك كقوله :

أىَّ يومٍ سررتَنى بوصالٍ لم ترُعْنى ثلاثةً بصُـــدودِ

ما مُقامى بأرضِ نَخْلةَ إلاَّ كمُقامِ المَسيح بين اليَهُودِ

ما ضاقَ قبلَكِ خَلْخالٌ عَلى رَشأٍ وَلاَ سمِعْتُ بِديباجٍ عَلى كُنُسِ

إن تَرْمِنى نكَباتُ الدَّهْرِ عن كثَبٍ ترْمِ امْرأً غيرَ رِعديدٍ ولاَ نكِسِ

وخَصْرٌ تثْبُتُ الأبْصارُ فِيه كأنَّ عليْه مِنْ حَدَقٍ نطَاقا

سَلِى عنْ سيرتى فرَسى ورُمْحِى وسيْفِى والهَمَلَّعةَ الدِّفَاقَا(١)

أما الغرض الثانى ، فيجلى فيه عن سلامة ذوق ، ودقة مسلك ، ولطف تحيل فترى غزله ينعطف على مدحه انعطافاً لا ندرى معه نقطة اتصالها ، إلا إذا درينا طرفى الحلقة المفرغة ، وهى ميزة واضحة له على البحترى ، فإن الأخير – مع ديباجته الفاتنة – يسلك فى مدائحه الاقتضاب المحض ، فيصك آذان القارىء ، ويقطع عليه اطراد النسق ، وإليك أمثلة من تخلص المتنبي البارع :

كأنَّ الجفُونَ على مُقلتى ثيابٌ شُقِقْنَ على ثاكلِ

ولو كُنْتُ فى غيْرِ أسْرِ الهوى ضَمِنْتُ ضَمانَ (أبى وائلِ)

---

(١) الهملعة : الناقة المتدفقة فى السير .

مرَّتْ بنا بَيْنَ تِرْبيْها فقُلْتُ لها من أيْنَ جانَس هذا الشَّادِنُ العربا؟
فاستَضْحكَتْ ثمّ قالت: كالْمُغيثِ يُرى لَيْثَ الشَّرى وَهْوَ من عِجْلٍ إذا انْتَسبا

بِنَفْسي الخيالُ الزَّائِرى بعدَ هَجْعةٍ وَقوْلتُهُ لى: بعْدَنا الغُمْضَ تَطْعَمُ
سَلامٌ فلوْلا الخوْفُ والبُخْلُ عِنْدَهُ لقُلْتُ: (أبُوحفصٍ علَيْنا المُسَلِّمُ)

ولولا الإطالة لسقنا كثيرا من هذه الشواهد، التى تستوقفنا بما حوته من دقة وجمال.

وغزل المتنبي يتسم بما يتسم به شعره عامة: من جزالة اللفظ، وفخامة العبارات ورصانة الأساليب، فأكثره جزل طنان يملأ الآذان، دويا وجلبة مثل:

عَزيزٌ أساً مَنْ داؤُه الحَدَقُ النُّجْلُ عَياءٌ بهِ ماتَ المُحِبُّونَ مِنْ قبلُ
فَمَنْ شاء فلْيَنظُرْ إلىَّ فمَنْظَري نَذيرٌ إلى مَنْ ظنَّ أنَّ الهوى سَهْلُ

أعيدوا صَبَاحي فهْوَ عِنْدَ الكَواعِبِ ورُدُّوا رُقادى فهْوَ لَحْظُ الحبائبِ
وإنَّ نهارى ليْلَةٌ مُدْلَهِمَّةٌ على مُقلةٍ من بَعْدِكُمْ في غَياهبِ

حاشَى الرَّقيبَ فخانتْهُ ضَمائرُه وغيَّضَ الدَّمعَ فانْهلَّتْ بَوادِرُهُ
وكاتِمُ الحُبِّ يومَ البَيْنِ مُنْهتِكٌ وصاحب الدَّمعِ لا تَخْفى سَرائِرُهُ

وأقله لين رقيق، تجده منثوراً فى ثنايا غزله هنا وهناك، لذلك لا أرى شعره صالحا للغناء، وبخاصة فى هذا العصر. ومن عيون غزله الرقيق هذه الأبيات:

أتُراها لِكَثْرةِ العُشّاقِ تَحسَبُ الدمْعَ خِلْقةً فى المآقى؟

ألَمْ يَرَ هٰذا الليلُ عينيْكِ رُؤْيَتى فتظهرَ فيهِ رِقّةٌ ونُحولُ؟

حَكَيْتَ يا ليلُ فَرْعَها الوارِدْ فاحْكِ نَواها لِجَفْنِيَ السَّاهِدْ

بدَتْ قمراً، ومالتْ خُوطَ بانٍ وفاحَتْ عَنْبَراً، وَرَنَتْ غزالا
وجارَتْ في الحكُومةِ، ثم أبْدَتْ لَهُ من حُسنِ قامتِها اعْتِدالا

فَدَى ذلكَ الوجْهَ بدْرُ الدُّجى وذاكَ التَّثنّي تَثَنِّي الفَنَنْ

وبسَمْنَ عن بَرَدٍ خَشِيتُ أُذِيبُهُ مِنْ حرِّ أَنْفاسي فَكُنْتُ الذَّائبا

عَمْرَكَ اللهَ هَلْ رأيتَ بدوراً طَلعَتْ في بَرَاقِعٍ وعُقُودِ
رامياتٍ بأسْهُمٍ ريشُها الهُدْ بُ تَشُقُّ القُلُوبَ قَبْلَ الجُلُودِ؟

ولكنه مع لينه ورقته متماسك كما رأيت، فلا يتفكك ولا يتهالك. ولا أعرف له إلا قطعة واحدة تقرب من هذا. أولها هذان البيتان:

أوْهِ بَدِيلٌ مِنْ قَوْلَتِي وَاهَا لِمَنْ نأتْ والْبَدِيلُ ذِكْراها
أوْهِ لِمنْ لا أرى مَحاسِنَها وأصْلُ واهاً وأوه مرآها

وإذا كنا نحمد له هذا فإنا نحمد له كذلك أن غزله عف اللفظ عف المعنى، لا يشوبه العبث والمجانة كشعر ابن أبي ربيعة، ولا تسقط فيه كلمات الفحش والرفث كشعر بشار وأبي نواس ومن لف لفهم من فتاك الشعراء، فهو إن لم يقتطعه من شعوره، فقد اقتطعه من طبيعته الصلبة القوية. وخلقه الجاد المتزمت، فلا ضير على الفتاة أن تقرأه كما يقرؤه الفتى.

وقد عرف المتنبي بالتهويل والمبالغة، وهي روح سارية في شعره من ألفه إلى يائه. فلم يكن بد أن يجرى في غزله على هذا العرق الأصيل فيه. ولعل الغزل أكثر فنون الشعر قبولا للمبالغة. لأنه تصوير للحب وآثاره. والحب واد أفيح يجد فيه الخيال مرادا و مسرحا، فيجلو على النفوس صورا شتى من هذه الفواجع

التى (أولها السقم وآخرها القتل) . فالمبالغة فيه عذبة سائغة ، لأن لها ما يصدقها فى دنيا الحقائق .

ومثل غزل المتنبى محتاج إلى هذه المبالغة ، لتسكب عليه أشعة حارة تخفى وراءها برودة الحب المتعمل ، وما الذى يبقى للغزل الصناعى ، اذا جرد من هذا الدهان اللامع ، مع خلوه من الروح المعنوية التى تجعله ينبض ويتحرك .
ومبالغات المتنبى كمطامعه ، لاتنتهى الى أمد ، فهو يأبى إلا أن يجتمع له كل ما تفرق من صفات العشاق الصادقين . وأنف الحب فى الرغام !

فيصف لنا التهاب أحشائه ، وتوقد لوعته :

فَفِى فُؤَادِ المُحِبِّ نَارُ جَوًى   أَحَرُّ نَارِ الجحيم أَبْرَدُها

وخُفُوقُ قلبٍ لو رأيتِ لهيبَهُ   يا جَنَّتى ، لَظَنَنْتِ فيهِ جَهنَّما

وتوقَّدَتْ أنفاسُنَا حتَّى لَقَدْ   أشفقتُ تحترقُ العَواذِلُ بيننا

ومخالطة الحب لحمه ودمه ، وظهور آثاره عليه :

جرى حُبُّها مَجْرَى دمِى فى مَفَاصِلِى   فأصبحَ لِى عنْ كُلِّ شُغْلٍ بها شُغْلُ

ومِنْ جَسَدِى لم يَتْرُكِ السُّقْمُ شعْرةً   فما فوْقَها إلاَّ وفيها لهُ فِعلُ

وسفح دمعه الغزير فوق الأطلال وخلف الأظعان :

إنْ كنْتِ ظاعنةً فإنّ مدامعى   تكْفِى مزادكُمُ وتُرْوِى العِيسا

سقيتُه عبَراتٍ ظنّها مطراً   سوائِلاً منْ جُفُونٍ ظنّها سُحُبا

إلى غير ذلك من التهويل الذى ينقل القارىء إلى جو عاصف يخلع القلوب فزعا ورعبا .

وهذه المبالغة توفى على الأوج ، حينما يحدثنا عن نحول جسده . فنضحك كما ضحكنا قبل من قول بشار :

إن فى بردىّ جسما ناحلا لو توكأت عليه لانهدم

ومن ذا الذى لا يغرب فى الضحك حين يقرأ قول المتنبى .

بجسمى منْ بَرَتْهُ فلوْ أصارتْ وشاحِى ثقْبَ لؤلؤةٍ لَجالا

أليس هذا البيت أحق بالزراية من قول أبى تمام :

منَ الهيفِ لو أنَّ الخلاخلَ صُيِّرتْ لها وُشُحاً جالتْ عليها الخلاخلْ

فان يكن أبو تمام قد أرانا محبوبته سلحماة فقد جعل المتنبى نفسه بعوصة . وبعض الشر أهون من بعض . ثم استمع إليه بعد ذلك لتقضى منه العجب :

أراكِ ظننْتِ السِّلْكَ جسمى فعُقْتِهِ عليكِ بدُرّ عنْ لقاءِ الترائب

ولوْ قلمٌ أُلقيتُ فى شقِّ رأسِهِ منَ السُّقْمِ ماغيَّرْتُ منْ خطِّ كاتِبِ

حُلْتِ دونَ المَزارِ ، فاليومَ لو زُرْ تِ لحَالَ النحولُ دونَ العِناقِ

دونَ التعانقِ ناحِلَيْن كشكلتىْ نصْبٍ أدقَّهما وضمَّ الشاكِلُ

والبيت (حلت دون المزار الخ) على ما فيه من مبالغة . لاينكر عذوبته ولطفه وانسجامه ذو ذوق سليم . أما البيت الأخير . فيحسن أن نقف عنده قليلا . لأنه يمثل لنا طرفاً من أخلاق المتنبى . فإننا نراه فيه يخلع النحول على من يحب ، كما خلعه على نفسه فيقول لنا : إنه عاشق معشوق ! وهو من آثار الكبر الذى ملأ نفسه . وقد كشف عن هذا المعنى فى قوله :

أنتَ الحبيبُ ، ولكنِّى أعوذُ بهِ من أنْ أكونَ مُحِبًّا غيْرَ محْبُوب

ومهما يكن فإنه لايسعنا إلا الإعجاب بقدرة المتنبى على التصوير البديع ، الذى يكاد يذهلنا عن الحقائق الثابتة . فنؤمن بدخول المستحيل فى حيز الإمكان . أجل إن عقولنا لاتستسيغ هذه المبالغات الجامحة . ولكن لاريب أن خيالنا يمرح منها فى روض مونق . وتجد فيها حاستنا الفنية لذة لاتعدلها لذة !

وكان المنتظر من المتنبى ـ وقد بالغ فى وصف صبوته ـ أن يبالغ فى وصف حبائبه بالحسن . وقد فعل ؛ حتى نصدقه فى دعاويه الطويلة العريضة . فان هذا الهوى البرح الذى لاع مهجته . وتبل فؤاده . وفعل به الأفاعيل كما زعم ، لا ثمره إلا حسن فائق ليس للناس عهد بسحره وفتنته . ثمن ذلك قوله :

خريدَةٌ لو رأتْها الشمْسُ ما طلَعَتْ ولوْ رآها قَضِيبُ البانِ لم يَمِسِ

أتتْ زائراً ماخامر الطِيبُ ثوْبَها وكالمِسْكِ من أردانِها يتضوَّع

قد ذقْت ماء حياةٍ مِنْ مُقبَّلِها لوصَابَ تُرَبًا لأحْيا سالِفَ الأُمَمِ

رأت وجْهَ من أهوى بليلٍ عواذِلى فقلْنَ نرى شَمْسًا وما طلَع الفَجْرُ

حبيبٌ كأنّ الحُسْنَ كانَ يُحِبُّهُ فآثره أوْجار فى الحُسْنِ قاسِمُهْ

وقد تناول غزل المتنبى كل الألوان التى نظم فيها الشعراء . وكثيرا ما صب على قوالب غيره . أو أخذ معانيه أو نظر إليها من كثب . وفيما مر من الشواهد ويمر نلمح ذلك جليا . ولكن لا ننكر أن للمتنبى قدرة على صهر ما ينتهبه فى بوتقة فكره الجبار ، فيخرجه لنا سبائك جديدة ، وأن له ـ فوق ذلك ـ جملة كقطع الروض غير مدفوعة عن الصدارة فى الغزل الصاعى . ومن منا لا يترنح طربا بهذه الأبيات :

وفتّانةَ العينينِ قتّالةَ الهوَى إذا نَفَحَتْ شيْخًا رَوائحُها شبَّا

فتاةٌ تساوى عِقْدها وكَلامها ومَبسِمها الدرّىّ فى الحسْنِ والنظْمِ

سهادٌ لأجفانٍ ، وشمسٌ لناظِرٍ وسقْمٌ لأبْدانٍ ، ومسْكٌ لِناشِقِ

حسَان التّثنّى يَنْقش الْوَشْى مثلَه ـ إذا مسن ـ فى أجْسامِهِن النّوَاعِمِ

وَيَبْسِمْنَ عن دُرٍّ تَقَلَّدْنَ مثلهُ   كأن التراقِى وُشِّحَت بالمَبَاسِم

لَبِسْنَ الوَشْىَ لا مُتَجَمِّلاتٍ   وَلٰكِنْ كَىْ يَصُنَّ بِهِ الجَمالا

وضَفَرْنَ الغدائر لا لِحُسْنٍ   ولكِنْ خِفْنَ فى الشَّعْرِ الضَّلالا

ومن الإنصاف أن ننوه ببراعته فى تحميل اللفظ القليل معانى كثيرة ، مع الوضوح والجلاء ، وذلك كقوله :

وَكُلما فاضَ دَمعى غَاضَ مُصْطَبَرِى   كأنْ ماسَالَ مِنْ جَفْنِىَّ مِنْ جلدِى

لِبْسَ القِبابُ على الرَّكابِ ، وإنما   هُنَّ الحياةُ ترحَّلتْ بِسَلام

فياشَوْقُ ماأبْقَى ، ويالِى منَ النَّوَى   ويادَمْعُ ماأجْرَى،وياقَلْبُ ماأصْبَى!

وتأمل كيف استطاع أن يعرف (الحب) بنصف بيت تعريفا أجمل فيه كل آثاره ، فأربى على السابق واللاحق .

الحُبُّ مَامَنَعَ الكَلامَ الألْسُنَا

ومن الحق كذلك أن نشير إلى أنه رسام ماهر . فكثير من أبياته صور فيه شائقة نظلمها إن دعوناها شعرا ، فهذا البيت الذى يمثل الحسناء المذعورة تحس مدلوله بالعين المجردة لا بالخيال :

نَفُورٌ عرَتْها نَفْرَةٌ ، فتجاذَبَتْ   سوالِفُها والحَلْىُ ؛ والخَصْرُ والرِّدْفُ

وهذه الأبيات لها خصائص الستار الفضى :

سَفَرَتْ وبَرْقَعَها الفِراقُ بصُفْرَةٍ   ستَرَتْ مَحاجِرَها ولم تَكُ بُرْقعا

فكأنَّها ـ وَالدمعُ يَقْطُرُ فوْقَها ـ   ذهَبٌ بِسِمْطَىْ لُؤْلُؤٍ قَدْ رُصِّعا

نَشَرَتْ ثَلاثَ ذَوائِبٍ من شَعْرِها   فى ليلةٍ فأرَتْ ليالىَ أربَعا

وَاستقبلَتْ قمرَ السَّماءِ بوجهها ... فأرَتْنِي القمرَيْنِ فى وقتٍ مَعَا

وفى غزل المتنبي يسترعى نظرك شيئان :

أحدهما حسن وصفه للعيون ، والسحر المنبعث منها ، ونظراتها الفاتكة ، ويكفينا منها هذا البيت :

وما كُنْتُ مِمَّنْ يدْخُلُ العِشْقُ قلبَه ... ولٰكِنَّ مَنْ يُبْصِرْ جُفُونَكِ يَعْشَقِ

وثانيهما : الابداع فى تصوير مواقف الوداع والرحيل : وقد جاء فى شعره من ذلك بضع قطع ، لم تغادر شيئا يقع بين المفارق والمشيع إلا أحصته : من عبرات جارية ، وزفرات صاعدة ، وصفرة لون ، واختلاج عين ، وإشارة مع الايجاز المفهم الجميل . ومبعث الروعة فيها أنه يختم كل موقف ببيت ، يُعَدّ إجمالا لما سبق له تفصيله :

خذ مثلا هذه الأبيات :

قُبَلٌ مُسَلِّمَةٌ ، وطرْفٌ شاخِصٌ ... وحشاً يذوب ، ومَدْمَعٌ مسفوح

عَشِيَّةَ يعْدُونا عَنِ النظرِ البُكَا ... وَعَنْ لذَّةِ التوديعِ خَوفُ التفرقِ

حشايَ على جمرٍ ذَكِيٍّ مِنَ الهوٰى ... وعينايَ فى رَوْضٍ مِنَ الحُسْنِ ترْتَعُ

أليس كل بيت منها خلاصة تامة لكل موقف من مواقف البين الفاجعة ؟!.

وقد قالوا فى بيت (جميل) :

ألا أيها النوام ويحكمو هبوا ... أسائلكم هل يقتل الرجلَ الحب ؟

إن أوله أعرابى فى شملة ، وثانيه مخنث يتفكك من مخنثى العقيق ، ونحن إذا قلنا : إن بيت المتنبي الأخير صدره (الجحيم) وعجزه (الجنة) لا نعدو الحقيقة .

وقد نفح المتنبي (الأعرابيات) بخمس قطع من الشعر ، خفيفة الروح ، مونقة الدل ، فضلهن فيها على الحضريات ، واحتج لحسنهن احتجاجا بارعا يحببه إلى النفوس . وغزله ـ وإن كان صناعيا أيضا ـ نحس كأن عليه عبقة من عواطف

المتنبي . وإشراقة من روحه . والسر فى هذا كما أعتقد ، أن كثرة جوب الشاعر المفاوز والقفار ، أتاحت له الاختلاط بالبدويات ، فأنس بهن ، وأعجب بما حوين من جمال فطرى ، يزينه العفاف والصون ، هذا إلى أن المتنبي - على تحضره - تشوبه أخلاق البدو ، فتراه صريحا يكره التمويه والتزويق والتدليس ، ويحب الصراحة ، وكل ما تنبجس به الفطرة البيضاء . وقد تغنى بذلك فى قوله :

وَمِنْ هوَى كلِّ مَنْ لَيسَتْ مُمَوِّهةً   تركْتُ لوْنَ مَشيبي غيْرَ مخضُوبِ

ومِنْ هوَى الصِّدْقِ فى قوْلى وَعادَتِه   رغبْتُ عنْ شَعَرٍ فى الرأسِ مكذُوبِ

والمتنبي كما نعرفه شاعر فخور ، لا تخلو له قصيدة من هذا التسامى ، الذى ملأ عليه الصدور إحناً وحسائك ، ولكن كيف يتسنى له الفخر فى الغزل ؟ أيقول : إنه حسن جميل ! فيجمع إلى الكذب هذه المباهاة الرحوة السمجة ؟ معاذ الله أن يرضى بهذا الذى يقول :

مُنًى كُنَّ لِى أنَّ البياضَ خِضابُ   فيخفَى بتبييضِ القُرُونِ شبابُ

ليالىَ عندَ البيضِ فَوْدَايَ فِتنةٌ   وَفخرٌ ، وَذاكَ الفخرُ عندِيَ عَابُ

إذاً فماذا يفعل ؟ الأمر سهل ! فليفخر بالعفة ، فإنها تلائم الغزل ، وتكسوه حلة (عذرية) ترفعه إلى درجة القداسة : وهنا ينفسح المجال للمتنبى الفخور . فيصول فيه ويجول ! فمن ذلك قوله :

عوَاذِلُ ذاتِ الخالِ فىَّ حواسِدُ   وإنَّ ضجيعَ الخَوْدِ مني لَماجدُ

يَرُدُّ يداً عنْ ثَوْبِها وَهْوَ قادرٌ   ويعصِي الهوَى فى طَيْفِها وهْوَ رَاقِدُ

وقد يمازج عفته الصلف الذى لا يفارقه حتى مع النساء فيقول :

وأشنَبَ معسولِ الثنِيّاتِ واضحٍ   سترْتُ فَمِي عنهُ فقبَّلَ مَفرِقى

وأجيادِ غِزلانٍ كجِيدِكِ زُرْنَنِى   فلَمْ أتبَيَّنْ عَاطِلاً من مُطَوَّقِ

وما كُلُّ مَنْ يهوى يَعفُّ (إذا خَلا) عَفافِي ويُرْضِي الحُبَّ والخيلُ تلتقِي

ولكلفه بالعفاف نراه يخلعه على الحبيب :

وَيَمنعُ ثغرهُ مِنْ كلِّ صَبٍّ ويَمنحُهُ البَشامةَ والأراكا

وعلى الممدوح كذلك :

وأهوَى مِنَ الفِتيانِ كُلَّ سَمَيْدَعٍ نَجيبٍ كصدرِ السَّمْهَرِيِّ المُقَوَّمِ

ولا عِفةَ في سيفِهِ وسِنانِهِ ولكِنَّها في الكفِّ والطَّرْفِ والفَمِ

وقد يصف المحبوب عوضاً عن العفة بالمنعة والحصانة والتحرز ، وقد لهج كثيرا بهذا المعنى :

فِيهِنَّ مَنْ تَقْطُرُ السُّيوفُ دماً إذا لسانُ المُحِبِّ سمَّاها

متى تَزُرْ قومَ من تهوى زِيارَتَها لا يُتْحِفوكَ بغيرِ البِيضِ والأَسَلِ

وَمَا شَرَقي بالماءِ إلا تَذَكُّراً لماءٍ بِهِ أهلُ الحبيبِ نُزُولُ

يُحَرِّمُه لَمْعُ الأسنَّةِ فوقَه فليسَ لظمآنٍ إليه وُصُولُ

واعتقادي : أن عفته - وهو صادق في الفخر بها - لا ترجع إلى دين يمتثل أوامره ، ويجتنب نواهيه ، ولا إلى ثواب يرجوه ، أو عقاب يخشاه من الله أو لعاد ، وإنما هو خُلق يمت بسببٍ وثيق إلى نفسه المرة الأبية ، وطبعه الوعر المتين ، وقد أشار هو إلى شيء من ذلك في قوله :

وتَرَى المُرُوَّةَ والفُتُوَّةَ والأُبُوَّ ةَ فِيَّ كُلُّ مَليحةٍ ضَرّاتِها

هُنَّ الثلاثُ المانعاتي لذَّتِي في خَلوتِي ، لا الخوفُ مِن تَبِعاتِها

ويأتي بعد تمدحه في الغزل بالعفة ، تمدحه بالوفاء ، وهما ينبثقان من منبع واحد ، فيشدو بهذه الأبيات

بليتُ بلى الأطلال إن لم أقف بها وقوفَ شحيحٍ ضاع في التُّرْبِ خاتمه

يُرادُ من القلب نسيانُكم وتأبى الطباعُ على الناقل

إذا قدمتُ على الأهوالِ شيّعني قلبٌ إذا شئتُ أن أسلاكموه خانا

وليس الوفاء بمستنكر على المتنبي الذي يقول :

خُلقتُ ألوفاً لو رجعتُ إلى الصِّبا لفارقتُ شيبي مُوجَعَ القلبِ باكيا

ولا بعجيب من الذي يضرع إلى قلبه ألا يتمرد عليه بعد فراقه سيف الدولة :

حببْتُك قلبي قبل حبِّك من نأى وقد كان غدَّاراً فكن أنت وافيا

وأعلمُ أن البينَ يُشكيك بعْده فلستَ فؤادي إن رأيتك شاكيا

والحكمة في شعر المتنبي سمة واضحة ، وهي حليه وزينته ، ولكني لا أعدها آية عبقريته ، فإن من ذاق حلو الدهر ومره ، وخالط الملوك والسوقة ، وسكن المدن والوبر ، ونال جوائز العرب والعجم ، وجاب الأرض من مصر إلى شيراز ، وتقلبت على عينه وجوه الأيام ، يجب أن تنطق الحكمة من نواحيه ، وهل الحكمة إلا قضايا مسلمة ينتزعها العقل الحصيف من كثرة التجارب ، وطول الاختبار .

إنما سر العبقرية حقا يتجلى في قدرة هذا الرجل على إخضاع الغزل للحكمة أو الحكمة للغزل !

فكيف استطاع هذا الشاعر الجبار ، أن يؤلف في نطاق واحد بين العبث والجد ، ويجمع بين الماء والنار ؟

هذا هو الذي يحير اللب ، ويشده البصيرة : وتلك هي معجزة المتنبي إن صح له معجزة . وفيما يلي ثمرات يانعة من هذا الروض الأغن :

زيدي أذى مهجتي أزدك هوى فأجهلُ الناسِ عاشقٌ حقد

وجائزةٌ دعوى المحبّةِ في الهوى وإنْ كانَ لا يخفى كلامُ المنافقِ

وإذا خامرَ الهوى قلبَ صبٍّ فعليه لكلِّ عينٍ دليلُ

أَفِى خُلُقُ الدُّنيَا حَبِيباً تُدِيمُه فَمَا طَلَبِى مِنْهَا حبيباً تَرُدُّه ؟

وما صَبابةُ مُشْتاقٍ على أملٍ مِنَ اللقاء كَمشْتاقٍ بِلاَ أَمَلِ !

وَمَنْ لُبُّهُ مَعْ غَيْرِهِ كَيْفَ حَالُه وَمَنْ سِرُّهُ فى جَفْنِهِ كَيْفَ يَكْتُمُ ؟

وَقَدْ يَتَزَيَّا بِالْهَوَى غَيْرُ أَهْلِهِ وَيَسْتَصْحِبُ الْإِنْسَانُ مَنْ لَايُلَائِمُهُ

إلى غير ذلك من الحكم التي تنطف لها في غزله، فأوقعها أحسن موقع.

ولا نحب أن نختم هذه الكلمة، دون أن نشير إلى هنوات التاث بها غزل المتنبي. وكان حقا عليه أن يصونه منها، فإن الغزل للطفه وصفائه يرتقه مالا يرتق غيره من فنون الشعر، ولست أريد أن أتقصى ما أخذ عليه، فلذلك مظانُّ يرجع إليها، ولكنى أثبت هنا شيئين يتصلان بالذوق:

الأول أن المتنبي يورد الغزل فى تضاعيف الرثاء، وهو آخر مايصلح لذلك، على حين أنه يعيب تصدير المدائح بالغزل، وليس فيه ما يعاب. فمن سقطاته فى رثاء عمة عضد الدولة:

لوْ فَكَّرَ العاشِقُ فى مُنْتَهَى حُسنِ الذى يَسبيهِ لَمْ يَسْبِهِ

ويقول فى رثاء أم سيف الدولة ثم أخته:

صَلاةُ اللهِ خَالِقِنَا حَنُوطٌ علَى الْوَجْهِ الْمُكَفَّنِ بِالْجمَالِ

يَعْلَمْنَ ـ حينَ تُحَيَّا ـ حُسْنَ مَبْسِمِهَا وَلَيْسَ يَعْلَمُ ـ إلاَّ اللهُ ـ بالشَّنَبِ

والثانى. أن العنجهية قد تفيض على لسانه فى بعض الأحيان، فيغلظ قوله ويخشن، فيكاد يصبح غزله هجاء، فمن ذلك قوله:

بئْسَ اللّيالِى سَهِدْتُ مِنْ طَرَبٍ شَوْقاً إلَى مَنْ يَبيتُ يَرْقُدُهَا

فالليالى التى يأرق فيها المحب شوقا إلى الحبيب الناعم بطيب الكرى. لايدمها

غير المتنبي العجيب في كل شيء ، ومن جفاء طبعه وغلظ كبده ، أن يفتح فمه بهذه الأبيات :

أَيَا خَدَّدَ اللهُ وَرْدَ الْخُدُودِ وَقَدَّ قُدُودَ الْحِسَانِ الْقُدُودِ

تَحَمَّلُوا حَمَلَتْكُمْ كُلُّ نَاجِيَةٍ فَكُلُّ بَيْنٍ عَلَىَّ الْيَوْمَ مُؤْتَمَنُ

مَا فِي هَوَادِجِكُمْ مِنْ مُهْجَتِي عِوَضٌ إِنْ مُتُّ شَوْقًا وَلَا فِيهَا لَهَا ثَمَنُ

فهذا الدعاء مستنكر قبيح ، وأقبح منه أن يعتز بمهجته إلى هذا الحد . فلا يرى كفاءً لها ما ضمنته الهوادج من الحسان . فما بمثل هذا يخاطب الغواني ، ولكنه الكبر الذي تأزّر به وارتدى ، وقد يقال : إن (جميلا) دعا على بثينة في قوله :

رمى الله في عيني بثينة بالقذى وفي الغر من أنيابها بالقوادح

فنقول : إن دعاء جميل من أثر الحب الذي أدنفه ودلّهه وغطى على بصره وبصيرته ، وقد يكون من باب صرف عين الكمال جريا على أساليب العرب . على أن جميلا قد أخذ عليه ذلك مع تعالم الناس فرط صبوته وصدق هواه .

وما تقدم كله يهون إذا قيس بهذا البيت :

يَا وَجْهَ دَاهِيَةَ الَّذِي لَوْلَاكَ مَا أَكَلَ الضَّنَى جَسَدِي وَرَضَّ الْأَعْظُمَا

فوجه الداهية ، هذه الكلمة وحدها ، تنهض دليلا على كذب المتنبي في دعواه الحب .

وبعد فقد أثر عن جرير أنه قال : ما عشقت قط ، ولو عشقت نسبت نسيبا يبكي العجوز على شبابها . ويا ليت شعري أي نسيب كان يشدو به المتنبي ، لو قرحت قلبه الصبابة ، ولدع مهجته الغرام ؟ أكبر الظن أننا كنا نسمع منه ألحانا تفرض العشق على القلوب ! فلا يسعنا إلا أن نحمد الله على أن هذا الشاعر عوفي من هذا الداء العياء ، فسلم بسلامته خلق كثير .

علي الجندي

قصة :

المتنبي يعشـــق ... !

بقلم محمد سعيد العريان

المدرس بمدرسة السيدة حنيفة السلحدار الابتدائية

« كل أدباء العربية على أن المتنبي نشأ نشأة السواد من أهل »
« الكوفة ، وأن حياة الكفاح شغلته وملأت تاريخه ، حتى لم يكن »
« فيها من الفراغ ما يهيء له أن يتذوق الحب ، فيترجم عن إحساس »
« العاشق .

« ولكن صديقنا الأستاذ محمود محمد شاكر يرى رأيا غير »
« ذاك ؛ فيزعم أن المتنبي علوى منكور النسب ، وأنه كانت له في »
« بلاط سيف الدولة قصة غرام ، بينه وبين (خولة) أخت الأمير .(١)

« وهو رأى إن يكن جديدا في تاريخ المتنبي ، فلعل في تصويره »
« بالقصة التالية ما يجلو غامضه ، ويؤلف غريبه ، ويكشف عن هذا »
« الرأى الجديد على ضوء من الفن يهيء للباحث المنصف أن يجادل »
« أو يقتنع ... فمن شاء فليؤمن ... »

مضى الفتى العلوىُّ الثائر المتوثب (أبو الطيب المتنبي) ، تتقاذفه الفلواتُ من غُربة إلى غُربة ، وتترامله الأحداثُ من بلد إلى بلد ، وتنوشه من كل جانب سهامُ البغي والشر والحسد ، ويقعد له في كل مَرْصَد كيدٌ يتربص ...

مِمَّن أبوك يا فتى ؟.. وما بلدك ؟ ... وهل له أن يجيب ... ؟

أما الأولى فمن دونها سيوفُ (الأدعياء) تنكر عليه أن يجهر بعلويّته ، وما لَهُ قِبَلٌ بأن ينازلهم فيثبت لهم ... !

وأما الآخرة ... وا أسفاه ... ! هذه جدته على الفراش تُحتضر ، وَحِدَة

---

(١) المقتطف : يناير ١٩٣٦

منقطعة فريدة ، فيأبون عليه أن يدخل (الكوفة) ليتزود منها بالنظر الأخير ..!

* * *

لِمَن المُلكُ اليوم؟ إنه للروم والترك وللعجم، ولا سلطان لغير الروم والترك والعجم .. فى العراق ، وفى مصر ، وفيما بين العراق ومصر . فى الشرق والغرب يبسط الأعاجم سلطانهم على الدولة العربية ؛ فأيان يلتفت الشاعر العربى لا يجدُ إلا الروم . ومن أين لأبى الطيب أن يسكن إلى ذاك أو يستقرَّ إليه ؟ إنه ليرمى ببصره إلى هنا وهناك ، فلا يرى إلا مايحزنه ويتهاوى بآماله ؛ لقد خرج إلى الدنيا طريدا يتيما ، ينكرون عليه نسبه ، وينكرون عليه طموحه : ثم ها هو ذاك وقد سلخ من عمره أربعا وثلاثين ، يتلفت حواليه ، فما تزيده النظرة إلا شعورا بالوحدة واليُتم والغربة .. ولكن فى أعراقه يفور دم العروبة ، وفى أعصابه تنبض أمانى الشباب ، وفى نفسه تهمس ألحان الشعر : « ستكون أميرا يا أبا الطيب ، فأجمع عزمتك على الجهاد حتى تبلغ . فتنال مَنالك من (الشامتين) ، وتُديل للعربية من (دولة الخدم) .... »

وانطلق الشاعر المتوثب يطوى البيداء مطويًا على همٍّ وألم ، وفى نفسه أحقاد تثور وأمانٍ تصطرع ... حتى انتهى إلى (حلب) فى ظل بنى حمدان .

* * *

هنا دولة العرب ، وهنا عز العروبة ، وهنا تستقر الأمانى لتستجمَّ للجهاد . واجتمع الشاعر العربى الثائر ، بالمجاهد العربى الظافر ؛ وانعقدت أواصر الود بين أبى الطيب المتنبى وسيف الدولة بن حمدان ؛ وآثره الأمير وأدناه وفتح له بابه ... فإذا هو منه كبعض أهله ... وتراءيا قلباً لقلب ، فما بينهما سرٌّ ولا دونهما حجاب ؛ وتكاشفا رأياً لرأى ، فما هما إلا فكرة واحدة تسعى إلى هدف ؛ وتنوَّرا الأمل المشترك من بعيد ، فإذا هما على الخلوة يتذاكران الرأى ، ويتحايلان للظفر .

وصار شاعرُ الأمير صفيَّه وخليله وصاحبَ سرِّه ؛ يلقاه أيان يريد بلا إذن ولا ميعاد ... وعرفه حاجبُ الأمير وأهله ، وعرفته (خَوْلةُ) بنت حمدان ، فعرفتْ رَجُلَها وعرَف ...

وقال أبو الطيب: «لله أنتِ يا ابنةَ المجد، لِعينيكِ كنت أطوى البيدَ وتتقاذفني الفلوات!»

وقالت خولة: «ومن أجلكَ أنتَ يا أبا الطيِّب، كانت تُخَيِّل لىَ الأحلامُ ماليس من دنياى!»

وطوتْ آخرَ كلماتها فى ابتسامة، وأطبق الشاعر شفتيه على كلام؛ وقالت له عيناها... وقالت لها عيناه...

ودخل الشاعر فى تاريخ جديد...

***

وقال المتنبي لسيف الدولة: «أتُراكَ يا أميرى تعرف من أمرى ما يقنعك بالرضا...؟» فوعده سيف الدولة أن يزوِّجه خولة...

وراح الشاعر يحلم... ثم عاد يحاول أن يلق صاحبته فيقولَ لها وتقول له، ولكن الباب كان محكم الغَلَق؛ فلَوَى وجهه عن بابها وفى نفسه شوق وحنين، ولكنه استمر يحلم...!

ومضى ينشد أميره من شعره... أذلك شعر المتنبى الثائر المتكبر ربيبِ الوحشة وطريدِ الفلوات، أم هو الفنُّ النسويُّ البديع يهيِّئ للشاعر مادته ويصنع له بيانه...؟ أسَمِعتَ وسوسةَ القُبَل...؟

وسمع سيفُ الدولة وطرب، وسمع جلساؤه فعرفوا الجرْس والرنين: وهمس شاعر فى أذن صاحبه، ومال صديق على من يليه، وقال الخامس للسادس: «إن شاعر الأمير لعاشق!» وامتدت للكلام أطراف وأذناب...

وراح الشاعر ثانيةً يحاول أن يلق صاحبته. فإذا من دون الباب بوّاب... وعاد إلى الأمير يستنجزه الوعد، فإذا الأمير فى شغل عنه بالروم وحرب الروم، فهو يستمهله إلى حين... ورجع إلى نفسه يستلهمها الصبر فلا تلهمه، ويستعينها على مايجد فلا تعينه... ونظر حواليه، فإذا عيون تنظر. وإذا شفاه تبتسم. وإذا ألسنة فى أفواه تلجلج بكلام...

كم يلق العاشق من نأى الحبيب والدار قريب...؟

وقال الرجل لنفسه : « ما أنا والأميرَ وأختَ الأمير : إن كانت لى فما يحول بينى وبينها ؟ وإن كانت عِدَةً بلا وفاء فما مُقامى ؟ »

وقالت له نفسه : « هوّن عليك ياصاحبى ، لا حبٌّ بلا وجد ، إلا أن تكون نارٌ بلا إحراق ! »

فعاد الشاعر ينتظر ويحلم . ولكن الأيام لا تنتظر ؛ ومضى شهر فى أذيال شهر . وتصرّم عام وراء عام . والشاعر العاشق على صبره يرجو ويتق . . .

وقال (أبو فراس الحمدانى) الشاعر لصاحبه : « ما هذا الرجل بينى وبين خَوْلةَ ونحن أولاد عمومة ؟ أما كفاه مجلسه من الأمير : أبعدَنا وأدناه ، وقطعَنا وأصفاه ، وحرَمَنا وأعطاه . وأسكتَنا واستمع إليه ؛ أفيطمع بعد ذلك فى نسب الأمير وصهره . . . ؟ »

وجاءت مقالته تسعى إلى المتنبى فنالت منه . . !

« أبو فراس يطمع فى خولة ؟ ولكنها مُسمَّاة علَىَّ ؛ أيقف بين الأمير والوفاء بما وعد أن أبا فراس من عمومته . . . ؟ ومن أكون إن كان ذلك موضعى من نفس الأمير . . . ؟ »

فعادت نفسه تقول : « بعضَ هذا ياصاحبى . إن الحبَّ حيلةُ الحياة . فلستَ تبلغ منه بالكبرياء ما تبلغ منه بالصبر والحيلة . . . ! »

ولكن العاشق المتكبر لم يستمع هذه المرة إلى نفسه وهواه ؛ لقد غلبته الكبرياء فكفر بالحب ؛ وهل كان المتنبى أن يخضع للحب أو يتضرّع . . . ؟

وتوزّعه العشقُ والكبرياء . وتقاسمته عزةُ الرجل ورقةُ العاشق . . وغدا على مجلس الأمير ينشده . فاذا الحب المستور يستعلن ، وإذا النفس الثائرة تفور ، وإذا (أنتَ) على لسان الشاعر المادح تعود (أنا) . وإذا هو يفتخر وكان يريد أن يمدح . . .

وفهم سيفُ الدولة ما يعنى ، وفهم جلساء سيفِ الدولة ؛ ولكن حرماتِ الأمير الكريم ردّت الكلامَ فى الأفواه . فما استطاع أحد منهم أن يقول : إن فى بيت الأمير قصةَ غرام . . . !

ولكن (أبا العشائر الحمدانى) لم يسكت، فأرسل غِلمانه يأخذون على العاشق الجرىء طريقه ... ونجا الشاعر من كيدٍ كان يُراد، ولكنه لم ينتقم، وشفع للعدوّ عند الشاعر أنه منتسبٌ إلى الحبيب ...

واستيأس المتنبى ونفد صبره، فأزمع الرحلة إلى بعيد لعله أن ينسى ...

وفارق سيفَ الدولة متكبراً عزيزاً أبيا. ولكنه خلّف قلبه وراءه، وخلف الأمل فى الملك والجاه والسعادة؛ وأيقظته الحقيقةُ بعد حلم دام تسع سنين: ومضى على غير وجهٍ، وقلبُه يتلفت إلى تلك التى خلفها وراءه: وعادت تتقاذفه البلاد، وتترامه القفار، يساوم للمجد، ويجاهد للإمارة، لعله أن يعود إلى من يحب وعلى رأسه تاج ... !

ومضت سنوات، وقلب العاشق ما ينفك ينبض، وما يبرح يذكر هواه ومن أحَبّ؛ فما ينشد شعرا إلا وفيه لوعة من أثر الفراق، أو حسرة من وحشة الحبيب النائى ... !

وا أسفا لمشتاقٍ بلا أمل ... ! تمضى لياليه بغير جديد، وتنقضى أيامه على غير ميعاد، مغيظا على بعده، غَيْظَ الأسير على القِدِّ ... !،

ليت شعرى، أكان هو وحده المعذبَ الملتاعَ بهذا الفراق الذى اختاره فراراً بكبريائه ... ؟

ودخل الكوفة يطلب العزاء فى الوطن الذى حرُم دخولَه منذ الشباب، تتجاذبه الكبرياء والهوى، وتتدافعه الأمانى والذكريات، ويسترجع الماضى ويهتف بالغد ... ولكن ما استقرت به النوى حتى جاءه النبأ ... ماتت خولة ... !

وتهاوتْ آمالُ الشاعر أملاً أملا فما يستمسك، ونالت منه الحسرة والتفجع فانصدعت كبده. وسكت أمير شعراء العربية سنتين لا ينشد، والشعر يترقرق دموعاً فى عينيه ويتصعّد زفرات ... !

يا عجبا ! إن النفس لا تجيش بأبلغ الشعر إلا حين يتأبّى البيان على اللسان ... !

وهانت على الشاعر دنياه، واستنجزه الحب أن يفى فما تلبث، وأصابته الطعنة القاتلة بعد عام ثالث ... !

وسكت شاعر العربية إلى الأبد ، ولكن الناس ما تزال تتحدث عنه بعد ألف سنة من عمر الزمان ولن تزال . . .

وكُتب فى تاريخ الأدب قصة غرام عجيبة ، لم يعرفها الناس إلا بعد ألف سنة ، لأن العاشق فيها كان أكبر وأعظم من أن يقول : « أنا أحب . . . ! »

وظلَّت هذه القصة سرًّا فى ضمير الغيب كلَّ هذا الزمان ، لتكون بهذا الكتمان العجيب رمزاً عجيبا لصبر هذا الشاعر العاشق : أبى الطيب المتنبى . . ؟

محمد سعيد العريان



ذكرى الخلود

العيد الألفي لشاعر العربية أبي الطيب المتنبي

بقلم على شرف الدين

المدرس بمدرسة دمياط الابتدائية

شِعْرُ أَسْعِدْ ويا قريحةُ جُودِي ... إنَّها في الزَّمانِ ذِكْرَى الْخُلُودِ

وَفِّيا القولَ شــاعراً عربيًّا ... ملء عينِ الدُّنا وسمعِ الوُجودِ

تَخِذَ الدَّهْرَ راوياً مَلأَ الكَوْ ... نَ جَمالاً بلحنِهِ والنَّشِيدِ

لبستْهُ الأيامُ في عيدِها الضَّا ... حِكِ عقداً بجيدِ بيضاءَ رُودِ

يَبْهَرُ العيدَ حالياتٍ فيلمسْ ... نَ من الرَّوْعِ نيِّرَاتِ العُقودِ

أين حَبُّ الجمانِ من نَسَقِ الشِّعْ ... رِ ونظمٍ مُفَصَّــلٍ مَنْضُودِ

مُشْرِقِ الصَّفحتينِ ينضَحُ بالسِّحْ ... رِ ويجري بخمرةِ العُنْقُودِ

فاضَ بالجوهرَين : معنى كريم ... رَفَّ كالظلِّ في ثنايا الوُرودِ ،

وخيالٍ كأنه رمْيَــةُ القوْ ... سِ جموحِ العنانِ طلقٍ شَرُودِ

دوَّخَ الفارسَ المُلِحَّ وأجرَى ... في لَبَانِ الأغرِّ ماءَ الوَرِيد

يقدَحُ الأرضَ بالسَّنابك سعياً ... خلفَ نقْعٍ بِرأســهِ مَعْقُودِ

حلبــةٌ للبيانِ أحرزَ فيها ... قصبَ السَّبْقِ من قديمِ العُهودِ

* * *

وسريّ من الخرائدِ مَوْشىٌّ م حواشِى القريض وَشْىَ البُرودِ
يتمنَّى الربيعُ من نَوْره النَّا ضرِ حلْيا لغُصْنه الأمْـــلودِ
وتميلُ الآذانُ من جرسِهِ السَّا حرِ عن بُلبلِ الرُّبَا الغِرِّيدِ
يبعث الحكمةَ الحصيفةَ يجرى مُعْلنًا نشرها بريدُ الخُلود
صـــيَّرت فى العفاء فلسفة الفرْ سِ ، وغطَّت على نِتاجِ الهنودِ
ثقفتهـا يدُ الحكيم فجاءتْ تزحم الرَّمحَ فى شباةٍ وعودِ
تنظم الحادثات جيلا فجيــلا نظم سلك النحور درَّ العقودِ ،
ونسيبٍ كأنه وهج الجمـ ـرِ مَشاراً للمُدْنفِ المعْمودِ
ألبس الغصنَ والورودَ ريماً حـينَ غنَّى بمائسٍ وخُدودِ
كاد يُزجِى هَواهُ منْ أدبِ الصَّنْ عة حِسًّا بالصخرة الصَّيخود
مفرد فى البَيانِ يخفقُ تيهاً فى رؤس الأيَّام خفقَ البُنودِ
عربىّ البيانِ والنسَب الضا حِى ، وَأعظِمْ يعرب من جُدود !
كل مجـــد مؤثّل نشأتْهُ حرجاتُ (الغضا) وسفحُ (زرُودِ)
سرحة فى بكور(نيسان)والـكُلّ م عيال فى ظِلّها المـمـدود
رب شعرٍ بنى الخلودَ لمُزجيــهِ مطلاً من فوقِ هامِ الوُجُود
وحـديد من اللسانِ خَلوبٍ فلّ من ضَرْبه حـديدُ الجنودِ
صاغ مدحاً لسيف حمدانَ ، ودَّت شبهَ حبَّاتهِ صـدورُ الخُود
شاد من ذكرهِ ، وأحيَاهُ ميتا ربَّ ميت ما شَامَ جوفَ اللُّحود

شابَ من حولهِ الزمان ولم يَبْعـــدُ شبابا عن يافع أمرود

٭٭٭

وطموح بأنفـه يضرب الجفـ نَ ويأبى عليه كحلَ الهجود
مستطارٌ يطوى الحزونة والسهـ ل ويعدو بوهدها والنجود
يدفع الرحل جاهداً يطلب المجـ د وفى صدْره زئيرُ الأسود
لسوادِ العراق آنا ، وآنا لحمى (النيل) أو إلى (يبرودِ)
عجبَ الدهرُ : كيف ينظمُ دنيا من جَسيمِ الآمالِ ظهرُ قعود
ينشدُ الملك وهوَ فى فمه المـ لكُ كثيرَ العُفاة جمّ الوفود
لا يضير الهُمَامَ إخفاقُ سعيٍ قد يعقّ الشرارُ قدحَ الزنود .
حسبُه فى الخلودِ ملكٌ عريض فيه سلوى عن ملكه المفقودِ

على شرف الدين



مجـــد المتنبي

بقلم احمد محمد سالمان
المدرس بمدرسة غمرة الابتدائية للبنات

يَاضَاتِقاً بِالْكَوْنِ فِي رُحْبِهِ   تحيَّـــةَ الشعرِ إلى رَبِّهِ
ذِكراكَ بعد الألفِ قد خُلِّدَتْ   فى خَلَدِ الدهرِ وفى كُتْبِهِ
وهْي لَعمرى خيرُ مَانِلتَه   من دَهرِكَ العاتى ومن حَرْبِه
فَشِعرُكَ الصَّفْوُ به لِلنُّهى   سَلْسَالُ رَاحٍ لَذَّ فى شُربه
يَرْجُو الَّذى يَحْسُوهُ مِنْ عَذْبِه   رِيًّا ، فَيُظْمِيهِ إلى عَذْبِه
مِنْ غَزَلٍ أذكى لَهِيبَ الجَوى   مِنكَ وقد رَقَّ إلى صَبِّهِ
أُغنيةُ الغِرِّيدِ فى شَدْوِه   وَسَلْوَةُ المَحْزُونِ فى كَرْبِهِ
كم حِكْمَةٍ أرسلتَهَا فانْتَهَت   مِنْ مَشْرِقِ الكَوْنِ إلى غَرْبِه
وكم مَدِيحٍ صُغْتَ فى عَاهِلٍ   أنْفَسَ فى اللؤلؤ مِنْ رَطْبِهِ
إعجابُه بالمَدحِ أَرْبَى عَلَى   إعجابه بالتَّاجِ أو عُجْبِه
أَجَلْ ، فقد نال بِطيب الثَّنا   ذِكْراً وَعَاهُ الدَّهْرُ فى قلبه
بشعرك الصائبِ فى حُكْمِهِ   والعارضِ الزَّاخِرِ فى صَوْبِه
رآكَ سَيفُ الدولةِ المُنْتَضَى   سَيفاً لهُ أقطعَ منْ عَضْبِهِ
فلَمْ يَزَلْ يصقُلُ فى رَوْقِه   وَيَحْذَرُ السَّطْوَةَ منْ غَرْبِه

***

أعلَيْتَ قدرَ الشعرِ فى أهْلِهِ   لمَّا تساميتَ اعتِزَازاً به

وَكَمْ ثَنَاء لك أصفيتَهُ حَتى انْتَشى كافورُ من نُخْبه[1]
إنْسَانَ عينِ الدَّهْرِ تُسْمِيه إذْ إحْسَانُه غطَّى على عَيبه
أصبيْتَه بالمَـدْحِ ياشاعراً لولا الأمانى الغُرُّ لم يُصْبه
تَرضى فتُهدى مِنحًا لم تجِدْ فى الحسن من ترْب ولا مُشبه
وَتغضَبُ الغضْبةَ تَرْمى بهَا مِنْ أرْقَمِ الهَجْوِ ومن ضبِّه
دُمُسْتُقَ الأعْجَام خَلَّيْتَه بيْنَ الوَرَى أهْوَنَ من كلبه
وَابْنَ الْعَميدِ الشهمَ أوْلَيْتَه مِنْ غُرَرِ المَدْحِ وَمِنْ نُخْبه
وَعَضُدَ الدَّوْلَةِ قوَّيْتَهُ وَابْنَ خَصِيب زِدْتَ فى خِصْبه
وَمَنْ كَسَيْفِ الدَّوْلَةِ المجْتَبَى قَدْ انتَشَى بالمدح فى سَكْبِه؟
أوليتَه ما شئت من طُرفة كالدر أو كالتبر فى ذوبه
وَرَامَ حُسَّادُكَ أنْ يَصْدَعُوا وُدًّا، فأسْرَعْتَ إلَى رَأْبه
وَخِلْتَهُ مَالَ إلَى قوْلهِمْ فَرَاقَهُ ما قلتَ فى عتْبه
بِالْمدْحِ وَالحِكْمَةِ وَالْحُبِ وَالْـــإخلاص سيطَرْتَ على لُبِّه
وَعَرفَ المَلْكُ لِمَنْ بِرِّه صِدْقَ وَفَاهُ وَعُلا كَعْبه
وَخَسِىءَ الْحَاسِدُ فى كَيْدِهِ وَخَابَ وَارْتَدَّ عَلَى عَقْبه
ذو الفَضلِ ما أكثرَ حُسَّادَهُ وَإنْ أجلُّوا النَّجْمَ فى قُطْبِه

☆☆☆

(١) النخب الشربة العظيمة

يَا صَاحِبَ الهمَّةِ وَثَّابَةً بل يا أخا الرِّئْبَالِ فى وَثْبِهِ
دُمْت عَلَى عِزِّكَ مُسْتَبْسِلا جَلْدًا، وَمَا فَرَّطْتَ فِي جَنْبِهِ
وَالحُر لا يَرْضى الدَّنَايَا، وَلَوْ أَلجأهُ الأَمْرُ إلَى صَعْبِه
تَرَبّصَ (الْفَاتِكُ) مُسْتَخْفِيا تَحْتَ جَنَاحِ اللَّيْلِ فى حِزْبِهِ
وَنَصحَ النَّاصِحُ أَنْ تتَّقى أَذَاهُ، أَوْ تَهْرُبَ مِن قُرْبِه
أَوْ تَقْتَلِى صَحْبًا لِدَفعِ الْأَذَى وَالمَرْءُ قَدْ يَأْمَنُ فِي صَحْبِه
فَعَزَّ أنْ تَسْمَعَ هذا، ولم تَهْتَمَّ بِالْمَوْتِ ولا خَطبِه
وَقُلْتَ: حَسْبِي صارِمِى صاحِبا يَقْذِفُ فى الأَلْبَاب منْ رُعْبِه
تَعرِفُنِى الهيجاءِ وَالْخَيْلُ وَالْـلَّيْلُ إِذَا أَقبلَ فى شُهْبِه
وَالطِّرْسُ وَالأَقْلَامُ والرُّمْحُ لِى فَكَيفَ أَخْشَى الْهَوْلَ فِى رَكْبِه؟
أقْدَمْتَ يَحْدُوكَ إِبَاءٌ إِلَى مَوْتٍ سَعَى عُجْبُكَ فى جَلْبِهِ
وَسَاقَكَ الزَّهْوُ إلَى مصرَعٍ رَأَيْتَهُ أكرَمَ فى غِبِّهِ
وَقُلْتَ لِلنَّاسِ: اذْكُرُوا مَاجِداً نَخْوَتُهُ أَفْضَتْ إِلَى نَحْبِهِ
فَيَا أَبَا الطيبِ منْ قوله وَشَامِخَ السُّودد منْ كَسْبِهِ
إنْ لَمْ تَسُدْ فى مَحْشِدٍ سُدْتَ فِى مَجْدٍ سما لَمْ تَأْلُ فِي غَصْبِه
حَسْبُكَ مَجْداً أَثرٌ خَالِدٌ مِلْءَ فَمِ الدَّهْرِ، وَأَكْرِمْ بِهِ!

احمد محمد سالمانه

كلمة تقدير

يسر لجنة التحرير أن تنوه بأسماء الزملاء الذين عاونوها معاونة صادقة فى إخراج هذين الجزأين من الصحيفة عن أبى الطيب المتنبى ؛ ولقد كان من حقهم علينا أن نذكر لهم جهودهم الفاضلة فى أعداد سبقت ، ولكن جنوحهم إلى التواضع ، ورغبتهم فى أن يكون عملهم خدمة خالصة للثقافة ، ومساهمة صامتة فى مجهودات طائفتهم ، قد حرمتنا مدةً التحدث بأسمائهم إلى قرائنا ، غير أن صحيفة المتنبى فى قوتها وتحديها للبحث الأدبى الحديث ، تأبى علينا إلا أن نعلن أسماء هؤلاء الإخوان الذين عكفوا فى حجرة الصحيفة بنادى دار العلوم على تجربات هذين الجزأين . فكان لهم الفضل فى إخراجهما فى هذه الدقة .

ولعل أقل ما قاموا به أن راجعوا شعر معظم المقالات على ديوان أبى الطيب ، وضبطوه بالشكل ، كما رقموا الجزء الأكبر من المقالات .

وهم فى كل ذلك وفى غيره من أعمال الصحيفة الإدارية عاملون مخلصون .

أولئك هم الأدباء الأمجاد :

المتولى قاسم افندى	المدرس بمدرسة محمد على الملكية
عبدالخالق عبدالمجيد عطية افندى	بوزارة الحربية والبحرية
محمد رشيد بركات افندى	المدرس بمدرسة بنبا قادن الابتدائية
محمد سعيد العريان افندى	« « السيده حنيفة السلحدار
محمد يوسف المحجوب افندى	« « محمد على الملكية للبنات

أولئك هم سواعدنا فى عملنا ، وخلفاؤنا من بعدنا .

التحرير

فهرس العدد الأول من السنة الثانية

الصفحة	الموضـــوع	الكاتب
٣	مقدمة	رئيس التحرير
٥	فلسفة المتنبي من شعره	محمد مهدى علام : المفتش بوزارة المعارف
٦٧	طموح المتنبي	على الجارم بك : » » »
٧٧	الخيال فى شعر المتنبي	عبد الحميد حسن : » » »
٩٦	عبارة المتنبي بين البداوة والعجمة	محمد عبدالجواد : مدرس فقه اللغة بدار العلوم
١١٦	الحيوية فى شعر المتنبي	محمود البشبيشى : المدرس بدار العلوم
١٣٢	غزل المتنبي ونصيب الخيال والفلسفة فيه	السباعى بيومى : » » »
١٧٥	غزل المتنبي وحبه	على الجندى : المدرس بالمدرسة الخديوية
١٩٩	المتنبي يعشق...! (قصة)	محمد سعيد العريان : السيدة حنيفة السلحدار
٢٠٥	ذكرى الخلود (قصيده)	على شرف الدين : بمدرسة دمياط الابتدائية
٢٠٨	مجد المتنبي (قصيدة)	احمد محمد سالمان : مدرسة غمرة الابتدائية للبنات
٢١١	كلمة تقدير	قلم التحرير

مطبوعات

جماعة دار العلوم

إعجام الأعلام

تأليف

محمود مصطفى

أستاذ الأدب العربى بكلية اللغة العربية

فلسفة الكذب

تأليف

محمد مهدى علام

المفتش بوزارة المعارف